

حامد خيرى الحيدر

# وداعاً مدينة القمر

حكايات من خيال بلاد ما بين النهرين القديمة





وَدَاعَا مَدِينَةَ الْقَمَرِ



حامد خيرى الحيدر

# وَدَاعاً مَدِينَةَ الْقَمَرِ

حكايات من خيال بلاد ما بين النهرين القديمة

ميزر للنشر والتوزيع  
maizar förlag



«عزيزٌ جليسر في الزمان كتاباً»

ميزر للنشر والتوزيع

مالمو ... السويد

2018

أسم الكتاب: وداعاً مدينة القمر

أسم المؤلف: حامد خيرى الحيدر

تصميم الكتاب: حامد خيرى الحيدر

لوحة الغلاف: شمس الحيدر

إصدار: دار ميزر للنشر والتوزيع \_ مالمو / السويد

الطبعة الأولى: تشرين الأول (أكتوبر) 2018

حقوق النشر محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع الدولي: 978-91-984712-1-2

**Bokens namn: Farväl månens stad**

**Författare ©: Hamid Al Haidar**

**Boksdesign ©: Hamid Al Haidar**

**Omslag ©: Shams Al Haidar**

**Maizar förlag: [www.maizar.se](http://www.maizar.se) Malmö \_ Sverige**

**Första upplagan: Oktober 2018**

**ISBN: 978-91-984712-1-2**

إهداء..

الى شعب العراق العظيم،  
المُبتلى منذ ولادته بمَلحمة  
الصبر





مَنْ سَاءَ سَبَبٌ أَوْ هَالَةٌ عَجَبٌ  
فَلِي ثَمَانُونَ عَامًا لَا أَرَى عَجَبًا  
الذَّهْرُ كَالذَّهْرِ وَالْأَيَّامُ وَاحِدَةٌ  
وَالنَّاسُ كَالنَّاسِ وَالدُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

أبو العلاء المَعْرِي



## هذه الحكايات

### بلاد ما بين النهرين أزلية الوجود

بلاد ما بين النهرين، أرض فسيحة امتدت حتى حدود الزمن وأفق الحضارة، اختزلت بين مفارقات انبثاقها وتناقضات تاريخها الموهل في القدم، أسطورة الأنسان وملحمة النضال المُعفرة بعَبق الأصالة وعبير الصمود، لترسم عبر ذلك الحيز الممتد لآلاف السنين بين عُسر ولادتها وحاضر أيامها، خطأً بيانياً مُتعرجاً احتير بتناقضاته وصُعوبة تفسيره، من صُعود نحو قمة الرفاه والازدهار، الى هبوط مُنحدر يَهوي الى قاع الخراب والدمار.

لكن الغريب في كلتي هاتين الحالتين المتضادتين، هو وصول أبْن هذه البلاد الى نتيجة واحدة وغاية متماثلة، تتلخص بفكرة مُبهمة كان هو نفسه قد نبذها عن عقيدة وجوده وناموس ثقافته، رغم استحقاقه المُطلق لها، ربما خوفاً منها أو كرهاً لها، لكنها الصقت به مع تتابع الدهور وتعاقب الأزمان، رغم إرادته وما قدرته حتميات الوجود ومذاهبيات بديهية التطور، ألا وهي جدلية الخلود، في حالة لم تعرفها أدبيات المجتمعات الأخرى في قديم هذا العالم وحديثه، لا لشيء إلا لكونه قد أمسك قبل غيره من سائر البشر بطرف خيط الحياة الواهي، ففهم امتداده الواصل بين النشوء والفناء.

ولم يأتي ذلك الإدراك المُطلق من فراغ وهمي أو فكر سَطحي، بل أثر مسيرة شاقة موحشة، حُبلى بصراعات بعيدة المدى، تباينت نتائجها وتوزعت أضدادها، بين مفارعة غضب البيئة الفاسية التي أختارها مسرحاً لطموحاته، وبين صدام المصالح والأهواء الانسانية التي شكّلت ديكوراً متأرجحاً لخلبة صراعاته، من قهر وظلم وقمع لإرادة الجماهير، وما نتج عنها من مُعاناة التمايز الطبقي والاجتماعي بين تنوع أبنائه، لتُكمل ذلك أطماع وأحقاد قوى من أحاطوا بأرضه، وأحلامهم الساعية دوماً لقتل بذرة الحضارة التي ولدت بين أحضان التوأمين الخالدين دجلة والفرات.

لذلك ورغم حتميه هذا القدر المُحزن الذي رَسَمه شعب النهرين في مُخيلته، تراه قد وهب حياته لواقعه الآني، وأدام سعيه الدؤوب لرُقيه وتألّقه، لكنه بذات الوقت ظل مُكبّلاً بهاجس المُعاناة وصورة الحُزن التي طبّعت شخصيته، مُقيدة تفكيره الحالم بجمال الحياة وفرحها، بعد أن عرّف الخاتمة الحتمية لسوداوية مُستقبله، فلا شباب يتجدد، ولا فرح يدوم، ولا بيت يبقى، ولا أرض خصبة تظل، ولا مُلكٌ يبقى مُمسكاً برقاب الناس، ليتخذ من زمانٍ ولى أدباره محطة لاستراحة مخيلته، وخُلماً لعصرٍ ذهبي يتغنى بزهو ذكرياته.

وربما كان هذا نوعاً من الحدس الغريزي الذي لا يملكه سوى من فهِم لغز الوجود، فتلاعب بحيثياته، بعد أن عرف مُسبقاً كيف ستكون خاتمة الاشياء وتناقضات أقدارها، ونتيجة لعبة الحياة وسماجة لهوها المُمل مع بني الانسان، مؤكداً مع تبدل والأدوار وتعاقب حقب التاريخ، أن الحياة هي نفسها في كل دهرٍ وحين، وما يتغيّر فيها فقط الوجوه والأدوات.

ليغدو هذا التصور الغريب بلوحته السريالية المبهمة الألوان والغامضة الأركان، أشبه بأحجية مُتشابكة الخيوط مُستعصية الجلاء، لا يستطيع أي أنسان حلّ شفرتها أو فكّ طلاسمها، إلا بعد أن يمدّ جسوراً بين صدى ماضٍ زائل لم يبق منه سوى أنقاضه، وضجيج حاضر مُر أكره أبناء أرض النهرين على استنشاق غبار معاناته، عندها فقط سيدرك ذلك الحائر المُبتلى بتفسير هذه الحقيقة، أن هذه البلاد رغم هول مأساتها ونزيف جراحاتها وحكم التصحّر الذي اصدره الطغيان بحقها، ستظل تعانق أهداب الربيع وتستنشق أنفاس الخلود.

ولأجل تصوّر هذه المعادلة الغريبة، وفهم كل ما تقدّم من سطور حائرة متناقضة، كانت هذه الحكايات.

**حامد خيرى الحيدر**

**باحث آثاري**

**السويد 14 تموز 2018**

## وداعاً مدينة القمر

تدور أحداث هذه الحكاية عام 2006 ق.م، بعد احتلال مدينة "أور"  
السومرية من قبل الغزاة "العيلاميين"

نظر الى موقد النار في الغرفة الطينية الصغيرة المظلمة القابعة في إحدى أطراف المدينة، ثم أخذ بعصى صغيرة يحرك قطع الجمر، ليزيد من تأجج اللهب الذي أنطبع وهجه في عينيه، مُعيداً الى ذاكرته أحداث الأسباب الماضية، كيف التهمت مثل هذه النيران مدينة "أور"، وأحالت مدينة الإله "ننار"، هذا البنيان العظيم الذي شيده شعب المدينة على مدى قرون من الزمان، الى كيان مسخ مُدمر يكسوه الرماد وترتفع منه أعمدة الدخان، وتتناثر بين أزقته جثث النساء والأطفال.

أحست زوجته الجالسة على حصيرة بالية الى جانب أبنيتها النائمة بشروده وبما يفكر...

\_ يجب أن ننسى كل ما جرى ولا نفكر إلا في الأيام القادمة، أنها ليلتنا الأخيرة في "أور".

\_ حتى اللحظة لا أكاد أصدق أنني سأرحل عن وطني الى بلاد "مارتو".

كان "أكورغال" قد أمضى الأيام الماضية مع زوجته "كشتن أنا"، وأبنته الوحيدة "شاسا" ذات العامين في خوف وقلق كبير، حين تحول من كاتب معروف الى هارب مُطارد، منذ أن دمرت جيوش "عيلام" مدينته، عندها أمر العيلاميون بقتل جميع كتبة المدينة، وبمعجزة نجا بعائلته الصغيرة من برائن الجنود، ليهربوا من دارهم الى هذه الغرفة، أملين أن يُرحّلهم أحد أصحاب القوافل الذين يعرفهم صديقه الوفي "أينمركار" الى أرض "مارتو".

بتثاقل وقف ثم أتجه صوب الكوة الصغيرة الوحيدة في أحد الجدران والمطلّة على الزقاق، ليرى من خلالها بيوت المدينة وقد غدت ظلماء صامتة تشع من بعضها قناديل خافتة، ثم ردد بصوت خافت كأنه يكلم نفسه.. (أهكذا أحالك الزمان يا "أور"؟ أين هي أنوارك الساطعة التي كانت تضاهي وهج الشمس؟ أين اختفت لياليك الزاهية؟ ماذا حلّ بأهلك الذين لا تغيب الضحكة عن شفاههم؟ أهكذا يتحول غناؤك الذي كان يصدح في كل مكان الى نواح أرامل، وبكاء أطفالٍ عراة هدّ الجوع أجسادهم الغضة، بعد أن أنستهم الفاجعة شكل الابتسامة؟ كذبة أم كابوس مزعج هذا الذي نعيشه اليوم؟ أيعقل أن تتحول هذه الأرض الخيرة بين ليلةٍ وضحاها الى خربة داخلها موت وخارجها موت ولا يُسمع فيها سوى نعيق البوم؟).

\_ لقد نسينا الوطن يا "أكورغال"، ها أنت ترى عظم مصيبتنا معه.

\_ محال أن تنسى الأوطان أبنائها، مشكلتنا لم تكن يوماً مع وطننا، فهو الآخر غدا ضحية مثلنا، أن مصيبتنا الكبرى مع الذين تسلطوا على رقاب شعبه ومقدرات خيراته.

\_ أياً كان السبب فإن "أور" قد ماتت، وأخذت معها كل ذكرياتنا الجميلة وأحلامنا الملونة.

\_ محال أن تموت "أور" يا "كشتن أنا"، ما دام لدى أبنائها قلوباً تنبض بالحياة، وفي عروقهم دماء تجري.

\_ وماذا تبقى من هؤلاء الأبناء، بعد أن قُتل المغنين والعازفين والكتّاب، ومن بقى منهم حياً غداً أما سجيناً لدى "العيلاميين"، أو شريداً مطارداً ينتظر الرحيل إلى أرض أخرى بعد أن ضاق به رداء الوطن، لم يبق من هذا الشعب المظلوم سوى الجوعى والبائسين، والجهلة المنافقين الذين نسوا ماضيهم وأصبحوا أذناً لهؤلاء البرابرة.

\_ حتماً سيضمّد شعبنا جراحه وينتفض يوماً، لقد صبرت "سومر" أكثر من مئة سنة على احتلال "الكوئيين" أفاعي الجبال، حتى قادهم "أوتوحيكال" إلى الحرية.

\_ كان ذلك منذ زمن بعيد، لا أظن أن الزمان سيجود مرة أخرى بأمرٍ مثل "أوتوحيكال"، ليوحد "ذوي الرؤوس السود" نحو الانعتاق.

\_ ستبقى أرض سومر عامرة بالأبطال الذين يعرفون طريقهم إلى الحرية. آه، يا وطني! أقدرك أن تكون دوماً ضحية لجلادي العصور؟

قطع حديثهم طرق خفيف على باب الغرفة، كان صديقهما "أينمرگار"، الذي دخل عليهم بهدوء ليطمئن أنهم على ما يرام محذراً إياهم.

\_ هناك بضعة جنود سيمرون أمام الغرفة، لكن لا تقلقوا لن يفتشوا أياً من بيوت الزقاق.

\_ هل رشيتهم؟ سأل "أكوركال".

\_ أعطيتهم جرة كبيرة من نبيذ التين، وبضعة شبقلات من الفضة، فقط لا تتكلموا بصوت عالٍ، وأطفأوا ضوء القنديل حين تشعروا بقومهم، وسأكون عند طرف الزقاق تحسباً لكل شيء، منتظراً الرجل الذي سيرحلكم إلى خارج المدينة، وعليكم أن تجهزوا حوائجكم، فقد نأتي في أية وقت، كونوا مستعدين.

هل تستحق مغادرة "أور" لكي ينجو بعائلته أن يضحى بكل شيء، تاريخه، ما كتبه طيلة السنين الماضية، أهله، رفاق الدرب الأوفياء؟ فكر بذلك وهو ينظر إلى "شاسا" الجميلة النائمة على فراش القش الصغير، ثم جلس إلى جانبها تاركاً أصابعه تداعب شعرها الفاحم الجميل المدهون بزيت السمسم، وجدائلها الرفيعة المزينة أطرافها بالخرز الملون. رآها وهي تبتسم في منامها، فأبتسم هو الآخر رغم ما كان يشعر به من قلق.. (ترى بماذا تفكر هذه العصفورة النائمة؟ لعلها تحلم بوطن جميل، أرض خضراء فسيحة تطرزها الورود وتطير في سمانها فراشات وطيور ملونة؟ ليتني أستطيع الغور في رأسك لأرى بما تحلمين به يا "شاسا"؟ يا حلوتي الغافية على الأرض الحزينة، أتدريين بما يدور حولك؟ أتعرفين أين ستكونين غداً؟ هل ستذكرين يوماً "أور"، وطنك الذي رحلت عنه قبل أن تذوب أيامك بقسوته؟ آه، يا أبنتي! أي وطن هذا الذي سيحتضنك غداً وتكملين معه مشوار حياتك؟ يا ترى هل ستعودين يوماً إلى "أور"؟ لا أحد يعلم).. ثم التفت إلى زوجته سائلاً..

\_ هل تعرفين شيئاً عن أرض "مارتو"؟

\_ يقولون أن فيها الحياة التي يحلم بها جميع البشر، حيث يعيش الناس هناك بسلام وكرامة، ودونما ظلم، حتى سمعت أنه لا يُسمح لأحدٍ هناك بضرب الحمير.

\_ حميرهم لها كرامة وأهل "أور" تنهش جثثهم الكلاب، زمن أحرق! أعني هذا أننا سنغدو حميراً بكرامة في تلك البلاد؟ يا لسخرية القدر! كأنك تشبهين أرض "مارتو" بـ"دلمون"؟

\_ لم أحلم يوماً بالعيش في تلك الأرض المقدسة، لقد استحوذت الآلهة عليها منذ زمن بعيد، لتجعل منها وطناً أبدياً لها.

\_ كما استحوذ العيلاميون على "أور"، هو احتلال ومحوٌ للآخر في الحالتين، تبقى الحياة الحقيقية هي في وطني يا "كشتن أنا".

\_ ما أغرب عشقك للوطن! كأن هناك سر دفين بينك وبينه حتى الآن لم أعرفه.

\_ حتى ولا أنا، صدقيني، هل هذا الوطن هو الذي احتواني أم أنا الذي احتويته، فهو أكبر من أن يكون جزءاً مني وأصغر من أن أكون جزءاً منه .

\_ حتماً ستنساه يوماً، أن دوامة الزمن كفيلة بذلك.

\_ ماذا أنسى وأنسى؟ قالها "أكورغال" بحسرة وهو يهزّ رأسه ناظراً الى الأرض، ثم أعقب بهدوء.. (هو كل حياتنا وما نملك فيها، أنه الزوارق الجميلة التي تعبر نهر الفرات، والنخيل الشامخ الذي تلامس هاماته أطراف القمر، هو الأدب والفن، المنشدون والممثلون والعازفون والكتبة، الغناء العذب الذي يصدح به بسطاء "أور" ليغسل قلوبهم من الهموم، هو الأجداد العظام الباحثين عن الخلود، "كلكامش"، و"أدبا"، الذكريات وليالي السمر والحانات الجميلة المنتشرة على ضفاف النهر، هو طريق المحبين وملتقى العشاق عند مرسى القوارب، أنه بساتين البرتقال وأشجار الزيتون، وحقول الخير العامرة بسنابل القمح الذهبية، هو يعني الأهل والأحبة والرفاق الأوفياء الطيبون، أنه أنت وأنا، أنه أبننتنا "شاسا"، لا يا "كشتن أنا"! محال أن يُنسى كل ذلك، سيبقى فراق الوطن ألماً في صدورنا، فلا هو مفارقنا ولسنا بقادرين على تحمله).

تعالت في الخارج حركة ثقيلة لثلةٍ من الجنود يسرون في الزقاق...

همست "كشتن أنا" .. جنود عيلام.

سارع "أكورغال" الى أطفاء القنديل بينما احتضنت هي أبننتها النائمة، قلوبهم تسارعت ضرباتها، دقائق ثقيلة تمر، انتظروا خلالها ابتعاد الخطوات عنهم شيئاً فشيئاً حتى تلاشت، أعاد اشعال القنديل ثم أخذ يهدأ من روع زوجته.

\_ شكراً للآلهة التي أبعدهم عنا.. (قالت "كشتن أنا")

\_ بل أبعدهم شيفلات الفضة وجرة النبيذ التي أعطاهها لهم "أينمرگار".

\_ مذ عرفتك وأنت تكره الآلهة، حتى أنك لم تدخل المعبد سوى مرة واحدة، كان ذلك في يوم زواجنا، حينها كنت مُرغماً.

\_ أثنان لم أحبهما قط في حياتي، الآلهة والتجار.

\_ فلماذا التجار؟

\_ هل نسيت ماذا فعلوا بـ"أور" وبالمسكين "أبي سن"، وكيف جعلوا بلدنا الطافح بالخيرات يستجدي الشعير من البلاد الأخرى.

\_ لكنهم ربحوا في النهاية، وهاهم يعيشون مع عوائلهم في ظل العيلاميين دون خوف، حتى أموالهم وبيوتهم ومتاجرهم ظلت باقية كما هي لم يمسهما أحد.

\_ هم نفسهم في كل زمان ومكان، والحياة بالنسبة لهم معادلة للريح والخسارة.

\_ حتى الوطن؟

\_ بل وحتى الحب.

التفتت اليه وأمسكت وجهه بيديها النحيلتين المرتجفتين..

\_ ذكّرتني بالحب يا "أكورغال" هل ما زلت تذكره؟

أبتسم ثم وضع ذراعه على كتفها..

\_ وهل تظنين أنني نسيته يوماً؟ أنه كل ما تبقى لنا بعد أن فقدنا كل شيء في هذا الزمن اللعين، وبه فقط نشعر أننا لازلنا عائمين على هامش الوجود.

\_ أنتم كما أنتم أيها الكتبة، كما يقول الناس، تعيشون مظلومين وتظلمون معكم عوائلكم، وها أنت بعد كل الذي فعلته طيلة السنوات الماضية في "أور" تغادرها دون أن تحصل منها على شيء.

\_ يكفيني أنني اقتطفت منها أجمل وردتين. (قال هذا وأشار بعينه إليها والى أبنته النائمة).

\_ يقولون أيضاً أنكم ستظلون بدون آلهة ولا معابد ولا كهنة، وستبقون لا تملكون غير عقولكم والواكم.

\_ لست بحاجة الى تلك الآلهة ولا أو من إلا بشعبي، أن آلهتي هي أرض "سومر"، ومعبدي هو "أور"، أما كهنتي فهم جميع "ذوي الرؤوس السود".

\_ ومن يحدد المصائر أليست الآلهة؟

\_ الشعوب هي التي تحدد مصائرهم وليست الآلهة.

\_ لكنني سأظل أو من بها وأقدم لها القرابين، ولا بد أنها ستعيننا ذات يوم.



\_ لا تنسي أن تزيدي الملح قليلاً على قرايينك! (قال هازناً، ثم أردف).. تباً لتلك الآلهة رفيقة الملوك والأمرء والأثرياء، المتخمة دوماً على حساب الفقراء والبائسين، دون أن تستمع لدعواتهم أو تحرك ساكناً بشأنهم.

\_ لكن من المؤكد أنها ستتحرك يوماً.

\_ ومتى سيكون ذلك؟ أن آهات الثكالي في "أور" تكفي لتحريك كل أعاصير الأرض، ألا تكفي لتحريك تلك الآلهة؟ لقد نستنا آلهتك يا "كشتن أنا" وباعتنا الى المجهول.

عندها فتح "أينمرگار" الباب بسرعة.

\_ حانت ساعة الرحيل، الرجل الذي سينقلكم ينتظر الآن مع حميره وعربته قريباً من هنا، الطريق سالكة الآن وخالية من جولات الجنود، هيا بسرعة، فالليلة مقمرة وأخشى أن يكشف رحيلكم ضياء القمر.

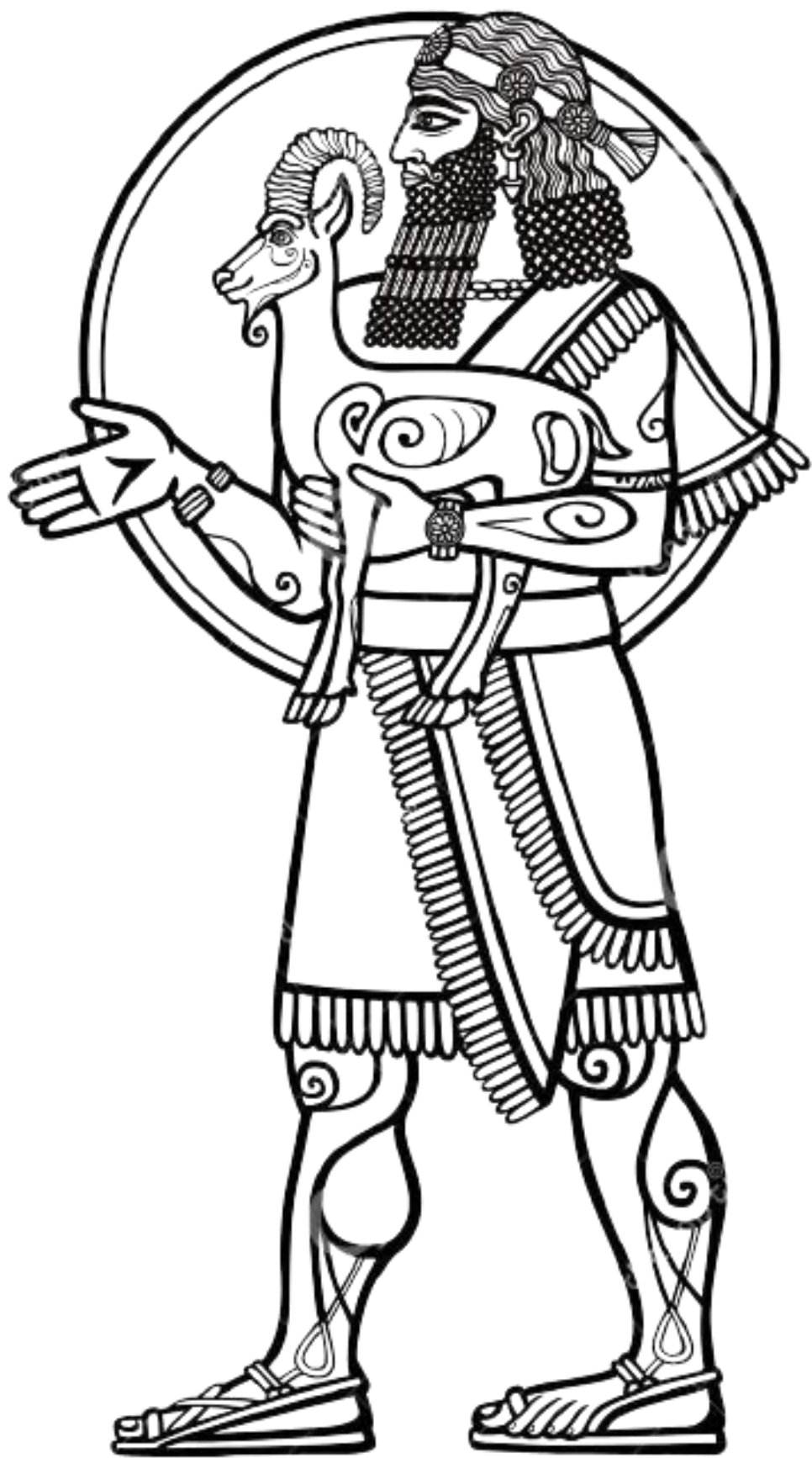
بُعجالة لملموا حوائجهم البسيطة ومتاع سفرهم، ليسيروا ببطء وحذر حيث ينتظرهم الرجل، وضعوا حملهم على الحمير، بينما جلست "كشتن أنا" في العربة الى جانب "شاسا" الجميلة النائمة التي رفضت الاستيقاظ من نومها، كأنها ترفض مغادرة وطنها الحلم، ثم ودّعوا على عجل صديقهم الوفي "أينمرگار"، الذي رفض مغادرة المدينة رغم ما فيها من خطر، ليبدنوا رحلتهم المضنية نحو مفاهم الأبدى.

مشت القافلة الصغيرة بهدوء قاطعة الزقاق تلو الزقاق، الى خارج المدينة الصامتة الحزينة. خلال مسيرهم أنتبه "أكورغال" الى قرنفة بيضاء جميلة أزاحت بعناد الرماد السميك الذي يغطي الطريق، رافعة وجهها الى السماء كأنها تريد غسل وجهها بنور القمر، أبتسم ثم تمت مع نفسه.. (ستعودين يوماً يا "أور"، حتماً أنك ستعودين).

بتواصل خطواتهم المتعبة، أخذوا يبتعدون عن المدينة المكللة بالسواد، ومن فوق أحد الروابي المحيطة بها، التفت "أكورغال" الى "أور" مُلقياً عليها النظرة الأخيرة، رأى القمر وهو يشع بضياءه عليها ليزيح عنها سواداً لا يليق بها، كأنه أب حنون يحتضن أبنته المفجوعة بأبنائها.

صاحت به "كشتن أنا" .. (أنظر الى الأمام يا "أكورغال"، دَع الماضي ورائك).

لكنها وبدون أن تشعر التفتت هي الأخرى الى مدينتها، ودون أن تدري أسقطت عينها دمعتين، كانت آخر دمعات تذرفها على أرض "أور".



## نحو قصر الأمير

تدور أحداث هذه الحكاية في مدينة "لکش" السومرية، قبيل اندلاع ثورتها العارمة عام 2400 ق.م

طريقٌ مُترَب طويل، خطواتٌ لأقدامٍ مُتعثرة تحمل بقايا أنسان، تتمايل قامته من شدة الضعف ووهن الجسد، لا تسترهُ غير قطعة ثوب عتيق بال، وصندل مُمزق مُهترئ، لا يكاد يحمي تلك الأقدام المُتهالكة، أنغرز الحصى الناعم فيها دون أن ينتابه أدنى أحساس بالألم، بعد أن فقد ذلك الشعور من كثرة ما لاقاه، لا يكاد يسير بضع خطوات حتي يتكأ قليلاً على إحدى الجدران الطينية، ليستعيد بعضاً من قوته كي تعينه على مواصلة مشيه نحو ذلك الأفق البعيد الذي لا تبدو من ملامحه غير العُتمة. على هذا المنوال المتباطئ الرتيب واصل "أونتاش" سيره قاصداً قصر الأمير .

قطع بمسيرته المتباطئة تلك سوق المدينة، حيث كانت الحياة في "لکش" سقيمة كئيبة، بالرغم مما كان يوحي ظاهرها المزوّق المُزيف، الذي تحاول سلطة الأمير تجميله، لإخفاء حقيقة واقعها المُزري الذي تعيشه، أنصب في وسطه تمثال كبير للأمير بوجهه القاسي المُتجهم، ماداً يده للأمام كأنه يأمر الجميع بالسكوت، والناس يَمرون بجانبه رامين إياه بنظرات الغل الحاقدة، لم يقف أحداً عند قاعدته سوى بعض البغايا، اللواتي أتخذن منها مرتعاً ومثابة لتجمعهن الرخيص، أما الحوانيت فكانت مُشرعة الأبواب، عارضة بضائعها المتنوعة أمام المارة المنتشرين بينها هنا وهناك على اختلاف هياتهم، البسطاء منهم كانوا يكتفون بالنظر إليها دون أدنى قدرة منهم على الشراء، بعد أن نخرتهم الفاقة حتى النخاع، بالمقابل ترى التجار قد ازدادت سمنتهم وانتفخت كروشهم كقطط المطايخ الكسولة، يجلسون أمام حوانيتهم بملابسهم الفاخرة موزعين ابتساماتهم الصفراء الكاذبة، مُحاولين استمالة الزبائن لمبيعاتهم، هاتقين بعلو أصواتهم.. (أنها خيرات أميرنا العظيم)، (أنها نِعَم أميرنا المُفدى). أما أقرانهم الذين لا يريدون أن تُبَح حناجرهم بمثل هذا الزعيق، فليس لديهم من عمل يقومون به سوى وزن شقيقات الذهب والفضة، ثم وضعها في أكياس جلدية صغيرة، غير عابئين بالحمالين المُتعبين العاملين في حوانيتهم، وقد احدودبت ظهورهم من كثرة تحميل البضائع وأكياس الحبوب الثقيلة، ناظرين الى أولئك الذين أنساهم اكتناز الأموال معنى الانسانية، نظرات حادة تبقى معانيها بين ثنايا قلوبهم المُتقيحة.

كانت صور هؤلاء المظلومين المتعبين شبيهة بحاله هذا، حيث غدا مع معظم الفلاحين الكادحين في المدينة، بعد أن طردوا من أراضيهم ودورهم، ثم سلب كل ما يملكون لعجزهم عن سداد تلك الضرائب اللعينة التي فرضها جُباة الأمير عليهم.. (الأمير يهلك ثلاثة أيام يا "أونتاش" لتأتي بنفسك اليه وتختم صك التنازل عن أرضك أمامه، وإلا سيكون مصيرك مثل مصير زوجتك الساقطة). هكذا قالوها بمليء أفواههم العريضة التي تشبه أفواه الضباع، أعقبوها بضحكات العُهر التي لا تليق إلا بالقتلة، بينما هو مُكبِل اليدين مُلقى أمام أرضه السلبية، التي لم يبقوا له فيها سوى جثة زوجته "ننشيدا" مُلطخة بدمائها..

(أي إذلال ذلك الذي يريد الأمير أن يلحقه بالكادحين المستضعفين؟ وما شكل هذا الغضب الذي يريده أن يتلبد في صدورهم؟).

مع نهاية السوق ساقه الطريق لأحد الأزقة الفقيرة حيث بيوت الشغيلة والحرفيين البسطاء الذين عانوا ما عانى فلاحي "لكش"، ليرى وجهاً آخر من القهر الذي عانتها هذه الأرض المتهالكة، لا يكاد يجمعه مع الأول، سوى سور المدينة الذي انهارت أجزاء كبيرة منه وتداعت أخرى، ليعلن عجزه عن حماية وجهيها النقيضين، بيوت بائسة وأخرى في طريقها للسقوط، رجال ونساء يجلسون عند أبوابها المتداعية، لا ملامح لهم بعد أن تحولوا الى أشباح من شدة الفقر وقسوة الجوع، كما لو أنهم أخرجوا توأماً من قبورهم، ينظرون الى المارة بذهول غريب، أطفال عراة، ذوي بشرة صفراء يبحثون بين أكوام النفايات، عن شيء من بقايا الطعام يملؤون به بطونهم الخاوية، وآخرون يلعبون وسط بركة للمياه الآسنة. في هذا المكان لم يكن هناك من ذكر للأمير أو حتى ما يرمز لوجوده، سوى بقايا رأس تمثال مشوه خالٍ من أية ملامح، ملقى في أحد الأركان، أتخذ منه الأطفال مكاناً للتبول.

رأى في عيون أولئك الأطفال صورة طفليه، حين أخذوا عنوة من بين ذراعي زوجته "ننشيدا"، لوشمهم بوشم العبودية لإكمال دينه المفروض عليه.. (يا ترى أين هم الآن وما هو حالهم؟ جائعون؟ عطشى؟ هل هدد عمل العبيد أجسادهم الغضة النحيلة؟). أستعاد تفاصيل ذلك اليوم الأليم عندما هاجمهم جنود الأمير وأعانوه لأخذ أرضهم وغلتها، وكيف دافعت زوجته ببسالة عنها، لقد أنقضت كاللوبة الكاسرة على الجنود حين حاولوا اختطاف طفليها.. (أه يا "ننشيدا" ما أشجعك!)، لقد قتلت جنديين بمنجلها قبل أن تمزق جسدها حراب المجرمين، كانت تقول دوماً.. (أن الحياة قصيرة، فلنعشها أداً بكرامة)، نعم لنعشها بكرامة، لكن أي كرامة تبقّت، بعد قتل الأحبة واستباحة الأرض واستعباد الأطفال، لقد امتزجت هذه الأرض بدموعنا وعرقنا، والآن غدت أعلى، بعد أن أرتوت بدماء من نحبيهم، فكيف نعطيها للأمير؟ لا، محال ان يحدث هذا.. (لا يا "ننشيدا" لن أعطيها لهم، ولن أكون أقل شجاعة منك، ها أنا ذاهب الى ذلك المسخ الذي تقطر من أنيابه دماء أبناء "لكش" لأقول له.. لن أتنازل عن أرضي مهما يكن، ولا تحلم أن أختم لك يوماً ذلك الصك الجبان، لقد أخذتها عنوة، لكنها ستظل أبد الدهر مقرونة باسمي وأسماء أولادي، الذين سيظلون يطالبون بها، ولا بد أن يستردوها يوماً).

كان كلما اقترب من القصر، تبدأ صور النفاق والكذب والدجل بالازدياد، مُتجالية بمنظر الكهنة واقفين مُتصليين مُتبسرين، كرموز النحس أمام معابدهم الدهماء، يبتهلون بصوت عالٍ.. (لتحمي الآلهة أميرنا وتقوي سلطانه)، (أنه اختيار آلهتنا المباركة)، (لتزيد الآلهة من ثروات الأمير كي يعم الخير البلاد). وبين تلك المعابد، انتشرت منحوتات كبيرة احتوت صوراً للأمير بهيئات عدة، تارة شاهراً سيفه ليهدد ويتوعد، وتارة يبتسم ابتسامة الشامتين، وأخرى رافعاً يده علامة النصر على شعبه الجائع المُضطهد، مقرونة بكتابات تمجد حكمه البغيض.. (الأمير الذي أنتصر على أعداء الآلهة)، (الأمير الذي أحبته الآلهة من دون البشر)، (الأمير واهب الخير وباني المعابد). وعند أحد تلك المعابد، كان أحد الكهنة قد أختلى ببعض الجهلة المُخدرين ليفتي بهم.. (أمنحوا كل ما لديكم من أجل الأمير)، (جوعوا ليشبع الأمير)، (أذا شبع الأمير شبعت الآلهة، هل ترضوا أن تجوع الآلهة؟). لكن أكثر ما ازدراه، كان لدى مروره بزقورة المدينة، حيث شاهد صفاً طويلاً من الرجال والنساء المُتعبدين، يرتقون درجات سلّمها نحو معبدها العلوي، وهم يثنون أذرعهم الى بطونهم مطأطيء الرؤوس بطريقة مُذلة مُهينة، حتى لم يعودوا يرون سوى أقدامهم.

أية مفارقة! (ردد مع نفسه متحكماً)، يفرضون عليهم ذل النفس وأحناء الجبين لكي يرتقوا الى العلا، أما هو فقد أحنى ظهره، لكن هامته بقيت شامخة شموخ النخيل، رغم ما كابده من ظلم وحيث وألم، لم يحدث أن حناها يوماً، إلا ليقبل يد أمه أو خدود أطفاله، ترى هل هذا هو قدر الكادحين، أن يُضخّوا دوماً بكل شيء من زهو الحياة، ليكسبوا كرامتهم وعزة نفسهم التي هي فسيح الدنيا كلها بالنسبة لهم.. (هيهات أيها الأمير أن تحني هامتي! لقد قتلت زوجتي، واستعبدت أطفالي واستحوذت على أرضي، وبكل يُسر تستطيع قتلي أنا أيضاً، لكن رأسي ستبقى مرفوعة، وستظل عيناى أبداً تقبلان الشمس).

مع دوران دوامة الأفكار في رأسه، مقرونة بما آل اليه جسده المُنهك، وجد نفسه في نهاية المطاف وآخر الطريق، وجهاً لوجه أمام قصر الأمير، ببوابته الكبيرة السوداء الشبيهة ببوابات الجحيم، والى جانبيها أنتصب حراس بأجساد ضخمة، توقف لحظات، هل يواصل مسيرته نحو ذلك القدر المجهول؟ نظر طويلاً الى الحراس بوجوههم الكالحة القبيحة، وسيوفهم القاطعة للماعة، فكر قليلاً ثم تمت مع نفسه.. (أنها قصيرة، حقاً أنها قصيرة).



## أرض السنابل

مثل حمامة حانية، انحنت على الجسد المُسجى الملفوف بالقماش العتيق، محاطة ببيكاء النسوة وصراخهن الذي ملأ فناء البيت، وبأيادٍ نحيلة مرتجفة كشفت عن وجهه... أنه هو، أجل أنه هو! أخيراً تراه بعد كل تلك السنين، لم يتغير منه شيء سوى لونه الأبيض الباهت الذي يوحي ببراعة الموتى وخلو أياديهم من نفايات الدنيا، ها هو أخيراً يعود إليها، منذ أن فارقتها يوماً ليمتطي ريح الجنوب.. (أنا راحل يا أماء، سألتحق بسرب النسور الحاملة بالحرية).

هكذا قالها بهدوء ثم رحل، لازالت تذكر بريق عينيه الممتلئتين بالتحدي وحب سومر، لم يترك خلفه سوى نظراتٍ وحسراتٍ لأمٍ حزينة، أودعت روحها لأكف الأقدار، مع رشقة ماءٍ نثرتها وراء دربه الطويل، ودقات قلب سريعة لحبيبة خائفة منحت حبيبها لمخالب المجهول. أمسكت براحتها ذلك الوجه الذي لم يفقد بريق شبابه رغم قسوة الموت، راحت تتأمله بعينيها المُبيضتين.. (أحقاً أنه نفس الطفل البريء الذي كان يلهو يوماً مثل فراشات الحقول وعصافير الربيع؟).

برفق أخذت تهزه، كمن تحاول إيقافه من نوم عميق كما اعتادت دوماً أن تفعل، لتتفتح عينيه على نور الصباح ووجه أمه، الذي اختطت عليه الأيام تجاعيداً عميقة، أصبحت سواق لجريّان الدموع على مدى طول الصبر والفراق.. (أنهض يا حبيب النجوم، أنهض يا شدة الياسمين وضياء القمر، ضفة الفرات تناديك، موسيقى سومر تحن لصوتك العذب، حبيبتك الجميلة تنتظرك لثُرف اليك)، لم يرد عليها سوى السكون، ثم تحول هز جسده الى حركة هستيرية بعيدة عن الشعور، دون جدوى، الصمت هو الصمت، الموت هو الموت، قاضٍ غير عادل، كلمته واحدة وحكمه واحد، لا يعرف محبة أو حنين.

(من يموت من أجل سومر يغدو حبة قمح، تصبح مع مِزن المطر سنبله تزهو بها الأرض القاحلة)، هكذا أجابت سؤاله، بعد قدوم أبيه محمولاً على أجنحة النوارس، حينها لم تذرف دموعاً واحدة، رغم قلبها الدامي بهول الفاجعة، رددت ذات الكلام مع عودة أخيها عائماً على أشعة الشمس، ليبادرها ببراعة قلوب الأطفال.. (ستمثلي الأرض بحبات القمح، فمتى نرى السنابل؟)، (أجل متى نرى تلك السنابل؟). ها هي اليوم بعد أن أكتمل لديها ذلك الثالوث الأليم تعيد نفس السؤال الصعب الذي لم يعد أحداً في سومر يمتلك الاجابة عليه .

سار موكب الموت بطيئاً رتيباً بين طرقات المدينة المتهاوية، حاملاً حزمة قصبٍ، احتضنت جسداً كان يوماً ينبض حياةً وأملاً بسعادة شعب سومر، يدور حوله العويل بتناغم موسيقي غريب، ينم عن تعود واحترافية، مصحوباً بلطم الصدور، وإهالة التراب على الرؤوس، باتجاه أرض كثيفة غدت متخمة من كثرة ابتلاع أجساد البشر، مع مرور الأيام و سيول الجنائز التي لم تنقطع، تلاصقت شواهد القبور مع بعضها لضيق المكان، فغدت كأنها غابة من غابات الجحيم، وتشابهت أشكالها حتى لم يعد يُستدل على قاطنيها، انتشرت نسوة مكلمات بالسواد بين تلك الحفر اللعينة، التي سلب ظلام قعرها الأحبة ورفاق

الدرب، باكيات، صارخات، يندبن راحليهن، يرافق بعضهن كهنة منزلفون، بلحايا طويلة يرتزقون من الافتاء بمواعظ الموت والحياة.

ورويداً رويداً أنزل ابن سومر الى تلك الهوة السحيقة التي ليس لها قرار، ثم بهدوء أهالت عليه الأكف قبضات التراب، لتغلق أمامه نافذة الحياة الى الأبد، تبعثر المشيعون وأنسلوا واحداً تلو الآخر دون مبالاة، بعد أن سلّموا من جمعهم الى شياطين الموت، ليكملوا دورة حياتهم وانتظار مصائرهم، غير مكترئين بأمر تكلّى أرتمت على تلك البقعة التي سرقت منها وحيدها، وكل ما جنته من متاع هذه الدنيا، مُحْتَضنة اياها لا تريد مفارقة من كان يوماً قطعة من أحشائها.

لم تدري كم مضى عليها من الوقت، لعلها كانت ميتة هي الأخرى، ربما سافرت في رحلة الى عالم الموت، لتطمئن على من فارقتها في سفرته الأبدية، أو في محاولة يائسة أخيرة منها لأطلاق أموات سومر من محشرهم الخانق، كما سعت قبلها عشتار.

مع غروب الشمس، وبعد أن يُست من استرجاع روحها الثانية، تركت القبر بأيادٍ وثياب مُعْفرة، سارت بخطوات متناقلة مبتعدة عنه شيئاً فشيئاً، وهي تلتفت اليه مع كل خطوة تبعدها عنه، غدت وحيدة بعد أن خلا موطن الموتى من رواده، إلا من مُغْنٍ مَنسي أضاعه فراق الراحلين وغدر الزمان، ظل جالساً عند أحد الشواهد، غير عابئ بعنمة الليل، التي أخذت تزحف بهدوء نحو القبور لتبتلعها واحداً تلو الآخر، محتضناً بحنو قيثاراً قديماً، تداعب أنامله برفق أوتاره المهترئة، راح يردد بصوتٍ خافت مبحوح، مخافة أن يزعج أولئك المُلتحفين بالثرى، أغنية قديمة لم يتبقى بين ثنايا ذاكرته سواها..

كلّكّامش لم يزل هائماً، حائراً

يسعى وراء حلم بعيد يدعى الخلود

متى يعود الشريد، متى يعود؟

شعبه مقهور اثخنه الجراح

يبحث عن شعاعٍ في ظلمة هذا الوجود

متى يعود له الأمل، متى يعود؟

سومر زنبقة غضة بيضاء

اغتصبتها حراب الجنود

متى يعود ربيعها، متى يعود؟

نخيل أوروك بكاء

يرنو لجثمان أنكيدو

يسأل الطير، يسأل الريح



متى تعود له الروح، متى تعود؟

سمعت تلك الكلمات مع هروب آخر شعيرات الضوء، ثم نظرت بذهول بعد أن استعادت شيئاً من وعيها إلى الأرض المزروعة بحبات القمح، والممتدة نحو الأفق كأنها تراها لأول مرة، ابتلعت شهقة عميقة، ثم أطلقت صرخة مدوية مزقت السكون.. (أما ارتويت دماً يا أرض سومر؟).



## الدولاب

ركل "أشكيال" بقدمه محور الدولاب الخشبي بقوة، صائحاً بصوته الجهوري الذي يصل الى أطراف السوق، عبارته التي يرددها كل يوم عند بدئه العمل.. (ستظل تدور أيها الدولاب)، وبذات الوقت راحت يده بحركة موازية لأقدامه تعاملان كتلة الطين الشواء، التي أخذت تتلوى بشكل لولبي انسيابي مطاوعة كفيه لتغير شكلها كما يريد. هو كذلك منذ شبابه، يعمل صانعاً للفخار في حانوته الصغير هذا، بسوق الحرفيين في مدينة "نيبور"، الذي ما أن تُعلن أنوار الصباح إطلالة يومه الجديد، حتى تأخذ الحركة فيه بالتصاعد مع مرور الوقت، وبشكلٍ متماثل بين قدوم المُتْبِضِعِينَ ونداءات البائعين، وهم يروّجون بصوت عالٍ لبضائعهم، يقابلها مضاربات المُشْتَرِينَ ومساوماتهم التي قد تصل أحياناً للعراك.. (سلة التمر الكبيرة بشيقل)، (جرة الحليب بربع شيقل)، (ست دجاجات بثلاثة شيقلات)، (جرة النبيذ بنصف شيقل). لتمر بين الناس ثلة من الجنود بثيابهم القصيرة وخوذهم الجلدية، مُتسلحين بسيوفهم البرونزية، وهرواتهم الخشبية ذات الرؤوس الكروية النحاسية، ينظرون الى هذا وذاك محذرين الجميع، من أحداث أية مشاكل أو مشاجرات تخلّ بالنظام العام، قد تحدث نتيجة تلك المساومات.

هكذا كان حال ذلك اليوم أسوأ بباقي الأيام التي اعتادتها المدينة، لكنه بالنسبة لـ"أشكيال" لم يكن رتيباً أو عادياً في حياته، ولا كما عهده من أيامه الماضية وهمومها، أنه ينتظر ولادة حفيده الأول لأبنه البكر، لذلك بدا قلقاً مضطرباً منذ استيقاظه المبكر عند الفجر .

بينما هو مواصلاً عمله، موجهاً نظره الى حركة الناس خارج حانوته المليء بالجرار الفخارية، شرد بذهنه نحو قادم الأيام، بعد أن كان جلّ تفكيره متوقفاً بسابق السنين وحاضرها المُتَعَب، فلم يشعر بقدميه وهما تتوقفان عن تدوير الدولاب، الذي أخذت سرعته بالتباطؤ شيئاً فشيئاً حتى سكن كلياً، كأنه يعلن توقف الحياة وأقول مستقبلياً.. (يا ترى، هل سيجلب الوليد الجديد معه شيئاً من الأمل لهذه الحياة التعسة، بعد أن تسلط على مجرياتها بطانة الأمراء، والمنافقون المرابون، والدجالون من الكهنة، ليزداد ثرائهم من خيرات المدينة، بينما غدا الشغيلة والصناع البائسين في أدنى درجات الفقر؟).

أنتبه من شروده كأن يعوضة قرصته، ليستذكر الحاجات التي أوصته زوجته بجلبها معه من السوق لهذه المناسبة.. (سلتا تمر، ثلاث جرار نبيذ وجرة زيت سمس، عشر دجاجات، عشر مئات لحم ضأن، ومثلها لحم خنزير، ست... ، ثلاث... ، ثلاث...، أه أيتها الحقيرة! هل تريدين أن أجبك السوق كله من أجل ذلك المولود اللعين؟ ثم من أين لي حتى أجبك كل هذا؟).

قطع تفكيره تحية صديقيه القديمين في السوق، الحداد (كنداش)، والسلال (سمبار).

\_ صباحك سعيد أيها الجد العجوز.

\_ من أين تأتي السعادة؟ وأنا كل يوم لا أصبِح إلا بوجوهكم الكالحة.

لقد تعودا على سلاطة لسان صديقيهما العجوز، ذو الجسم النحيل، والوجه الديميم، فكان يومهما يغدو ثقيلاً مُملاً من دون سماع شيء منها، ثم بعد أن أخذاً مقعديهما الى جانب "أشكيال"، الذي لم يتوقف عن العمل وتدوير دولابه.

لييادره "سمبار".. نساؤنا ذهبن الى بيتك للمساعدة، مالنا نراك شاردا مضطرباً، ووجهك معكراً منذ الصباح؟ ألا ينتابك الفرح مع قدوم حفيدك المنتظر؟

\_ لماذا أفرح وأنا أخسر كل تلك الخسائر؟ وبماذا سينفعني قدوم ذلك المولود، سوى أنه سيزيد عدد البائسين رقماً جديداً؟

رد "كنداش".. من يدري يا صديقي، ربما مع قدوم هذا الجيل يتغير الحال، وتأتي معه نفحة من الخير، فالدنيا تدور مثل دولابك هذا.

\_ لا شيء سيتغير في هذه الدنيا، والحال سيبقى كما هو، أما هذا الدولاب العتيق فسيظل مثل صاحبه، يدور ويدور دوماً حول نفسه، دون أن يخطو خطوة واحدة الى الأمام.

\_ لكنه لا يعود الى الوراء كحال مدينتنا الخربة هذه، ألا يعطيك هذا شيئاً من التفاؤل للمستقبل، أما أنا فمذ أن أصبحت حداداً عرفت أن أصلب الأشياء لابد أن تتغير على السندان.

قطع حديثهم الأبن الصغير لجار "أشكيال"، وقد جاء راكضاً بسرعة مخاطباً إياه بلسان مُتأتأ.. (ت...قو...ل زو...جتك، أن الو...لادة مُت...عسرة، وقد تتأ...خر). ثم هرول راكضاً كالسهم. (اللعة! كل شيء مُتعرس اليوم، حتى لسان هذا الصغير)، قال (أشكيال)، ثم ما لبث أن عاد الصبي مرة ثانية بنفس سرعته قائلاً.. (لقد نس...يت، تقو...ل زو...جتك، أ...نك ست...عط...يني حب...ات ت...مر بعد...د أصا...بع يد...يك أذا ما جل...بت لك البشا...رة).

ليصرخ به "أشكيال" دون وعي.. (أغرب عن وجهي أيها الصعلوك قبل أن أقطع أذنك، وحتى أصابع يدي بأية حال تراني وأنت تريد مني تمراً).

أخذ رفيقاه يهدئون من عصبيته واضطرابه، الذي ازداد أكثر بعد الذي سمعه .

عندها طرق سمعهم من بعيد صوت يعرفونه جيداً متنقلاً من حانوت لآخر مردداً.. (ليحرسكم أنليل).. (لتحميكم الآلهة).

سألهم "سمبار".. هل سمعتموه؟ أنه "سنشار" الكاهن.

\_ من يكون غيره. قالها "أشكيال"، ثم تابع.. تياً لهذا اللوطي الدجال، يستجدي العطايا منذ الصباح، من المخدوعين والمغفلين كي تحميهم تلك الآلهة الغبية.. (ليحميكم أنليل)، (ليحرسكم أنليل)، اللعة عليه وعلى أنليله!).

\_ رد "سمبار" مبتسماً.. يقولون أنه تاب منذ زمن بعد أن عرف طريق الآلهة، وأصبح كاهناً من الرتب العليا، لقد غدا اليوم في نظر الناس، من ذوي المقامات المرموقة، كونه يعمل في خدمة المعبد، ويجمع العطايا للأمير وحاشيته المتخمة.

\_ هذا إذا تمكن أن يتوب! (قال "كنداش" ضاحكاً، ثم تابع).. لو كان قد عرف طريق الشياطين كنت سأصدق توبته أما الآلهة فلا، صدقاني أن اللوطي إذا تاب فإنه يصبح أما تاجراً أو كاهناً، وقد يُجعل منه أميراً أحياناً، فهذا المخادع وأمثاله يظنون واهمين، أن الدين والمال، أو المركز الهام يُنسي الناس ماضيهم المُقرف، لكن أكاذيبهم لم تعد تنطلي على أحد بعد أن عرف الجميع ريائهم وغاياتهم الدنيئة.

\_ قاطعهم "أشكيال" .. أن أكثر ما يدعو للسخرية، أن هؤلاء يدعون دوماً أن تلك الآلهة اللعينة هي التي منحتهم كل هذا، ليبرروا وجودهم، ويخدعوا الناس، كي ينسوا ذلك الماضي، مستغلين سذاجة عقولهم ومحدودية تفكيرهم، لكنهم في الحقيقة يُفسدون مجتمعاتهم، ويمتصون دماء أبنائها، انتقاماً لذلك النقص الذي يظنون على الدوام يشعرون به، ليثبتوا أنهم الأكثر وساخة في أية مجتمع، وهم على أية حال لا يختلفون بشيء عن اسراب الجراد، التي تقضي على الحقول الخضراء.

عندها وصل الكاهن مدخل الحانوت، ظل واقفاً تحت السقيفة الخشبية التي تتقدمه ثم صاح.. (مبارك حفيدك يا "أشكيال"، عسى أن يحميه "أنليل" ويمنحه بركته).

\_ ليحتفظ ببركته لنفسه لسنا بحاجة لها، ثم ألا تنتظر قليلاً أيها النصف رجل، حتى يأتي ذلك المولود البائس أولاً، ثم تأتي يدك كالشحاذين، أم أنك هكذا دوماً تأتي قبل الحصاد مثل الغزبان السوداء.

\_ لماذا أنا كاهن أذا؟ لا تظن أنك بتهكمك المعتاد هذا ستجعلني أنسى اليوم هدية الإله.

هنا أخذ "أشكيال" يضغط بشدة على عنق الجرة التي كان يصنعها، متخيلاً إياها رقبة الكاهن، حتى غدت بحجم الأصبع، ثم رد عليه: ومن يدري ماذا سيكون هذا المولود لو باركته آلهتك، فأراً أم أرنباً، لا أحد يعرف، ربما قرداً مثلك؟

\_ ضحك "سنشار" .. (سأعود لاحقاً عندما يأتي المولود، لا تنسى أن تجهز الهدية). ثم غادر المكان الى حانوت آخر صائحاً.. (ليحميكم "أنليل"، لتحميكم الآلهة).

\_ بالمناسبة يا "أشكيال"، ماذا تتمنى أن يكون المولود، ولداً أم بنتاً؟ (سأل "سمبار").

ليجيبه بسرعة ودون أن يفكر.. (بالطبع بنتاً).

\_ أنت ترغب دوماً بعكس ما يتمناه الناس! لماذا بنت؟

ليجيبه وهو ينظر الى نفسه.. لا أريد أن تتكرر هذه المأساة ثانية، ثم مهما كان رأيكم فالبنت أكثر عطفاً وحناناً على أهلها، وتساعدهم في عمل البيت، أما الولد، اللعنة عليه! فهو ما أن تنمو لحيته، حتى يبدأ بعناد أبيه، ويقضي معظم وقته بمرافقة بغايا المعبد، وقد تحدث الكارثة الكبرى، فيصبح كاهناً مثل المخادع "سنشار".

فيما هم بحديثهم حول أفضلية الأولاد والبنات، سمعوا عند الحانوت المجاور ضحكة عالية خليعة، كشفت بيُسر عن صاحبته، أنها البغي "سُمانو"، التي ما أن تأخذ الحوانيت بفتح أبوابها حتى تبدأ بالتجوال بينها، مروجة لـ(بضاعتها). فما أن سمعها "أشكيال" حتى ضرب جبهته بيده الملطخة بطين الجرار قائلاً.. (اكتملت، لم يعد ينقضي اليوم إلا هذه الساقطة).

وما أن وصلت عندهم حتى خاطبت "أشكيال" وهي تهز له رأسها، بإشارة ذات مغزى.. (ها أيها العجوز، ألا تريد اليوم أن تنسى شيئاً من تعبك؟).

\_ أسمعني أيتها البلهاء، بدلاً من أن تتعبي قدميك بالتجوال طوال اليوم هنا وهناك عارضة نفسك للجميع، لما لا تبحثين عن أبله ما لتتزوجيه؟

\_ هل تعرف أحدهم؟ أن زبائني جميعهم من الأبله.

\_ ما رأيك بذلك الكاهن اللوطي؟ أنكما مناسبين لبعضكما تماماً كالقُدرة وغطائها.

\_ تقصد الكريه "سنشار"؟ وهل خلت المدينة من الرجال، حتى أَرْضى بذلك المخادع الذي نسي رجولته؟ أنه حقاً يركم الأنوف!

\_ من غيره، يُقال لو تزوج لوطياً من بغي فأنهم سينجبون إله.

\_ إله؟ يا لحظي العاثر متى أتخلص من تلك الآلهة المجنونة؟

\_ نعم إله! لأنه سيتحكم بمصائرنا، وبدورنا نقوم بثتمه صباح مساء.

لم تجبه بل أكتفت بأطلاق ضحكاتها المُجلجلة وهي تفارق الحانوت، لتبحث عن رزقها في مكان آخر وسط ضحكات رفيقيه، سائله بوقت واحد.. (الآن يا "أشكيال" هل ما زلت عند رأيك في البنات؟)، لم يرد بل أكتفى بتدوير دولابه مواصلاً عمله، مُتمتماً بصوتٍ خافت.. (أنها على أية حال أشرف الف مرة، من اولئك الأراذل الذين تسيدوا مدينتنا في هذا الزمن الأغر).

جاءهم الصبي الصغير مرة أخرى راكضاً أسرع من السابق وهو يصيح.. (أعط..ني الت..مر أي..ها العج..وز، ل..قد ول..دت ل..كم بن..تاً، تق..ول زو..جتك أن..ها جم..يلة، ووووو).

\_ هل خرست أيها الجرو، ماذا بعد؟

\_ (ت..قو..ل زو..جتك، أن المؤ..لدة ق..د ك..ش..فت على زو..جة أب..نك الأ..خر، و تَب..ين أن..ها حُب..لى هي الأخر..رى، وتنت..ظر مو..لوداً). قال هذا ثم أنطلق كالسهم خوفاً من غضب "أشكيال"، الذي أخذ يدير رأسه يميناً ويساراً نافخاً بصوتٍ عالٍ.. (اللعنة! الكارثة مرة أخرى، مرة أخرى).

ليقاطعه "كنداش" سائلاً.. (حسناً يا "أشكيال"، الآن وقد أستجاب القدر لرغبتك وجاءتكم بنتاً ماذا ستسمونها؟).

فكرّ قليلاً ثم قال.. "سمّو"، نعم سنسميها "سمّو"، ربما تكون مثل حمامة الحكيم الخالد "زيوسدرا"، وتجلب معها غصن الزيتون الأخضر، ليأتي مع قدومها السلام الى العالم، فنُزال الغمّة عن مُتعبيه.

ما كاد يختم جملته حتى باغته الكاهن "سنشار" كأنه كان يقف بالقرب منهم ينتظر قدوم خبر المولود..  
(لتحرس الآلهة أحفادك يا "أشكيبال"! الآن عليك أن تقدم هديتين لمعبد "أنليل" بدل الواحدة، لقد باركتك  
الآلهة وسترزقك بحفيد آخر).

رفع "أشكيبال" رأسه الى الأعلى، وصك أسنانه مُغمماً بكلمات غير مفهومة، ثم وضع بعنف كتلة الطين  
على الدولاب راكلاً محوره بشدة، صائحاً بعلو صوته الذي يصل الى أطراف السوق.. (ستظل تدور أيها  
الدولاب).





## مَوْعِدٌ عِنْدِ الضِّفَّةِ

برتابيةٍ ونسقٍ تواصل تلاطم موجات النهر على الضفة، مُشعرةً من يتأمل حركتها الديناميكية بالنعاس، مذكرةً من يرنو بتمعن لتتابعها بين أخذ ورد، بغرائب الحياة ونقائضها، من تدفق وأقبال أحياناً، جالبة معها شيئاً من الخير وبعضاً من نفحات الامل، أو انحسار وأدبار في آخر، تاركة خلفها همومها وآلامها وهباء زبدها. وضعت رأسها بين راحتها منتظرة قدومه المعتاد في هذا الوقت، حيث بلغ انعكاس وهج الشمس على صفحة المياه الواسعة أشده، بعد أن غدت واهبة النور شديدة الاحمرار، محاولة إرسال كل ما تبقى لديها من ضياء قبل أن تغادر يومها الطويل.. (تُرى هل سيأتي، أم سينفذ هذه المرة رغبته القديمة بالسفر؟ أصبح الرحيل هاجسه وحلمه رغم مرارة البعاد عن "أوروك" الحزينة، تلك الجميلة الغافية على دموع الفرات، السابحة مع آهات مظلوميها، الحائرة بأمنياتهم الصغيرة، الحاملة منذ يومها بمستقبلٍ أخضر جميل).

(ليس لنا رجاء في مدينة أمسى الناس فيها عبداً للمجهول، ليكون قادم أيامهم أحجية لا أحد يعرف كيف ومتى ستحلّ طلاسمها، كما عمّرت الآلهة "أوروك"، هي كذلك شيدت بلاداً ومدناً أخريات، يمكن اكمال مسيرة حياتنا المتعثرة فيها). هكذا كان يقول دوماً مبرراً الهجرة، راسماً معها ملامح غد جديد يضم بين ثناياه ولو نزر يسير من انسانية البشر وكرامتهم. رغم أمنيتها التي طرّزها اليأس، كانت هي تحيا عالماً وريداً بعيداً، لا يوجد إلا في مخيلة الملائكة، حيث الأمل وجمال أحلامه الذي تملك أفكارها الغضة البريئة، فأقسمت على التشبث بمدينتها حتى آخر رمق من حياتها، جاعلة منها قدراً أبدياً ارتضت احتمال جراحه، لتصبر ثورته وعنف غضبه، محاولة ثنيه عما تسرب الى قلبه من بؤس تلكم الأمنيات وهمومها.. (لن يكون رحيلنا عن "أوروك" سوى جُبناً وهروباً، مدينتنا لم تكن يوماً مجرد نسمة عذبة أستنشقتنا برودتها لنطلق زفرة وجعها عند قسوة محنتها، كانت أمراً رؤوماً أستظل الجميع بعطفها، وهي اليوم بحاجة لأبنائها، لحبهم لها وتشبثهم بها، وهذا من سعييد جمال "أوروك" ويرجع لها بسمتها الغائبة). ليعود لقيها عند موعدهم الذي الفته ساعة الغروب وشاعريتها، طارداً تلك الفكرة العبثية عن مخيلته الحائرة، محتضناً أياها.. (أنها "أوروك" أيتها الحبيبة، كيف أترك الفاتنة التي جُبّلنا على الهيام بها، منذ أن أبصرت عيوننا زرقة السماء، وكتبت مصائرنا دوامة الأيام، رغم آلامها وآلام أهلها، ستبقى هي الملاذ والعشق الذي لن ينتهي). (لقد تأخر اليوم عن موعده، لعل طارئاً ما قد أخره، لكنه حتماً سيأتي، محال أن لا يأتي).

مع أخذ الشمس طريقها نحو الأفول، اشتدت بالضد حركة الريح، لتزيد معها قسوة تلاطم الموجات، جاعلة القصبيات الهيفاوات الطوال الناطرات عند النهر، يتراقصن برشاقة ودلال ذات اليمين وذات اليسار، على أنغام معزوفة أخذة متناسقة النغمات، موزعة أدواتها، بين نقيق الضفادع، وببطبة طيور الماء، وطنين البعوض، لكنها رغم ذلك أبت ان تبارح منبتها، متحدية غضب الطبيعة وقسوتها، منذ أن جعلت ارتشاف مياه الفرات عنواناً لحياتها، جاعلةً من ثباتها والتصاقها ببعضها، مصداً للريح وحصناً منيعاً لأعشاش الطيور. تأملت الفراخ الجائعة الخائفة، وقد سارعت الأم لتلفها بجناحيها الحنونين.. (ماذا

سيحدث لو احتضننا الوطن هكذا، كحال تلك الصغار؟ هل يكون حلماً، أم أمنية فارغة ملؤها البطر، أم معجزة لا تحدث الا في الأساطير وحكايات العجائز، أن يحتمي الناس بسقف أوطانهم ينعمون بخير عطائها؟ بعد أن كنت قصيدة للحب ومنبعاً أديباً للحياة، ها قد غدوت في هذا الزمن القبيح، عنواناً صارخاً للموت، ورمزاً أدهماً للُبغض والحقد، ماذا جرى ليغدر الدهر بدنياك يا "أوروك"، فينقلب حالك هكذا، ليصبح الجميع ينفرون منك لاعنين لأيامك؟).

تذكرت ما كان يقوله، حين تتسلل غيمة الاغتراب لنجوى حديثهما وعتاب قلوبهما.. (لتذهب الغربية الى الجحيم، أنها ليست سوى نعش كبير منقوش بالذهب، تذلل المهاجر وتغثال عسافير أحلامه، رغم جمال زخارفها ولمعان الوانها الزاهية، تراها تمتص دماء كل هائم مُتعب، يبحث له في هذا العالم الفسيح، عن بيت دافئ يريح فيه أقدامه المتهاكلة). منذ أن عشقت عيونها دربه عرفت عدم حبه للسفر، كرهه الغربية دون أن يحيا أيامها، وقبل أن تمزق عذاباتها أمنياتها، ليتها مع دوامة حيرتها، بعد عودة تلك الرغبة الكريهة اليه من جديد، وقد أشدت به الغضب أثر اكتوائه بلسعة من نار معاناته.. (هذا هو لقائنا الأخير، لم أعد أحتمل العيش في هذه الارض، لم يعد لنا مفر من الرحيل بعد أن أصبحنا أعراب في "أوروك"، أي وطن هذا الذي غدا الناس فيه مجرد ذئاب تلتهم كل ما تصل اليه أنيابها؟ ما هذه البلاد الذي نعيش كل يوم هواجس مأساتها، حتى نست افواها كلمة الأمان وعيوننا بسمات الأطفال، لنصبح عبيداً مسجونين بين أسوار خوفها؟ هل ظل شيء من هذه الارض بعد أن فاضت فيها الدماء لتطغي حتى على مياه الفرات؟ ماذا تبقى منها، وقد تحول الاحرار الى رقيقٍ لأكاذيب الكهنة وريائهم، مأسورين بقيد خرافاتهم، مرتهنين لخز عبلاتهم ودجلهم وفتاويهم التي لم تجلب للناس سوى الهموم والكراهية؟).

الوقت يمر، لقد تأخر كثيراً عن الموعد، الدقائق تمضي متسارعات، قلق بدأ ينتابها، حيرة تملكت أوصالها. رمت بصرها الى جريان الماء، الذي لا يتوقف كحال الزمن، مصغية لخريره الساحر، سارحة بخيالها، محاولة شغل تفكيرها بشيء آخر يبعد عنها مخاوف الظنون.. (من أين جئت أيها النهر؟ من هو وطنك؟ ألا تشعر بشيء من الحنين اليه؟ هل ظلّمت أنت الآخر في أرض ميلادك، لترحل عنها مانحاً خيرك لأعراب لا تعرفهم، بعد يأسك من أرواء تربة جحود لم تتمسك بك فجعلتك تفر من بين سواقيها؟).

تنبعت من سرحانها، سمعت خلفها حركة خفيفة مُعلنة قدوم أحد ما، ابتسمت وأغمضت عينيها المليئتين بالشوق، لتبدد من مخيلتها تلك الاوهام والافكار.. (لقد أتى، لم يطاوعه قلبه على ترك "أوروك"، كانت أحاديثه تلك مجرد زفرة الم وثورة غضب، وحقد على واقع مُر ليس ألا، لقد جاء اليها أخيراً ليكتبا معاً، ملحمة حبهما الجميل). اقتربت الحركة منها أكثر، لتتسع معها ابتسامتها شيئاً فشيئاً، مواصلة أفعال عينيها التي تحب دوماً ان تفتحهما للقياء، لمسها صاحب الحركة مع صوت خافت حزين أشبه بالأنين، التفتت اليه فاتحة بهدوء جفنيها، لم يكن سوى جرو صغير، يبحث هنا وهناك عما يمكن ان يملأ به جوفه، انتظرها قليلاً هازاً لها ذيله، عسى أن تتصدق عليه بشيء، بعد يأسه من كرمها غادرها باحثاً عن مبتغاه في مكان آخر. تتبعت غيابه بين الاحراش وهي تنتهد بصوت مسموع بعد موت ابتسامتها، ثم التفتت الى ما تبقى من الشمس، وهي ترسل آخر خيوط أشعتها قبل أن يُكمل ابتلاعها الافق، معلنة للعالم لحظة الفراق، راسمة ببقايا الوانها لوحة حزينة عنوانها الرحيل.

## أحلام لأفراخ القطا

فُتِحَ الباب الثقيل مُصدراً صريراً حاداً، أيادي قوية تدفعه بشدة، لينطرح بوجهه على أرضية رطبة تنتنة، لم يتبين طبيعة المكان الذي تفوح منه روائح البول والعفن، لحظات ثقيلة تمر، قبل أن تعتادا عيناه العتمة. زلزلة ضيقة تلفها ظلمة حالكة تجعلها كمدافن الموتى، ليس فيها من شيء يربطها بعالم الأحياء، سوى كوة صغيرة في أعلى أحد جدرانها لا يستطيع حتى الطير النفاذ منها، يمر خلالها خيطاً واهياً من الضوء، ونزر يسير من الهواء، يبقيان المقبورين فيها مُعلقين بهامش الحياة، أجساد مَمسوخة، مُلقاة هنا وهناك، يتسرب منها أنين خافت لا يكاد يُسمع، هو كل ما يشير بأن ما احتوته من قلوب، لازال فيها شيئاً من نبض، عيون مفقودة، أصابع مقطوعة لم يتوقف نزيها، وظهور سلختها السياط، تاركة فيها أخاديد غائرة، أخضر لونها بعد أن أصبحت معاقلاً للودود والطفيليات. زحف ببطيء حتى أسفل الكوة، موجهاً بصره إليها كأنه يريد استقبال صورة الصباح .

مع بزوغ أشعة الشمس مُعلنة بداية يوم جديد، أنسل الصغار بتناقلٍ واحداً تلو الآخر، مثل طابور أفراخ القطا الى غرفة الدرس، التي تعبق بشذى زيت السمسم، المُنبعث من بضعة قناديل موزعة في أركانها، ليجدوا بانتظارهم مُعلمهم "أيلوشوما" قد سبقهم إليها، مُنهمكاً بأعداد ما يحتاجه تلاميذه، من الواح طين ندية، وقصييات ناعمات، ثلاثم أيادٍ غضة، بدأت التمرس لمسك سلاحها منذ الآن. أتخذ كل منهم مكانه، جالساً على الأرض النظيفة المفروشة بالحصائر، خلف لوحته الخشبية المعدة للكتابة على الواح الطين، ثم مع ابتسامة صغيرة عطوفة، بدأ الدرس بذكر بضع كلمات، كان على تلاميذه رغم عيونهم التي ما زال يذبّلها النعاس ترديدها خلفه، ثم نقش علاماتها المسماوية على الواحهم.. (شين، شمس)، (حاء، حقل)، (واو، وطن)، لم يُكمل بقية الكلمات، حيث غلب النعاس أحد الصغار، لتسرقه غفوة عميقة وهو متكاً على الجدار، لكزه زميله برفقٍ بعد رؤيته المُعلم مُحدقاً فيه، ليجفل عندها صائحاً مع الباقيين.. (وطن، وطن).

الصرير العالي يُعلن فتح مدخل القبر، حارسان ضخمان بوجوه مُكفّهرة ميتة يوقفاه، ثم يقتاداه معصوب العينين، شبكة من الدهاليز، متاهة لا يُعرف كيف تبدأ وأين تتجه، تنتهي بغرفة واسعة مضاءة بمشاعل مستعرة اللهب، كأن نيرانها جُلبت من مواقد الجحيم، جدرانها ملطخة بالدماء، تدعو من يراها للقيء، امتلأت بأدوات القتل والانتقام من كل شكل ونوع، عند طرفها طاولة صغيرة، جلس خلفها رجل ذو سحنة بعيدة كل البعد عن أشكال البشر وهيئاتهم، واضعاً قدميه عليها، لاهياً بخنجر عريض النصل.. (أنت المُعلم الأبله "أيلوشوما"؟)، لم يجب، انهالت عليه الصفعات والركلات من كل صوب، لتسقطه على الأرض.. (أجب أيها الجرو، تعلم عندما تُسأل عليك أن ترد)، بقى على صمته مكتفياً بنظره لذلك السفاح.. (يقولون أنت من تكتب تلك الألواح المسمومة، التي توزع بين سكان المدينة؟)، لم ينتظر الإجابة، كان قد أعد قراره سلفاً، فقط أشار بصدغه لأولئك المهوسين بلغة البطش، رُبطت يديه بأصفاذ غليظة الى إحدى الزوايا، لتنهال عليه السياط اللاهبة دون توقف أو رحمة، جعلت من ظهره لوحة،

احتوت كل فنون الحقد والكرهية، لم تصدر منه صرخة، لم يبدي وجعاً، عدا بضع رعشات على وجهه، رافقت صفير الضربات اللاسعة.

لم يمضي به وقت طويل قبل أن يبتعد عن عالم الشعور، سُحِل من قدميه كأسدٍ ذبيح، تنهش به كلاب جائعة، ليجد نفسه مُلقاً في تلك الحفرة الدهماء، التي غدت مع تدفق الأيام وديمومة صنوف الألم، مسكناً مُستديماً له ولأمثاله من المُبتلين بعشق الحقيقة. توقفت الأرض عن دورانها مُعلنة أفول الحياة وخضوعها لشياطين الفناء، ضاع منه حساب الزمن، نسي معنى الليل ونقيضه النهار، فقد احساسه بالوقت، لم يعد يعرف شيئاً عن مسيرة الأيام وساعاتها، إلا من تناقص أصابعه وأسنانه، واحداً تلو الآخر، بعد أن أصبحتنا قوتاً يومياً لسكاكين الجزارين وهرواتهم.

(من يكسر قصبته، سأجعله يبقى في غرفة الدرس حتى اليوم التالي)، قال ذلك مازحاً تلاميذه، ليحثهم على العناية بأدوات كتابتهم.. (القصة ليست مجرد قطعة خشب جوفاء صماء، انتزعت من بين أحرش الطبيعة، هي أدواتنا ووسيلتنا التي بها نعبر عما ما يدور في فكرنا، حين نَعجز عن النطق بألسنتنا، بها نتغزل بسحر الطبيعة، ونتمنى للحياة أن تبقى حلوة، لكن بها أيضاً نقول للغراب أنه أسود، ولا، للذين يسحقون الزهور ليبيدوا الربيع)، حركة سريعة يهشم بها أحد الصغار قصبته على لوحته الخشبية، مفاجأة لم ينتظرها "أيلوشوما"، ولم تكن ضمن حسابات حديثه.. (أنا يا معلمنا أريد أن أبقى هنا طوال الليل، أريد أن أبقى، كي أتمكن من قراءة جميع الألواح الموجودة في الغرفة التي كتبت بها كلامك الجميل).

رشقة ماء آسن تجعله يستيق بصعوبة، كما هو الحال دوماً، بعد كل محطة من محطات الصبر، سير به مترنحاً، ليس لساقيه من قدرة على حمله، سالكاً الممرات السوداء المؤدية لتلك الغرفة، التي أعتاد تجرع العذاب فيها، نفسه الذئب الدميم في كل حين، نظر إليه هذه المرة بعيون حمراء جاحظة، أخذ السكر مأخذه منها، ليرد عليه بوقفةٍ ملؤها التحدي، همهم بغم مترهل، تسيل منه قطرات اللعاب والخمر بضع كلمات غير مفهومة، تبادلت نظراتهما لغة خاصة، لا يفهمها سوى القتلة وخصمهم الذي لا يعرف معنى الخنوع.. (ألا يخيفك شبح الموت؟).. (هيهات أن يخيف الموت صانعي الوجود)، صرخ بصوت مرتجف، مُعلناً عجزه واستسلامه لذلك الكائن الممزق، الذي تمكنت مخالب الوحوش من سلبه كل شيء، إلا الكبرياء وبذرة الحلم.. (أقطعوا رأس هذا الصعلوك).

تأبطه أثنان من السيفيين ليذهبا به الى المقصلة، قوة غريبة تملكته، جعلته منتصب الجسد شامخ الهامة، أخذ يمشي بثباتٍ سابقاً أقدام جلاديه، رغم ثقل أغلاله، كأنه ماضٍ بدرب أنعتاقه الموعد، غلت وجهه ابتسامة أخذت بالأتساع مع كل خطوة يخطوها نحو الخلود، لم يعد يرى أو يسمع شيئاً، غير مبالٍ بكل ما يدور حوله، كما لو أنه سافر الى أكوان وعوالم أخرى، تصدح بضحكات الأطفال، وتُحلق بين ثناياها حمائم بيضاء، ليذهب بفكره وخياله في هذه اللحظات الرهيبة بعيداً بعيداً، حيث البقعة الجميلة التي أحبها ووهبها سنين عمره، لتلك الغرفة المفروشة بالحصائر، الفواحة بعبير زيت السمسم، وقد جلس فيها أولئك الملائكة الصغار بعيونهم الناعسات الحالمات، مُمسكين بفضيبياتهم الناعمات، مرددين بأصواتهم العذبة.. (شين، شمس)، (حاء، حقل)، (واو، وطن).

## القيثارة العتيقة

ما أن أسدل الليل ستاره وأنكفأ الناس الى بيوتهم، بعد يوم طويل من شقاء وتعب الحياة، حتى حمل "أيشومال" بنتاقل قيثارته العتيقة، بأوتارها المهترئة وجرة نبيذه، ليذهب صوب مكانه الاثير، بجانب نخيلته الصغيرة في طرف مدينة "سبار"، بادئاً يوم عمله المعتاد حين يشع القمر بضيائه الجميل على العالم، وتدب في ذلك المكان والوقت من كل يوم حياة أخرى، لا تمت بصلة لدنيا النهار الصاخبة وضجيجها، حياة عنوانها السكنينة والهدوء، تجملها ملتقيات العشاق وهم يتغنون بنجوى احلامهم وأمانى عشقهم، ورموز حلاوتها، قناديل ملونة تزيّن حانات جميلة مطلة على النهر، تبدأ باستقبال كل من يريد السفر بعقله الى عوالم الخيال ومسامرة شياطين الأوهام، لتكون هذه السويغات كذلك ملاذاً للمتمردين على تقاليد جائرة مسخت انسانية مجتمعتهم، وللهاربين عن عيون المتطفلين الحاسدة، ولكل من جعل الوحدة عنواناً لعيشه، من هائمين حائرين ببلوى زمانهم، أو فارين من دوامة مشاكل شانكة استعصى على عقولهم حلها، الى آخرين يتمايلون بين بعض البغايا المنتشرات هنا وهناك بملابسهن الفاضحة، لينتقوا من تستحق اشباع شهوة ليلهم، لا يُزاحمهن بأغرائهن، سوى بعض المُخنثين الشواذ بعلاماتهم المميزة، من أقراط تُثقل آذانهم، أو أطواق عريضة تغطي أعناقهم، محاولين خطف زبائنهن.

كل فرد في هذا العالم المتناقض له حكاية لا تماثل الاخرى، قد تتقارب في بعض جزئيات وتفترق في آخر، لكن رغم هذا يشاء القدر أن يحتضن هذا المكان الغريب كل تلك الأضداد، جاعلاً منها لوحة تُشد اليها الأبصار، رغم أنها مبهمة الخطوط لكنها متجانسة الألوان. أستقر بجلسته واضعاً أمامه صحنه الفخاري القديم الذي يجمع فيه ما يتكرم به الناس عليه، وما أن أستعد بقيثارته وأخذ جرعة طويلة من نبيذه، حتى راحت أنامله تداعب أوتارها برشاقة ومرونة، متحدية تعب السنين وما صبغت جسده من وهن، ليردد اغنية أعتاد أن يبتدىء بها أمسياته.. (ماضينا حقيقة وجمال، حاضرننا وهم وخيال... ماضينا محبة ووفاء، حاضرننا طمع ورياء). ما كاد صدى غنائها يتردد، حتى يبدأ بالتوافد الى مكانه، أولئك المرهقون بحاضر زمانهم الناقمون على قسوته، كأنهم بانتظار قدومه، ليغسلوا بموسيقاه وعذب أنغامها، أفندتهم مما لحق بها من هموم هذه الأيام، ويظهروا ما أصاب سمعهم من زعيق أغانيها، فيجلس كل منهم مع جرة نبيذه في مكان ما هنا وهناك غير بعيد عنه، يتيح له الاصغاء لشدو "أيشومال" الشجي الرخيم رغم حشرجة صوته المُتعب، ليسافروا مع ريح أغانيه القادمة من ماضي ذلك الزمان المحملة بعبقه وجماله، مذكرة اياهم ببقاء تلك العهود الزاهية الخوالي وطيبة أهلها.

أستمر بغنائها رغم وصول صديق عمره المهرج "سابيئم" مع قرده الأليف، الذي حياه كما تعود دون كلمات، كي لا يقطع عليه صفو أنشاده حين يأخذ مجلسه بجانبه، ليستمع لبعض من قديم الغناء يزيل به شيئاً من تعب أيامه، قبل أن يذهب هو الآخر الى مكانه ليبدأ شقاء عمله. لم يمضي وقت طويل من قدوم صاحبه، حتى التفت اليه دون أن يقطع استرساله في العزف، ليراه قد سرقه داء السرحان بعيداً، رامياً بصره الى السماء، كأنه يتأمل طيفاً مسافراً الى عوالم الآلهة، غير مبال أو عابئ بما يفعله قرده أو ما يدور حوله من حركة الناس.. (ماذا جرى له بحق الآلهة؟ هل نزلت عليه ساعة لتجعله مُتسماً

هكذا؟)... ثم أنتبه دون شعور منه بأن رفيق معاناتهم الآخر العجوز "أولام"، مروج العباب النار لم يأت معه كما اعتادا دائماً، قبل أن يتفوه بشيء سبقه "سابيئم" كأنه عرف رغم شروده ما يدور بخلد صديقه.. (مات "أولام" هذا الصباح، هرع الناس الى كوخه عندما سمعوا صراخ أبنته الوحيدة، ليجدوا أن الشياطين قد اختطفته الى العالم الأسفل، مسكينة أبنته كيف ستعيش دون أبيها).

توقف عن غناؤه ليسرح بفكره هو الآخر، اعقبها بحسرة طويلة بثها من أعماق صدره، بضع قطرات دمع منحتها عيناه، هو كل ما جاد به كرم حزنه لهذا الخبر، كما لو أن خزين دمه أوشك أن ينضب بعد كل الذي ذرفه على فراق الأحبة والأصحاب، على امتداد سنين العمر، انسابت الدمعات بتمايل وهدوء على وجهه المُتعب، لتدفن أخيراً بين شعيرات لحيته البيضاء، وكأن تلك القطرات اختزلت بلحظات قليلة مسيرة حياة البشر، منذ انبعاثها من مياه الحب، ثم تأرجح بلا هدف، لتغيب أخيراً تحت أكوام الثرى.

ترك "سابيئم" صديقه مواصلاً صراعه مع الحياة، ليذهب الى مكانه المعتاد، حيث يقدم العابه ومهارات قرده على مسافة غير بعيدة من مجلس "أيشومال"، ما كان ليستقر في مكانه حتى أخرج صحنه الفخاري، الذي لم يشم رائحة الفضة منذ أمد بعيد وباقي أدوات عمله، من عصي و أطواق ملونة، وملابس غريبة مزكرشة ألبسها قرده الاليف، الذي كان يعرف ويتقن عمله تماماً، فما أن رآها حتى أخذ بالقفز من خلالها والرقص حولها، وأداء حركاته الجميلة المضحكة التي كان قد تعلمها لاستمالة الناس اليه، لكن رغم طرافة العابه وجمال فنونها، لم يقربه أحد أو يعيره شيئاً من اهتمام أو رغبة بالمشاهدة، بعد أن أصبح ما يقدمه من بقايا عتيق الماضي المُمل، كما يظن من أعتاد التواجد في هذا المكان. نظر اليه "أيشومال" بألم وشفقة.. (ها هم رفاق الدرب والعمر يتساقطون واحداً تلو الآخر مثل الدموع، "ميلامنا"، "مثرامال"، "أيكامي"، وها هو "أولام" يلحق بهم، لعلهم عثروا على فُسحة ومراح بسكنى العالم الأسفل، بعد أن ضاق بهم رداء هذا الزمن، لم يتبق من أحجار ذلك الدهر غيري وهذا العجوز، متى يحين دورنا وتختطف الشياطين أرواحنا كي لا نرى ما سيأتينا من قادم الأيام؟).

رغم صداقة العمر والطفولة، لم يخطر بباله يوماً أن يسأل أياً منهم، هل من "سومر" كانوا أم "أكد"، أو من ارض "أشور"؟ هل كانوا يمجّدون "أنليل"، أم يعبدون "عشتار"، أو يبغضون "تركال"؟ كل ما عرفه عنهم هو وفائهم ونقاء قلوبهم، وبياض سرائرهم، وعشقهم اللامحدود لهذه البلاد الخيرة، ونهريها الصافيين الذين ترتوي منهما الآلهة. بصق على الأرض بعد أخذ جرعة من نبيذه كأنه يلعن مفارقات الدنيا... (ماذا تبقى منك يا "سبار"، أهلك رحلوا، طيبة ماضيك غدت غياب وسذاجة، غيرة ومروءة الفرسان أصبحتا نكات يتمازح بها الصعاليك... تبا! حتى الآلهة قد تغير حالها في هذا الزمن، أنها ليست آلهة تلك الأيام التي نعرفها، حينها كانت تدعو للخير والتسامح والمحبة بين البشر، أما اليوم أخذت تدعو للقتل والانتقام واراقة الدماء).

تمالك نفسه رغم الألم الذي أعتصر قلبه، ثم بدأ بترديد اغنية أخرى تستذكر رفقة الماضي، ما أن سمع من جلس حوله مطلع عزفها حتى صاحوا فرحاً، حيث كانت أغنيتهم الأثيرة.. (رائع يا "أيشومال" أخيراً ستتشدها)، (عجل يا "أيشومال" أننا ننتظرها منذ أن جلسنا)... (صحبة كان لي ورفاق... من كبرياتهم تيقنت... من نضالهم تعلمت... أن لا أحيا بلا أنعتاق). بينما هو مواصل غناؤه بتناغم وانسجام، وسط شروود منصتيه ورحيلهم بعيداً مع سُفن ذكرياتهم، مرّ أمامه شابان يترنحان، ما أخضر شاربيهما بعد، ولم يفقها حتى يومهما هذا حقيقة الدنيا، كان السكر قد أخذ مأخذه منهما، ليقول أحدهما.. (عن أي صحبة وأي ماضٍ يتغنى هذا الغبي؟)، (دعه وشأنه، هناك بعض البشر لا يطيب لهم أن يعيشوا مع حداثة الحياة، أنه

سيبقى أسير ماضيه، مصراً أن يبقى عبداً من عبده، ناكراً جمال الحاضر بزهو روعته الذي يماثل جنائن الآلهة). (عبداً من عبيد الماضي خير حتى من آلهة زمانكم الأدهم هذا، التي لم تعد تعرف كيفية خلق البشر وصياغة أخلاقهم)، هكذا تمت مع نفسه رداً على ما تفوها به، متذكراً ما كان يردده راحلهم "أولام".. (إذا أردتم أن تعرفوا ما تفكر به الآلهة، أنظروا الى البشر الذين تخلقهم، أنها دوماً تزرع فيهم أخلاقها، فالمنتوج يبين دوماً روح الصانع ومهارته، أنها ليست كما مضى تخلق البشر من طينة نقية مجلوبة من عند ضفاف الفرات، بل من أخرى آسنة تبولت عليها الشياطين).

صمت قليلاً ليمنح حنجرته بعض الراحة، وليرتشف بضع جرعات من النبيذ تعينه على اكمال ليلته، مانحاً سامعيه فسحة ليتصدقوا عليه بشيء من قطع الفضة، تمطى محاولاً تحريك جسده المتخشب، ليخطو حيث مكان صديقه "سابيئم" محاولاً مآزحته رغم حزنه.. (ها أيها العجوز، الم يحن الوقت لتغيّر العبابك؟ أم تراك ستقضي بقية عمرك مع القروود حتى بعد أن ضجرها الناس؟). أجابه مع ابتسامة كاذبة ارتسمت على وجهه، الذي اختطت عليه التجاعيد متاهة لا تعرف أين تبدأ وكيف تنتهي، تماماً كفوضى هذه الأيام.. (حينما تغيّر أنت غنانك الذي أرتدى غبار الدهر، ونسى حتى تاريخ ميلاده، صدقتي لم أعد أرى الحياة بعد كل تلك السنين سوى غابة للقروود، فذاك يقفز ومثله يأكل، وذاك يركض ومثله يضاجع، وآخر نائم على الدوام ومثله يلهو بدبره مستمتعاً، أنا في الحقيقة نعيش وسط قروود يا عزيزي فلماذا التكرار لواقعنا).

تركه باسماً ليواصل الاعييه مع قرده مستمتعاً، ناسياً بلهوه ازراء الناس وتجاهلهم لفنه، مقتنعاً بما ارتضاه لنفسه، ليعود هو الى مكانه وغنائه، منتقلاً من أغنية لثانية مع إعادة لأخرى طلبها المنصتون، بعد أغرائه ببضع قطع من الفضة، تتوافق مع شدة سكرهم أو ذكرى مرّ طيفها على مخيلتهم، وتراقصت مع صفاء ليلهم، بين طرب وفرح رسم بسماته على الشفاه، أو حزن وشجن أسال دموعاً جادت بها العيون.

فجأة ودون انتظار من أحد، قطع غنائه لدى سماعه صراخ مدوي أخذ بالاقتراب من المكان، ليتبين مصدره فيما بعد، رجل هرم مهلهل الثياب حافي القدمين، أشعث الشعر أغبره، بدا واضحاً أن عقله قد رحل الى عوالم أخرى.. (كفاكم تسكعاً واحتساءاً للنبيذ بانتظار مصائركم المقرفة، هبوا معي لنوقف دوران الأرض، كي نعيد للعالم ماضيها الجميل الذي كانت تخلق في سمانه الملائكة).. (أنه "أورلما" المجنون)، (لقد اعتقدنا أنه مات منذ زمن)، (هل بُعث ثانية كعفاريت الظلام من العالم الأسفل؟)، (مسكين، لقد فقد عقله بعد أن أغتصب حاشية المعبد زوجته أمام عينيهِ، وقتلوا أبنائه، لأنه رفض تمجيد كبير الكهنة)، (أغرب عن وجهنا أيها المجنون ولا تفسد علينا ليلتنا).. (بل حاضرکم هو المجنون، الذي أباح لمن أمتلك القوة أن يسلب عقولكم وقلوبكم وحتى ضمائرکم، ليجعلکم تسيرون كالخراف البلهاء خلف ما يتفوه به كهنتكم، اليوم قررت أن أوقف دوران الأرض، كي أرجع ذلك الماضي الناصع، الذي حفظ كرامتنا وانسانيتنا وبسمات أطفالنا).. أستمر بالصراخ بينما هو أخذ بالابتعاد رويداً رويداً عن المكان.. (حاضرکم أستباح طبيبتكم، ليقتل نقاء نفوسكم وأرواحكم الحالمة، فأصبحتم مثل حمير السواقي لا تعرفون غير الدوران حول واقعكم الغبي، أبشركم ستظلون تركضون لاهئين دون أن تشبعوا من أجل اكتناز المال ومضاجعة النساء، اليوم قررت أن أوقف دوران الأرض، لا بد أن أوقف دورانها، ساعدوني لنوقف معاً هذا الزمن الأهوج).. لتلحق صراخه ضحكات وسخريات البعض، وأهات وهزات رؤوس آخرين، أسفة على ما تبقى من هذا الإنسان وما جرى له، فقط لأنه قال يوماً (لا) لأولئك الذين سيطروا على

أدمغة الناس ومصائرهم. عاد "أيشومال" لغنائه دونما رغبة منه بالمواصلّة، بعدما رأى منظر ضحية الدهر هذا وما سمعه منه، كما لو أن ملحاً قد نثر على جروح قديمة ظنّها اندملت، فأعاد فتحها ثانية، لكنه أستمّر احتراماً لسمرّ سامعيه وما طربت له آذانهم، لتمرّ تالي السويغات رتيبة كحال كل يوم.

وبعدما شعر أن رواد المكان أخذوا بالتناقص شيئاً فشيئاً، مع عبور أنتصاف الليل وقتاً طويلاً، نهض من جلسته ملتقطاً صحنه الفخاري، داساً ما احتواه من عطايا السامعين في جيبه دون أن يحصيها، فقط رفع رأسه الى السماء شاكراً الألهة، ثم همّ بمبارحة المكان. مشى نحو صاحبه "سابيئم"، ليجده مع قرده قد أحتضن كِلاهما الآخر، طلباً لحنين افتقدها وغطاً معاً في نوم عميق، نظر الى صحنه فلم يجد فيه شيئاً، كان خالياً تماماً.. (اللعة! لم يكسب شيئاً منذ أيام، كيف سيطعم هذا الأبله قرده؟). نظر الى صورة صاحبه وهو نائم غير شاعر بشيء، أنتظر قليلاً، ثم مد يده داخل جيبه ليخرج ما حصل عليه من قطع فضة، واضعاً بعض منها بهدوء في صحن "سابيئم" متجنباً أيقاضه، نظر الى ما تبقى لديه.. (أما هذه فللمسكينة أبنة "أولام" الحزينة)، ليحتفظ بجيبه الأخرى بوحدة فقط.. (أنها تكفي لجرة نبيذ يوم غد، هذا إذا قُدّر لي أن أراه). حمل قيثارته على ظهره المحني، وبيده جرة نبيذه التي لم يتبق فيها سوى بضع جرعات، أعتاد التسلي بارتشافها بطريق عودته الى خربته المتهاوية وحيداً كما جاء منها، مُبتسماً هازئاً بزمان ألف غدره وجفائه، مُدندناً مع نفسه.. (أيامنا أغنية، أنغامها آهات ودمع وشجون... أسفي على ماضٍ طوت صفحاته المنون).



## أحداقٌ وسكين

تدور أحداث هذه الحكاية عند اجتياح القبائل الكوتية البربرية بلاد مابين  
النهرين عام 2230 ق.م

جبل شاهق أشم، صخوره استمدت صلابتها من صبر أهل هذه البلاد، التي أرتبط تاريخ العالم بميلاد  
مُدنهم، شموخه يذُكر من يراه بعلو هامات أبطال الاساطير وإبائهم، يقف بصمت شاهد مُتجهم الصورة  
منذ أيد الدهر، بعد أن راعه كل ما مرّ على هذه الأرض من ويلات وآلام، على امتداد عمرها السحيق،  
يطل سفحه على أرض موحشة، شاحبة شحوب الموتى من كثرة ما ابتلغته من اجساد البشر، كستها رمال  
صفر باهتة، غدت مع قسوة شمس الصيف كحبات جمر.

أوقفت جموع الخائفين عند السفح، غير شاعرين أو مبالين بأقدامهم الحافية التي الهبتها الرمال الحارقة،  
بعد أن غدوا وجهاً لوجه مع الموت، كبلوا بقيود غليظة دون تفريق بين نسوة وشيوخ وأطفال، قلوبهم  
تخفق بشدة، أجسادهم مرتعدة ترتجف رغم شدة القيظ، عيونهم شاخصة نحو هؤلاء الغربان السود  
المدججين بالسلاح، الذين قذفت بهم أعاصير الظلام من حيث لا يدري أحد، لتختطف جميل أمانهم  
وأحلام دنياهم الى ذلك القدر المجهول. انهالت السياط اللاسعة على الجميع لإرهابهم وزرع الخوف في  
نفوسهم، عُتوة مُرّقت ثياب النساء، وسط غضب وصرخات الرجال، ودموع أطفالهن، لتبدأ دناءة الأيادي  
بالامتداد الى المناطق الحساسة في أجسادهن المتهالكة المُعفرة بالتراب.

وسط دوامة الخوف هذه، أبصرت عينا الصغير "سوشتار" ذو الأربعة أعوام هذه الأحداث، دون أن  
يمكنه تفكيره الطفولي البريء من فهم ما يجري حوله، وما حدث لمدينته الكبيرة الزاهية، بمدارسها  
وملاعبها ومعابدها، من قبل هؤلاء الأعراب المُتسحين بالسواد. تسَمّر الجميع في أماكنهم، تركزت  
أحداقهم على أحد أولئك الغربان، لفَت النظر بضخامة جثته ووجهه المُثلثم، الذي لم يتبين منه سوى عينيه  
المتقدتين بالشرر كعيون الضباع، بدا واضحاً أنه قائدهم، أخذ بالمسير جيئةً وذهاباً أمام جموع  
المأسورين، ثم دخل وسطهم لينتقي من بينهم أحد الرجال المقيدين، مُلقياً إياه على الأرض أمام الجميع،  
وضع قدمه الثقيلة على ظهر ضحيته اليائسة، التي غدت كخراف الأضحى، لا حول لها ولا قوة، ولم  
تعد تملك سوى النظر الى السماء، علّها تجود بإحدى معجزات الآلهة، كي تنقذه من هذا المصير  
المرعب، بهدوء أستل ذلك المتلذذ برؤية الدماء سكين كبيرة ماضية، ليمررها بحرفية المجرمين على  
الرقبة العارية المرتجفة، تفجرت الدماء مُخلّفة بُركة حمراء كبيرة، أغرقت ذلك الجسد المسكين الذي لم  
يتبق منه سوى بضع رعشات، في محاولة أخيرة يائسة للتشبث بالحياة، لكنها سرعان ما خمدت، تعالت  
الضحكات القبيحة فرحاً بهذا المشهد المرّوع، سعيدة بإزهاق إحدى أرواح البشر.

رفع السفاح رأس ضحيته الى الأعلى زهواً، كأنه يرفع لواء انتصار القتلة، صارخاً بصوت مدوي يشبه  
عواء الذئاب.. (منذ الآن كلمة "الكوتيين" هي من ستقود مصير العالم، إرادة إلهنا هي التي ستسيّر هذه

الأرض، نحن أصحابها وأسيادها). ثم وجّه خطابه نحو أتباعه الشاخصة عيونهم وآذانهم نحوه.. (أقطعوا رأس كل من يتعبد في غير معابدنا، ويستمتع لغير كهنتنا، ولسان كل من يرتل الأغاني، أكسروا كل يد تعزف الموسيقى، أو تحمل قصبه الكتابة، خذوا ما شئتم من نساء هذه البلاد فقد غدّون سبّايانا). تعالت صيحات وهتافات الغربان، كما لو أن زعيمهم قد زف لهم بُشرى فوزهم بالحياة الخالدة.

تركزت نظرات "سوشتار" المرتعبة على هذا المنظر المُقزز، هل هؤلاء أناس مثلنا، خلقتهم الآلهة كي يعمروا الأرض، ويزرعوا بذرة الحياة فيها؟ كما قال لهم يوماً كاهن المعبد، وهو يُعلمهم أوليات التعبد مع باق الصغار، أم تراهم العفاريت التي كانت أمه تخيفه باختطافهم إياه أن لم يطع كلامها؟ بحق الآلهة من هؤلاء؟ من المحال أن تلد هذه البلاد الخضراء الجميلة، التي لم تعرف سوى المحبة، مثل هذه المخلوقات الكريهة. جمدت عيونه الصغيرة باتجاه أحد تلك الغربان، بدا بالغ القبح بلحيته الكثة وشعره الأشعث، وطول أظفاره التي تشبه مخالب الذئب، بادل ذلك الوحش النظر هو الآخر، تقاطعت عيون الملائكة مع عيون الشياطين في مسار واحد، نظرات حالمة، تجابه أخرى حاقدة، لم تكن مجرد نظرات، كانت صراعاً أبدياً صامتاً بين الحياة والموت، بين العطاء والسلب، بين الحضارة بجمال زهوها، والتخلف بقبح رموزه.

صرخ صاحب السكين.. (أجلبوا لي طفلاً صغيراً). أنتشر الوحوش بين الجموع، باحثين عن ضحية مناسبة، همّمة عالية سادت بين الأمهات، كل تحاول إخفاء طفلها خلف ثيابها التي لا تكاد تستر جسدها، دون شعور أو أرادة منه، قادته تلقائيتها وعفويته للتخفي خلف جسد أمه المرتعبة، أخذ يسرق النظر لما يحدث امامه من خلال ثقب ثوب أمه، بسرعة وكما تحتطف اليوم أحد العصافير، يد قوية تلتف حوله وترفعه الى الأعلى، هو نفسه ذلك القبيح الذي بادلته النظر.. (أتحاول الاختباء أيها الفأر الصغير؟)، ثم كورقة شجر قذف به أمام السفاح الذي تلقاه ضاحكاً.. (هدية جميلة لإلهنا العظيم)، صرخة مدوية أطلقتها أمه، صاحبها عويل أليم تردد هنا وهناك.. (أطفالنا يُقتلون)، (وجودنا يُقتلع من هذه الأرض)، (أحقاً موجودة أنتِ أيتها الآلهة؟).

دون مبالاة أو أدنى اهتمام لرعب الصارخين، مسك السفاح رأس "سوشتار" الذي لم يكن يتعدى حجم قبضته، ثم وضع سكينه المخيفة على رقبته.. (ماذا سيحدث، ما فاعل هذا الغراب الكريه بي؟)، أفكار وخواطر تواردت على فكره بسرعة البرق، أحس بحرارة نصل السكين التي أخذت تكوي رقبته الغضة الصغيرة، رجفات الخوف تسربت الى قلبه الذي تسارعت ضرباته بشدة، حاولت غريزته البشرية أبداء شيء من المقاومة، ما لبثت أن خارت، حاول الصراخ، لكن صدمة الخوف خنقت صوته، في تلك اللحظة تسمرت نظراته على أمه تطلب عونها، رآها وقد جرّدها الوحوش من ثيابها تماماً، ليأخذوا بتقاذفها الواحد للآخر مطلقين ضحكات العُهر التي لا تليق إلا بأمثالهم.. (سوف تمنحينا جسدك أيتها السببية)، (أنظري، سيكون رأس أبنك تحفة جميلة، الى جانب رأس ذلك الرجل). عندها فهم "سوشتار" ما سيجري له، عرف معنى وصورة الموت، رغم أعوامه المعدودات، بسرعة أخذت نظراته تنتقل بين أمه وما يحدث لها من قبل الأوغاد، والجموع المُكبّلة الغاضبة، لتستقر في النهاية على الجبل بقمته الشاهقة، حيث بدت جميع الصور، قد ذابت وانمحت بين صخوره الصلبة القاسية، أغمض عينيهِ مُستسلماً لقدره، كأنه يريد أخذ غفوة عند حُجر أمه، عندها لم يعد يشعر بشيء.

## مَلْحَمَة حُب سَومَرِيَة

حكاية مُستوحاة من إحدى صفحات البطولة لثورة مدينة "لكش"

السومرية عام 2400 ق.م

أصوات ضربات المعاول تتعالى، مصحوبة بصيحات وهتافات الثائرين، غبار كثيف يملئ المكان، بعد انهيار أجزاء كبيرة من جدران السجن الأسود الكريه، الذي كان على مدى الدهر رمزاً قبيحاً للظلم وحكم الطغاة، الثائرون يواصلون تكسير أبواب الزنانات الثقيلة كي يحرروا من بداخلها من سجناء بدوا كالأشباح لدى خروجهم من تلك الجحور، أعمدة دخان تتصاعد هنا وهناك مخلقة كتلاً شوهاء متفحمة من الخشب لم يعد لها أية معالم أو شكل، كانت بالأمس القريب مناخذ ومعدات مُعدة لتعذيب أولئك المُبتلين بعشق الحرية، روائح ما خلفته النيران تخنق أنفاس الراكضين في كل اتجاه، مُتعثرين مُتخبطين ببعضهم البعض، بعد أن حَجَب الغبار عنهم الرؤيا، حتى بدو كأنهم مجرد ظلال سابعة على فوهة بركان ثائر، لم يخمد سوى منذ فترة وجيزة، يصرخون بعلو أصواتهم بأسماء من ابتلعتهم تلك الحفر الرهيبة لسنين طويلة، ضاعت من حساب الزمن، علَّهم يجدوهم، أخيراً أنتصر الشعب، انتصرت ثورة الجياح بعد طول صبر والم، ليطيح صمود الكادحين والمستضعفين، بسلطة من جعل الوطن قبراً كبيراً لأبنائه.

بين هذه الفوضى العارمة، أخذت تركض كالمجنونة كحال الباقيين، تنظر في وجوه الجميع، مُطلقة صيحات مبحوحة.. "سيمودار"، "سيمودار"، (أنجديني يا "سومر"! هل ما زال على قيد الحياة؟ ام تراه قضى تحد مخالب المجرمين، لتلقى جثته في النهر كباقي المناضلين؟). سنون، شهور، أيام تقال لم تعد تذكر عددها مرّت، منذ ان غيبته هذه الدهاليز المُعتمة اللعينة، لتسرق فرحتها وزهرة دنياها، تاركة إيها وحيدة هائمة في دروب النضال الذي ورثته عن غياب حبيبها، دهر رغم قسوة أيامه، لم يلن صبرها أو يُمّت أملها بلقياها ثانية.

طيف مهلهل الثياب بمشية عرجاء يتقدم نحوها، أخذت صورته تتضح شيئاً فشيئاً، كان يتوكأ على عصي معوّجة، أخذ منها عكازاً يسند به خطوات ساقه التي هشمته أدوات العذاب، بهدوء ممزوج بصدمة اللقاء، وذهول من رؤية تلك الهيئة، تلقته بشهقة وفاه مرتجف.. (أنت؟)... (انتصرنا يا "ميداشا"، انتصرنا)، عبارة واحدة قالها بصوت خافت مصحوبة ببسمة متعبة ليفيقها من صدمتها ثم صمت.

ظل كل منها مُحدقاً بالآخر، بعد أن أفقدتهما المفاجأة القدرة على قول أي شيء، دقائق بطيئة تمرّ، نسيا خلالها رغم الصخب والضجيج أين هما، وفي أي يوم من ايام هذا الزمن، اكتفيا فقط بالنظر بما أحدثته الأيام فيهما، تغيّر فيه كل شيء سوى قامته المديدة التي كانت ترى فيها شموخ النخيل، ذوت عضلات ساعديه المُمتلئتين، وتركت الأصفاد وزرد السلال ندوباً غائرة فيهما، شعره الفاحم غدا ناصعاً مثل قلوب الكادحين، عُمر من الفراق والألام والأهات، لم يبق له النضال بعد أن سلبه الشباب وزهو الحياة، سوى ابتسامته الحاملة بمستقبل أخضر جميل، ويوم فرح لا بد أن يراه الشعب، نفس الابتسامة المليئة بالشوق

والنظرة الواثقة، حين كان يلتقيها في كل حين، مردداً لها جملته الأثيرة، التي طبعت في ذاكرتها على مدى السنين.. (أن الحياة خلقت للشعوب، وهي حتماً التي ستنتصر في النهاية)، كان أيمانه بأبناء وطنه لم يتزحزح يوماً، وثقته بانتصار الحقيقة وسطوع شمسها، راسخ وأن طال الزمن.

أمعنت النظر بلامح وجهه الذي حفرت فيه الأيام وظلمة السجن، تجاعيد عميقة رسمت خارطة الآلام، وتركت مخالب السفاحين عليه، جروحاً وقروحاً غائرة، كتبت أسطورة صموده، غداً أبيضاً كوجوه الموتى لنسيانه ضياء الشمس. أعادت نظرتة إليها صورة عينيه الحادتين، حين التفته أول مرة في ورشة حدادته الصغيرة في ضاحية المدينة، كي تُصلح منجلها، ذلك الشاب الوسيم بصدرة الأسمر العريض العاري، وقد غدا شديد الحمرة لقربه من كورة النار، بابتسامته الطفولية الجميلة، الممتلئة وداعة ومرح لا تتناسب مع قوة جسده وساعده المفتول، حين يطرق بمطرقته الثقيلة الواح البرونز السمكية بشدة دون توقف، جاعلاً المعدن الأحمر اللاهب، يتحول مُرغماً كما يشاء ذلك الساعد، مُعلنًا استسلامه وخضوعه له، رأت بضربات مطرقته القوية، صورة البطل "كلكاش" وهو يصرع رمز الشر والظلام العفريت "خمبابا"، مُعلنًا انتصار الأنسان على قوى الشر والظلام الكارهة للنور، بعين ينظر تتابع ضربات مطرقته، وبالأخرى يختلس النظر إليها، حتى التقت سهام العيون، لتمزق نسمات الحب حاجز الصمت بينهما، حاول حينها واهماً اخفاء نظرتة الخجولة، لكن ابتسامته العريضة فضحته كأني تلميذ ساذج في ميدان العشق، لا زال غير خابر بدهاليزه وخباياه.

مدَّ يده الى شعرها الناعم الجميل، الذي ظل سواده عصياً على أهات الزمن، كأنه يعلن الحداد على فراق "سيمودار"، باستثناء بضع خصيلات تمردت على قانون الصبر، بعد أن تسللت إليها بعض الهُوم والأوصاب المُحتبسة في قلبها، استقبلت راحتة الحانية الدافئة التي بدت لها رغم خشونتها، كأنها وسادة ناعمة محشوة بزغب الحمام، تشوقت لملامستها منذ دهور.. (ما أجمل هامتك العالية يا "ميداشا"، ما رأيتها محنية يوماً، حتى وهي تحصد السنابل). عادت له صورتها الجميلة تلكم الأيام، حين أختطف حب هذه الفلاحة السومرية الأبية قلبه، ليجعله يقطع الطريق الطويل حتى حقول السنابل، كي يختلس النظر إليها أوقات الحصاد، بإحدى يديها الغضتين القويتين تحصد السنابل بمنجلها الحاد اللامع بوهج الشمس، وبظهر الأخرى تمسح جبهتها العريضة المُتصببة عرقاً، ليطمكها جمالها الفاتن، وهي تحتضن باقات السنابل بحنو كأنها تحتضن نفحة الحياة، بعد أن أمتزج عرقها مع حباتها الذهبية، كانت سيول العرق الغزيرة تنساب من جبهتها برشاقة وتمايل نحو ثنايا جسدها، فبدت كأنها سواقي ماء زلال تسقي أرض عطشى، أنقع العرق ذلك الجسد المغزلي الساحر حتى التصقت الملابس عليه، فبدت له "ميداشا" كأنها حورية وهبتها موجات الفرات، يُسكر سحرها ويأسر قلب كل من تقع عيناه على لوحة الجمال هذه، كان صوتها الجنوبي الرخيم يصدح حيناً، وهي تشدو بالأهازيج العذبة مع رفيقاتها الفلاحات خلال الحصاد، بتناغم جميل أخاذ مع حركة ايديهن المعفرة بالتراب، وأجسادهن السابحة بعرق العمل، أسكرته أهازيجها الفياضة بحب الأرض وخير عطائها وطيبة أهلها، كنسائم شمالية عذبة تتلاعب بسعيفات النخيل، لتجعل منه مجرد عصفور رقيق تائه، بعد أن جرده ذلك الجمال والحنين، وتلك الرقة الملونة بآباء الكدح مقاومته لغواية قلبه.

خلال ملتقيات عشقهما عند مكانهما الأثير بقرب مرسى الزوارق، كان يكفيها نظرات عينيه المتشوقتين المليئين بتعابير الحب، بعد أن ظل لسانه ثقيلاً مُتلعثماً بعبارات وكلمات الحب، غير مُجيد لصياغتهما، لكنه حين يتكلم عن الوطن، تجده قد أصبح أنسان آخر، فيغدوا أشدّ فصاحة من كبار الكتبة، يصعب لمن

يصغي اليه التصديق أن هذه الكلمات يتقوه بها حداد بسيط، كل ما يمتلكه من متاع هذه الدنيا ساعد قوي ومطرقة، وقلب كبير يسع جميع الناس، وأحلام جميلة طرزت مخيلته، كانت أمنياته أن سألته عنها يكون أولها وآخرها لـ"سومر"، أرض كريمة وشعب فرح لا يعرف معنى الأحران، يحتضن طفولة جميلة مُبتهجة، لم يعرف معنى للسعادة والحب، إلا إذا ارتبطا بملهمته "لكش"، كان تعلقه بمدينته عصي عن الوصف، كتعلق الطفل بأمه.. (كيف تكتمل سعادتنا دون مدينتنا وأهلها الطيبين).

رغم جمال اللوحة التي رسمت حبهما، أحس قلبها بهم كثقل الجبال يعتمر صدره، وسر غامض مدفون عميقاً داخله، قرأته من خطوط الحزن التي ارتسمت على مُحياءه، مختطفةً ابتسامته الجميلة الخجولة، التي يبخل بها على الناس كي يمنحها لها، حتى تجرأت يوماً على البوح بما تشعر به، لتعرف أنذاك حقيقة الدرب الذي يسير فيه، والأفق الذي يسعى وراءه.. (أنها "لكش" أيها الحبيبة، حتى متى تظل تنوح وتبكي فجيعة أبنائها؟ أیظل الفقراء يزدادون بؤساً، وخير بلادهم يُسلب من بين أيديهم؟ أيبقى الطغاة يسرقون آمالنا ومستقبل أبنائنا؟ حتى متى يبقى الكهنة يخدعون بسطاء الناس باسم الآلهة، كي يستولوا على محصول كدّهم وتعبههم؟ أتبقى كروش ملاك الأراضي تنتفخ، بينما الفلاحين المُتعبين وجوههم صُفر وأجسادهم كعيدان القصب؟ يجب تعود بلادنا لأبنائها الطيبين).

مع تتابع الأيام تناقلت الأحاديث بين جموع الكادحين ما يفعله، وهو يقود الناس بين أزقة المدينة وأحيائها المُعدمة المتهاوية، يهتفون بأصوات عالية، مطالبين الطغاة بحق الشعب من خيرات بلادهم، وإذا مرت يوماً بورشته لتسرق منه بسمة عشق أو نظرة حب، تجدها قد اكتظت برجال ذوي سواعد سُمر كساعده، لهم جباه عالية وكبرياء غريب لم ترى مثله قبلاً، رغم فقر حالهم الواضح على هيئاتهم، ليلتقط سمعها بعض من كلماتهم وعبارات حديثهم.. (سيكون التجمع اليوم عند سوق النساجين)، (علينا أن نلتقي قدر ما نستطيع من الناس)، حيث غدا محل عمله مكاناً لتجمع الثائرين ومنطلقاً لخطط نضالهم.

رياح الحرية أخذت تعصف بالوطن، قلوب الشعب بدأت تغلي، توسعت دائرة الرافضين لحكم الطغاة، الحالمين بغدٍ جديد خالٍ من الاستبداد والقهر، لتضمّ جموع الفلاحين المقهورين والعاملين بالمشاغل وكتبة المعابد. مقابل ذلك لم يكن الطغاة غافلين، وقد أخذ حراك الناس يورق نومهم ويقلق خدر نعيمهم، ليكون رد فعلهم سريعاً وعنيفاً كهجوم الذئاب، تكالبت قوى الحقد من كل حدبٍ وصوب لخنق بواكير الثورة في مهدها، التقت تناقضات جميع الكارهيين لعلو صوت الجماهير، المهددة مصالحهم بالضياع، أقزام، فاسدون، مرابون، شواذ، وكل من نبذته عذرية الدنيا ونقاء طهارتها، كهنة مُتملقون يفتون من باحات معابد النحس بحرمة أمنيات الناس، وخطيئة كل رافض لطاعة الطغاة، مهددين بغضب الآلهة على كل من لا يقنع بسلاسل قدره، التجار بين ليلة وضحاها أصبحوا أسخياء، يغدقون كل ما لديهم لتشويه حقيقة ما يذهب اليه الشعب.

أخذ نشاط الجنود والمرترقة والجواسيس المأجورين يزداد يوماً بعد يوم، شقيقات الفضة والذهب وأكياس الحبوب منحت دون حساب، لكل من يقتل ثائراً أو يشي بمكان آخر، ذئاب الطغاة هائجة مسعورة، باتت تمزق كل يقف في طريقها، غدا المناضلون يقتلون بالعشرات، ويغيب آخرين دون أن يعثر لهم على أثر، باستثناء من وجدت جثته ملقاة في النهر، والسجون التي تضاعف عددها بدت متخمة، بعد أن اختنقت زنازينها بالثائرين وكل من يشك بولائه للطغمة الحاكمة، أصبح الطامحون للحرية بعد أنتشار عبير ثورتهم، مشتتون مطاردون في كل مكان، "لكش" ساحة مُرعبة للبطش والقتل والاختطاف، لم يعرف أيلها من نهارها، ليكون القمع والموت والخوف، عناوين الصفحة القبيحة التي شرّعها الطغاة.

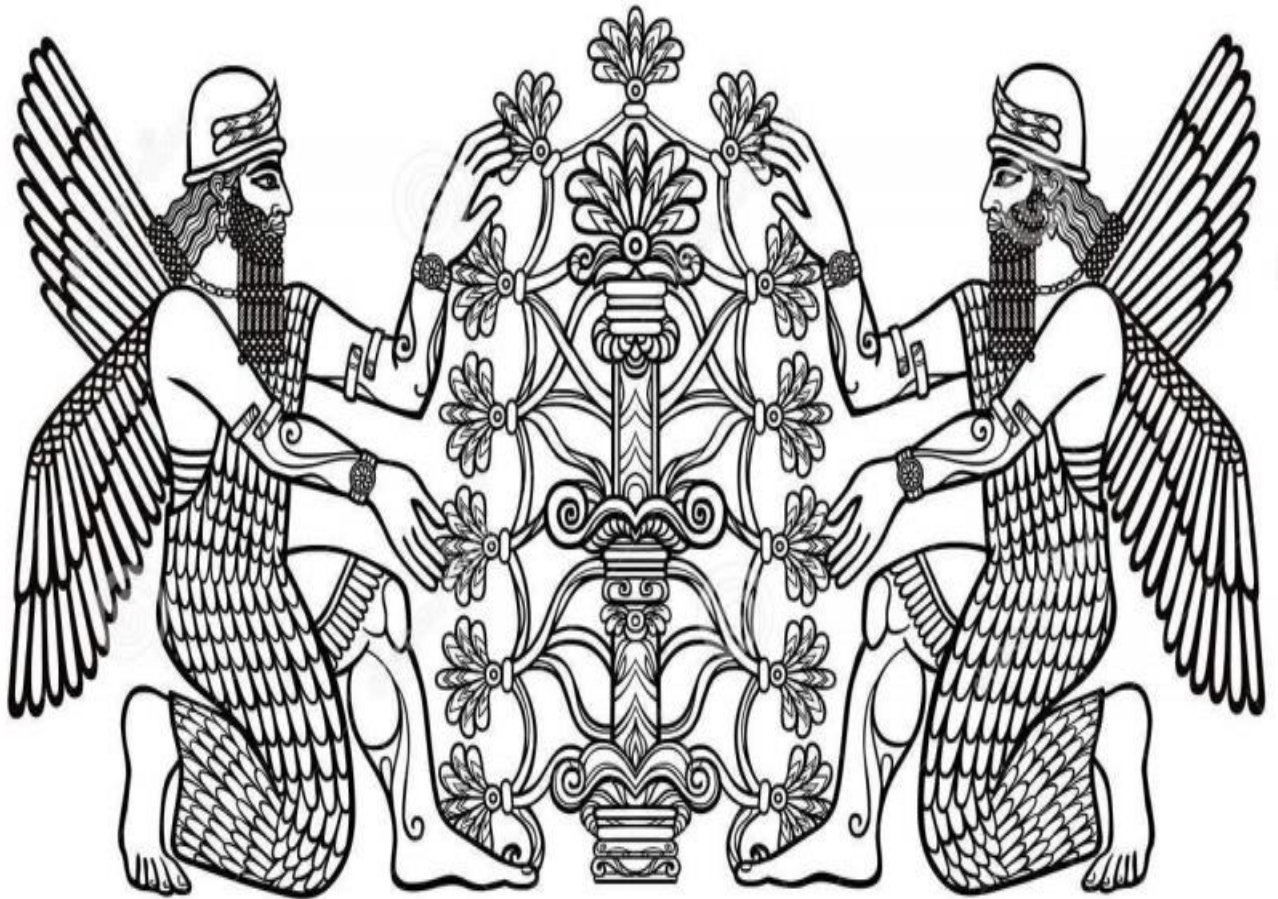
رغم صعوبتها، تواصلت دون انقطاع لقاءاتهما الجديدة المليئة بالقلق والترقب، محتضنة إياها حقول السنابل، أصبحت ليلاً وبأوقات متباعدة، يأتي كالشبح متخفياً مُتِعِجاً ثم يتركها لخوفها عائداً من حيث جاء، غدت ديمومة حبهما وجهاً آخر لنضالهم الساعي لانتصار الحياة.. (محال أن يخشى قلبي هؤلاء الطغاة، هم ليسوا سوى خيالات شاذة باهتة عند سفوح الحياة، سيأتي يوم وتلفظهم عن مسرحها الأخضر الجميل). هكذا كان يُطمئنها حين تتسلل غمامة الخوف الذي لم تعرف حياته شكلها الى قلبها الرقيق العطوف. (الحقول هي من ستحمي الثائرين)، بهذه الكلمات بددت حيرته عن المكان الذي سيلتقي برفاقه بعد استحالة ذلك داخل المدينة، لتغدو تلك الأرض المعطاء فيما بعد ملاذاً آمناً للثائرين، وميداناً لتجمع الساعين من أجل الحرية، ومستودعاً لأسلحة الثورة. وهكذا ويوماً بعد يوم حتى من دون أن تدري، تلتفتها دروب الشقاء، ولفتها بلا شعور دوامة آمال الانعتاق، أنه الوطن، الأرض والناس الطيبون، هو الحب الذي عمّد روحها النقية، وجعلها تلقي بصرها بعيداً نحو يوم مُشرق جديد.

انتظرتة أحد الأيام دون أن يأتي، زاد قلقها، قلبها تقاذفته أمواج ظنون سوداء، أحد رفاق الدرب يأتي لها بخبر اختطافه من قبل الذئاب، لا أحد يعرف الى أين اقتيد أو في أي سجن أخفي، هل قُتل أم لازال على قيد الحياة؟ لا يعلم بذلك سوى القدر، آخر كلمات سمعها عنه، ما أبلغ رفاقه بوجود ديمومة النضال وبقاء تجمعهم بين الحقول. غمامة سوداء خنقت قلبها، رغم أدراكها أن "سيمودار" منذ أن سار بذلك الدرب، كان يعلم قسوته ووحشته وخاتمته الأكيدة، الموت أو نيل الحرية. هل تجبن وترحل بعيداً عن مدينتها؟ هل تنتحر إرادتها أو تضعف إذا مات من كشف لها أحجية الحقيقة؟ هل تعلن سلبية النهرين الباسلة، غرسة أرض "سومر" الطيبة خنوعها للطغاة، لو سافر الى المجد أولئك الثائرون الأبطال، الساعون نحو سعادة بلادهم؟ كان الصراع قاسياً داخلها أرق بهدوء شبابها، وأذاب بصمت جمالها الذي نسيت جاذبيته منذ أن سافرت بعيداً بطريق الحرية.. (محال أن تموتي يا "لكش" حتى وأن قضي من أجلك جميع أبنائك، سيستمر النضال حتى ينال الشعب سعاده أو يكون الخلود).

داخل زنزانته المظلمة في سجن الطغاة الرهيب، كانت "ميداشا" هي سلوى سُهاده رغم آلام جسده المباح يومياً للسياط، كان طيفها الزائر هو بلسمه المخفف لعذاباته، مانحاً إياه صبراً فوق صبره وثباتاً على ثباته، ورغم مرور سنون الغياب العجاف، لكن صورة "سيمودار" ما هجرت فكرها، كانت تمر بذلك السجن كل يوم، بعد أن تأكدت من حشره الى جانب العشرات من الثوار في أقبيته السوداء المخيفة، لتضع أذنها ويديها المُرتجفتين المُتعبتين على جدرانها، علها تسمع صوته أو بعضاً من آهات الآله وأنين أوجاعه، ليرتجف قلبها مُزيداً خفقاته كي يبث الحياة في جسده المنهك، فيديم صموده وبقائه في ساحة الوجود، عسى أن تشعر راحتها حين تلامسان ذلك الجدار الأدهم، بدفء راحته من جانبه الآخر، كانت واثقة بأنه لا زال حياً، قلبها الخافق بمحبته يُبلغها دوماً بذلك، حينها أحست فعلاً بحرارة أنفاسه، وبضع كلمات خافتة تخيل لها سماعها، يرددها صوته البعيد.. (أنا هنا يا "ميداشا"، لا زلت حياً أنتظر انتصار الشعب). لتتحقق مع الأيام نبوءة أولئك العاشقين لوطنهم، المتيقنين بعظمة شعبهم، فكان الانتصار.

بغمضة عين مرق شهاب الذكريات البعيدة في مخيلة كل منهما، بعدوبتها وعذاباتها، ليعيد انتصار الثورة برعم شبابها، الذي أختطف منها طيلة سنين الفراق، بلحظات تفتحت من جديد أزهير الحب الفواحة بعبير الوفاء، ونُسيت عجاف السنين الماضية، والتأمت جروحها النازفة، ليبدأ من جديد مسيرة حياتها القادمة .

رمى بشدة عكازه المشوه بعيداً، لينسى كل ما تبقى من آثار تلك الأيام السود، واضعاً ذراعه على كتفها ليتكى عليه، سارا معاً بثبات وثقة رغم بطيء خطواتهما، خارجين من ظلمة هذا المكان الموحش الكريه نحو المدينة، الى يومهما الجديد، مرافقين جموع الناس التي اكتظت بهم الشوارع، تملو وجوه الجميع أفراح انتصار ثورتهم، يتفاخرون بتهشيم تماثيل الطغاة، ساحقين مُخلفاتهم بالنعال. تلفتتا باسمين يميناً ويساراً ليُشبعاً نظريهما بمهرجان الفرح الذي انتزعه إرادة الشعب انتزاعاً بعد دهر من الصمود والألم والتضحيات، نظر كل منها للآخر، لتزداد ابتسامتيهما أتساعاً، ثم واصلا سيرهما فرحين حتى ذابا وسط زحمة الجماهير.





## نُقُوشٌ مِنْ وَحْيِ الظَّلَامِ

مع هبوب نسائم الفجر الباردة، أطل "أيشوأيلو" برأسه من نافذة مشغله الصغير، مُستنشقاَ بعمق قدر ما يستطيع من عليلها العذب، ليرطب بها صدره ويزيد من طاقة جسمه، قبل أن يبدأ تنفيذ فكرته المجنونة، التي لا تأتي غالباً إلا لمن وصل لمرحلة متقدمة من العبقريّة أو الخَبَل. وبعد أن تمطى بجسمه مزياً ما علق به من خَدَر، لف رأسه بعصابة سوداء سميكة أعدها ليغمض بها عينيه، ثم مد يده الى اللوح الحجري الكبير الصقيل المتكأ على الجدار، والذي كان قد أعده قبل أيام، مُتلمساً بأنامله سطحه وأطرافه الخارجية، محدداً الأماكن التي سيبدأ بها نقش أولى تفاصيل لوحته البانورامية التي تصورها، ثم بهدوء تناول من بين أدوات عمله مطرقة وازميله، ليضرب ضربته الأولى التي بدد دوي صداها سكون الصباح.

هكذا بدأ رحلته مع تلك النزوة المتمردة التي تملكته، معلناً ثورته الصريحة العارمة على مفاهيم الفن التقليدية الجامدة، التي كبلتها قيود العقل وازدرتها رياح التطور، مانحاً الغرائز البشرية فرصتها كي تعبر عما سُجن بين ثناياها، طيلة سيطرة عقول البشر الفاشلة على مقدرات هذه الدنيا، أراد بعيداً عن المحاباة والتملق أن يُنفذ لوحته بعيون مُغمضة، مؤرخاً فيها سيرة أيام بابل الممتدة على مدى متاعب حياته السالفة، مختزلاً فيها عشرات من السنين العجاف منذ احترافه الفن، دون أن يكون لبصره وعقله أي أرادة على توجيه يديه وفكرة عمله، مانحاً اللجام فقط لغرائزه وعقله الباطن الخفي.

مع تتابع ضربات "أيشوأيلو" الأولى، أحس أن ازميله يسير بسهولة ويُسر في بدن اللوح، كأنه يغور في أرض طينية أنبتت وروداً بيضاء، راسماً سيره أهلاً صغيرة تشابه ثغور أطفال جوعى تواقعة لمليء بطونها الخاوية، تحاشى الازميل تكدير صفو براءتهم المعذبة، متجنباً جرح أجسادهم الغضة.

توالت الضربات دون توقف، منتقلة الى مكان آخر، موجهة مسار الازميل صعوداً ونزولاً، كما لو أنه يصور قضبان سجون سوداء، أحس أن اللوح في هذا المكان شديد القسوة، يرفض السماح للازميل بكسر أرادة صلابته، ضرب بعنف وبشكل هستيري، حتى غدا الازميل أحمرراً لاهياً كالجمر، أحرق راحته لكن دون جدوى، حتى دوى صوت هائل، عرف عندها أن الازميل قد أنكسر، بسرعة تناول آخر ليوصل الضرب رافضاً التوقف. قاده مسار النقش الى مكان آخر من اللوح، عنده أصبحت الضربات بطيئة لكن قاسية، اقتلع الازميل بها قطعاً عريضة من سطحه، تتابعت وفق تناغم لحنى مُنسَّق يتردد صداها لأماكن بعيدة، كأنها مسيرة جنود مدججين، تضرب أقدامهم بشدة أرض رخامية ناصعة البياض غير عابئين بتدنيس جمالها.

ثم أخذ صوت الضربات يعلو تارة ثم يخفت تارة أخرى، بتناقض مُلفت غريب، وفق نمطية مُملة بدت كتراتيل الخشوع الزائفة، التي تُسمع في صوامع المعابد الدهماء، تلك التي يرددها كهنة متزلفون بأفواه مرتجفة تدعي مخافة الآلهة، لكن في طرفها ابتسامة صفراء مريضة جمعت فيها كل شرور العالم. وبانتقال النقش الى مكان جديد، أحس أن يده قد تعرقت بشكل غريب، جعلت الازميل ينزلق منها ولا

يقوى الصمود في أحضان الكف، بدت لزوجة حبات العرق، كدموع نسوة ثكالي يُحن بين هياكل بيوت متهاوية، يندبن أيام جميلة مضت وفتية غيبهم الثرى، يلتمس من الآلهة، بل وحتى من الشياطين أن يعود السلام لأرض بابل.

مع توالي ضربات المطرقة ونقرات الازميل، أختطف ذلك الحماس اللاإرادي "أيشوأيلو" لعوالم أخرى، لم يعد يدري معها بمرور الوقت وتوالي الساعات، لم ينتابه أي شعور بجوع أو عطش أو قضاء حاجة، فقد الاحساس بالتعب والألم، قطعت كل الخيوط الواهية التي كانت تربطه بالحياة، باستثناء أذنيه المنصتتين لموسيقى تتابع ضربات مطرقتة، كان بحق ميتاً مرتدياً نشاط الأحياء، مسلوب الإرادة والفكر والاحساس، بعد أن أوكل مهمات عقله لإلهام خفي مُحْتَبَس بين ثنايا قلبه.

ومع صياح الديك مُعلنًا حلول يوم جديد محمولاً على أجنحة العَبَش، توقفت يده عن الطرق، وضع مطرقتة وازميله جانبا، ثم مد يده الى اللوح الحجري ليزيل براحته بقايا الغبار عنه، مُتلمساً سطحه الذي غدا مُتخماً بالنقوش، لم يبق منه جزء ولو صغير ألا ونال نصيبه من نصل الازميل، عندها عرف أن عمله أخيراً قد أنتهى.

بهدهوء رفع عصابة عينيه التي اصطبغت بغبار النقش، كان متشوقاً ومتعجباً لمعرفة ما أنتجت يده، غير مكترث لشدة تورمهما من كثرة الضرب وقسوته، أنتظر قليلاً حتى اعتادت عيناه الضوء، ثم القى ببصره على لوحته الغامضة المثخنة بالضربات الموجعة. نقوش متداخلة بلا أشكال أو معالم يمكن أن توصف بها، أطرت بخطوط متعرجة ومتمايلة، وأخرى مستقيمة، بعضها متوازية وبعضها متقاطعة، وبعضها تسير باتجاهات غير واضحة أو تصل لنهايات ملتوية، فوضى في النسق، تباين في قياسات الفن والمنطق، وأبعد ما تكون عن مفهوم الجمال. أمعن النظر في هذه الفوضى التي ليس لها أول من آخر، محاولاً اعطائها أي تفسير أو معنى أو رمزية ما وأن كانت واهمة، أو أسماً يتناسب مع جنونها، لكن دون جدوى.

وبينما هو مُمعن بتفحص أنجازه المُبهم، أخذ اللوح بالتشقق شيئاً فشيئاً، وسرعان ما تهاوى مُتهشماً بكامله على الأرض. ظلّ "أيشوأيلو" مأخوذاً مشدوهاً بما جرى، ناظراً بحيرة وذهول الى كسر وشظايا الحجر المتناثرة هنا وهناك، لا يقوى الإتيان بحركة، وكل الذي أستطاعه، بث بضع زفرات وحسرات، وعبرة مخنوقة كوت صدره.

## السوار

### حكاية مُستوحاة من حادثة حقيقية جرت تفاصيلها عام 1995 في إحدى القرى العراقية البائسة الواقعة في قضاء الحويجة التابع لمحافظة كركوك

مثل وردة بيضاء جميلة، استقبلت "أيراما" الصغيرة صباح يوم جديد من عمر حياتها الذي لا يتجاوز السبعة أعوام، أدارت بصرها نحو شعاع النور المار عبر نافذة الكوخ الطيني المتهالوي، والى باقي أرجائه الأخرى، ثم ما لبثت أن أغضت عينيها الناعستين مجدداً، داسّة رأسها تحت فرشتها البالية، لتسرق بضع دقائق آخر من متعة إغفاءة الصباح، كان الخدر قد كبّلها تماماً، بعد أن أخذ دفء الفراش الخشن المحشو بالتبن والحلفاء مأخذه منها، لكن سرعان ما تغلب نشاط طفولتها مُحرراً إياها من كسلها وخمولها. تركت فراشها وعلى فمها ابتسامة أعذب من نسيم الربيع، وسارت متمائلة حيث تجلس أمها وحيدة في مكانها المعهود عند باب الكوخ، ساندة رأسها على إحدى راحتها بعد أن اعتادت غياب الزوج الدائم، وغدت لا تراه وأبنتها على امتداد الموسم الزراعي الطويل سوى أيام قلائل، يسرقها من مظلوميته وقهره، ليجلب لعائلته الصغيرة ما تقفّت به وتسد به رمقها خلال مدة غيابه، والتي لا تتعدى اكيال محدودة من الشعير، ومثلها من حبوب الذرة، لتتملكها الهموم وتسرقها الأفكار وما خلفه لها الزمن من ضنك العيش، رامية بصرها الى المجهول، لأيام قادمة لا تعرف كيف ستطعم فيها أبنتها، بعد أن قاربت مؤونتهم الشحيحة على النفاذ.

احتضنت بحنو جسد أبنتها النحيل الذي لا يكسوه سوى ثوب بال باهت اللون، مانحة إياها قبلة حانية وابتسامة صغيرة لا تكاد تُرى، هي كل ما استطاعت انتزاعه من أوصاب قلبها وبؤس حالها. أجلستها بجانبها ثم أخذت تُمسد شعرهما الناعم الفاحم، كانت تتمنى أن تدهن شعر أبنتها بالزيت والعطر، وتزيّنه بالأطواق الجميلة وتُجمّل خصلاته بالخرز الملون، كحال الصغيرات اللواتي في مثل عمرها، لكن امانها كان يبدها دوماً واقعهم البائس، تناولت ساعد أبنتها النحيل، طالبة منها اغماض عينيها، ثم أخرجت بسرعة من جيبها سواراً منسوجاً من بقايا خيوط الصوف، زيّنت اطرافه ببضعة خرزات ملونة، عقده على معصمها، ما أن رأته "أيراما" حتى أخذت تقفز فرحاً به، طابعة القبلات على وجه أمها الباسمة لنشوة أبنتها، هذا ما وعدته به أمها أن تصنعه وتقدمه هدية لها مع قدوم الربيع وحلول السنة الجديدة. تناولت الصغيرة على عجل بضعة لقيمات من بقايا رغيف شعير بانث، تمكنت من ابتلاعها بصعوبة بمعونة بضع رشفات من الماء، هو كل ما قُدّر للأُم أن توفره فطوراً لأبنتها غير المبالية بطعامها، بعد أن أنستها فرحة سوارها كل شيء .

انطلقت "أيراما" مسرعة الى الخارج، حيث زقاق البائسين في ضاحية المدينة، الذي رصّت على جانبيه بعشوائية، أكواخ الفلاحين الأجراء المستضعفين والفقراء المُعدمين، ينتظرها هناك صديقاتها الحميمات "ياروما" و"أترايا" و"رادانا"، المماثلات لها في العمر وخفة الروح، لتريهن سوارها المتباهية به،

محاولة إثارة الغيرة في نفوس رفيقاتها، قاصّة عليهن بفرح وبراءة ما حدثتها أمها بشأنه، كيف أن الفتاة إذا وضعت هذا السوار في معصمها مع حلول الربيع، فإن الإله "ثُموز" سيحقق لها أمنيتها عند بعثه مجدداً الى عالم الأحياء، أخذ السوار لب "أيراما"، فكانت عيونها لا تفارقه حتى وهي في أوج متعة اللعب مع رفيقاتها، بعد أن استحوذت فكرة تحقيق أمنيتها على كل ما حواه عقلها البريء من خيال.

كان الزقاق بأكواخه المتهاوية هو المكان الوحيد المتاح للعب الأطفال، ليكون مرحهم الجميل هو من يمنح بؤسه شيئاً من علامات الحياة، ويعطيه بهجة وأملاً جميلاً، فما أن يسفر الصباح عن وجه يوم جديد، حتى يستقبل رواده الصغار الذين تأخذ أصواتهم تعلو شيئاً فشيئاً، كعصافير صغيرة تحررت للتو من أقفاصها، لتطير مُستمتعة بنعيم وجمال الحرية.

توالى لعب الصُحبيات كالمقطب الصغيرة بين قفز وركض واستخباء، لا يعرفن من الحياة سوى فرحتها وضحكتها، غير مباليات بالعربات المارة عبر الزقاق، بعضها كانت تحمل الفلاحين الأجراء المسحوقين، بأجسادهم النحيلة التي مَسخها الفقر والعوز والفاقة، فبدوا كأعواد القصب وقد حشروا داخلها حشراً، لتأخذهم مقادين كالعبيد الأذلاء الى الحقول البعيدة، حيث يعملون لدى مُلاك الأراضي الأثرياء، وبعضها الآخر كانت تحمل أكياس شعير كبيرة يتوجه بها أصحابها الى المطاحن، يترامض الأطفال خلفها محاولين جمع قدر ما يستطيعون من ما يتساقط منها على الأرض يذهبون به فرحين الى أمهاتهم، لتَمُر كذلك عربات بطيئة كسولة تنقل أصحاب الأراضي ومُلاكها، حيث تعاني حميرها الأثمين، وهي تجرّها بمشقة وصعوبة، بسبب ثقل أجساد راكبيها الممتلئة وكروشهم المنتفخة، حيث يبدون لمن يراها مثل الخنازير المتخمة الممددة في أحوال المستنقعات، وسط ضحكات واستهجان وتعليقات الأطفال الساخرة، ليرد عليهم هؤلاء بنظرات مسمومة كارهة، وابتسامات صفراء حاقدة، مكشرين فيها عن أسنانهم الكبيرة، استحقاراً واشمئزازاً لهؤلاء البائسين، الذين لم يكونوا يمثلون لهم سوى مجموعة حشرات حقيرة ليس إلا.

قطرات غيث أخذت تتساقط رويداً رويداً، ما لبثت أن اشتدت لتتحول الى رشقات قوية أنقعت أجساد الصغار اللاهين وسط الزقاق، جعلتهم يترامضون في كل اتجاه، بحثاً عن شجرة أو سقيفة يحتمون بها من نعمة الربيع. ازدادت ابتسامة الصغيرات الأربع أنساعاً من مكنهن في إحدى الزوايا رغم ذلك، أنه الربيع وعلامات قدوم "ثُموز" قد أخذت تلوح، هو الآن في الطريق الى العالم، ليملئه خيراً وخصباً وخضرة، أغمضت "أيراما" عينيها رافعة رأسها الى الأعلى، ثم تلمست سوارها مُتمتمة بصوت خافت لم يسمعه سواها، أمنيتها الأثيرة التي تطلب من "ثُموز" أن يحققها لها. أبرقت الدنيا ولمعت، أعقبها أصوات رعود هائلة هزّ صداها الأرض والأكواخ البائسة، ليمضي الوقت أمام عيون الصغيرات وهن يتأملن بفرح غامر هطول المطر، غير مباليات بارتجاف أجسادهن الغضة بما عليها من كسوة خفيفة بالية، إذ كانت دواخلهن قد ازدادت فرحاً مع تلك الرعود، كنّ يعرفن كحال من عاش بين الحقول وخبر عطايا الطبيعة، بأن الأرض ستتشقق جرّاء تلك الأصوات، كاشفة عن حبات نبات الكما المختبئة تحت التراب، وسوف يمارس الصغار هوايتهم ولعبتهم المفضلة بجمعها في البرية، حيث الهواء العليل والطبيعة الجميلة التي تشعرهم بالحرية، وتبعدهم بضعة سويغات عن قيد البيوت، لتبجع عوائلهم ما يجمعوه فيما بعد في سوق المدينة، مقابل أوزان صغيرة من الشعير.

ما أن هدأ روع السماء مُنهيّة سقوط أمطارها، معلنة نفاذ خزين غمائمها، حتى تراكض صغار الحي من صبية وبنات الى أكواخهم، ليأتي كل منهم بعدته البسيطة، التي لا تتعدى عصاً صغيرة مَبْرِيّاً إحدى

طرفيها كي يُنبش بها الأرض، وكيس قماش صغير، يُجمع فيه ما يكتبه الحظ في العثور عليه، وقطعة خبز يُسد بها الرمق ويصبر معها وحش الجوع، خلال فترة البحث عن ذلك النبات الخجول. أنتظر الصغار عند حافة الطريق الموحد، المؤدي الى البرية الواسعة الممتدة نحو الأفق، يترقبون قدوم عربة العجوز الطيب "لاثيل"، الذي اعتاد أيسال الأطفال بعربته عند نقله الحبوب الى المطحنة، يسلون دربه الطويل بأصواتهم وضحكاتهم البريئة، مستمتعاً بقفشاتهم وعالمهم الجميل الساحر ورفقتهم الممتعة المرحية. تعالت صيحات الصغار فرحاً بعد وصولهم الى الأرض المراح المعشوشبة التي صورتها الطبيعة بشكل بهي فاتن، فبدت كسجادة خضراء، ملأتها أوراد البابونج البيضاء والخشخاش الحمراء، جاعلة الارض تفوح بروائح عطرية أخاذة تُسكر النفوس، وترطب الوجوه والقلوب المتعبة. قفز الجميع بسرعة من العربة مودعين صديقهم العجوز الطيب، الذي تمنى لهم أن تمتلئ أكياسهم بحبات الكما، على أن ينظروه في نفس المكان، ليأخذهم معه بطريق عودته من مقصده عند انتهاء الظهيرة.

تفرق الصغار المتحمسين، منتشرين في كل مكان، مقسمين أنفسهم كما تعودوا الى مجموعات صغيرة للبحث عما جاءوا من أجله، واتخذت "أيراما" مع صويحاتها الثلاث من بقعة منعزلة كشأن الآخرين مكاناً لمتعة بحثهن، تراقصت الصغيرات غبطة وهن ينظرن الى الأرض وقد ارتدت رداءها الخلاب، أنه "ثُموز"!، أنه حقاً الآن في الطريق اليهم، تلمست "أيراما" مرة أخرى سوارها، كأنها تريد تذكير الربيع بأمنيتها، ليكون جمال الطبيعة شاهداً على تحقيقها. كانت الأرض مليئة بالشقوق، كاشفة عن كميات كبيرة من الكما، لتنهك الصغيرات بنبشها واستخراج ما حوتها، ثم جمعها في أكياسهن الصغيرة، احدهن توجه الأخرى وترشدها الى الأماكن المنتفخة والمتشقة من الأرض.. (هذه واحدة)، (في ذلك الشق هناك الكثير)، (ربما في هذه الحفرة العميقة، حتماً أنها ممتلئة)، (لا أيتها البلهاء هذه حفرة جرد، لقد رأيت مثلها بجانب كوحننا). الأيدي تلطخت بالطين والأكياس أخذت تمتلئ شيئاً فشيئاً، خطوات تسرق خطوات، ودون شعور توغلت الصغيرات عميقاً في البرية، أنساهن كرم الطبيعة الوقت، وابعدهن عن طريق العربات، وأغوتهن الأرض بوفرة بما جئن ساعيات من أجله.

فجأة تغير الحال، ظلمة حالكة لفت المكان وابتلعت الأرض، ضحكات الصغيرات صممت، أفواههن حُرست، قلوبهن الرقيقة اعتصرها أحساس غريب جعلها تخفق بشدة، حبسن أنفاسهن يترقبين نزوة الطبيعة هذه التي لم تكن على بال، عتمة المساء لم يحن وقتها بعد، ولم تكن غمامة عابرة حجبت ضوء النهار، أصوات عواء يصل صداها الى السماء بددت السكون، تسمرت أطراف الصغيرات وتجمدت، فلم يعدن يقوين على الحركة، أكياس تعبهن الممتلئة سقطت من أيديهن المرتجفة، "أيراما" تتلمس سوارها علها تجد فيه عوناً، قطيع ذئاب هائج يعدو بجنون نحوهم، لا يعرف من الطفولة سوى لحومها الغضة التي أسالت لعاب أفواهها المفجوعة، بعد أن أثار رائحة أجسادها الضعيفة المنكودة التواقة للفرح، شهيتها وغريزتها المتعطشة للدم والموت، كأنهم شياطين من العالم الأسفل، يسعون وراء ضحية مُبتلاة تكون بديلاً عن أنعتاق "ثُموز".

أحاط القطيع بالصغيرات الباكيات المرتعدات من الهلع، كأنه فرقة جلادين تريد سوق مظلوماً للقصاص، لم يكن يشاهدن من تلك الأفواه الكبيرة الكاسرة، سوى أنيابها الحادة التي تقطر حقدًا وشراسة، لا يضاهاها سوى قبح أفواه مُلاك الأراضي، حين يختالون بابتساماتهم فرحاً وزهواً أمام قهر الفلاحين. لتحدث عندها المجزرة، صرخات مخنوقة متتالية لم يتردد لها صدى سرعان ما خمدت، المخالب القوية عُرست في الأجساد الرقيقة الناعمة، مزقت اللحم وكسرت العظام الطرية بيسر واحترافية، أصوات

مضغ والتهام بشراهة، عراقك دموي بين المجرمين على توزيع حصصهم من الفرائس، قطعة لحم هنا أو بضعة أضلاع هناك، لم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً بيد من أمتهن رسم خرائط الدم، لينسل الجناة من المكان كما جاءوا من غير دعوة أو موعد، بعد أن نالوا ثأرهم من البراءة، وذبحوا قربانهم المسكين للعام الجديد، لتتجلي بعد تنفيذ الجريمة تلك الحُلُكة الدهماء القاتمة، التي لم تكن سوى عتمة شؤم، جاءت من عالم الظلام كي تغشي العالم عما سيجري، متسترة على ما سينفذه القدر المشؤوم، المتباهي بانتصاره الدائم على المستضعفين والمظلومين. أمطرت السماء بغزارة ذارفة دموغاً زائفة على طفولة حزينة، لم تستنشق في حياتها شيئاً من نسائم السعادة، ولم تعرف في سنوات عمرها المعدودات سوى الأمانى، لتغرق رشقات المطر الارض، كأنها تحاول اخفاء مسرح الجريمة، وتغسل آثار فعلة الغدر النكراء بحق النقاء والجمال ولوحات الفرخ.

عربة العجوز "لاثيل" تتهدى بطريق عودتها مع نهاية الظهيرة، الصغار المنتظرون يقفزون إليها من كل جانب، ومعهم أكياسهم التي تفوح برائحة الكمأ، كلٌ يتفاخر بكمية ما جناه، يرافقها ابتسامات وتشجيع العجوز السعيد بغبظتهم وضحكاتهم. لكن لم يكتمل الصغار.. (ما هذا؟ أين الصغيرات الأربع، "أيراما" ورفيقاتها؟)، (لم يرهن أحد)، (كنّ يبحثن في الجانب الآخر من التل البعيد). الوقت يمضي سريعاً، والقلق أخذ يسري في جسد "لاثيل" الذي انتمنته العوائل على صغارها، ترجل بهدوء من عربته طالباً من الصغار عدم تركها، سار مُترنحاً بجسده الثقيل المُتعب، باحثاً في هذا الاتجاه وذاك، متتبعاً بقايا آثار أقدام عند جانب الطريق، وأخرى متوغلة في عمق البرية، حتى وصل مكان الفاجعة، راعته صورة المكان الذي لازالت تفوح منه رائحة الموت، بقايا من أشلاء الصغيرات، وبقايا أثوابهن المُمزقة الباهتة ملطخة بالدم والطين، اختلطت بحبات الكمأ المبعثرة في كل مكان.

أدرك العجوز المذهول تفاصيل المأساة وكل ما جرى، ثم بعيون دامعة أحنى على الأرض، ليلتقط منها سواراً صغيراً منسوجاً من بقايا خيوط الصوف، مُزِين ببضعة خرزات ملونة، كانت قد أودعت فيه صاحبتة أمنية صغيرة، عسى أن يحققها لها "ثُموز" مع حلول العام الجديد.

## ضحكة لامينا

بثباتٍ شق المركب المصنوع من حزم القصب عباب البحر، رغم شدة الريح وقسوتها وتلاطم الأمواج فيما بينها، تارة تعلقو لتغدو كأنها جبل أشم رافعة إياه برجاله السبعة، كما لو أنها تريد قذفه بعيداً حيث النجوم وبريقها الأزلي، لتتخفف به تارة أخرى متحولة الى هوةٍ سحيقة كأنها تهمّ بابتلاعه، ولم يكن ليضاهي غضبة الطبيعة هذه، سوى قوة وهمة تلك السواعد السمر الصلبة التي تحرك مجاديف المركب. (أقوى يا رجال "سومر"، أضربوا بمجاديفكم أقوى، دعوا البحر يرى قسوة سواعدكم وشدة بأسكم، دعوه يرى أي رجال هم أولئك الذين تربوا تحت ظلال النخيل، وارتشفوا مياه الفرات مع حليب أمهاتهم)، هكذا صاح "أوندالو" بينما هو ممسكاً الدفة، ببهارته الأشداء المنهمكين في التجديف، غير مُبالين برشقات الماء العنيفة المتطايرة التي أنقعت أجسادهم وسطح المركب، كان كل همهم أن تمر هذه العاصفة الهوجاء كسباقاتها اللواتي تجرّان على امتحان قوة أرائدتهن.

وكما اعتاد من خبر أهوال البحور وفك احجية أمزجتها المتقلبة، ومثلما بدأت دون سابق انذار، ما لبثت العاصفة أن بددتها أنفاس البحر شيئاً فشيئاً، كأنها لم تكن سوى زفرة غضب على من امتطوا عليائه متحدين ثورته، ليعود منكسراً خائباً أمام قوة صبرهم وعزيمتهم. تهادى المركب على صفحة المياه الزرقاء الساكنة، التي أعلنت أن البحر قد حان وقت قبيلوته، ليأخذ معها قسطاً من الراحة والخمول، فهذا من روع أمواجه وعواصفه قبل ان يعاود ممارسة هوايته المفضلة بمشاكسة راكميه، ولم يكن ليكسر هذا الهدوء، سوى صيحات النوارس البيضاء المحلقة حول المركب، مستغلة ذلك الصفو لتأخذ باستعراض مهارتها في الطيران، كأنها تحوم بحثاً عن وطن نسيت صورته في مخيلتها، فصارت تبحث عنه بين الرياح وبين البحار علّها تعثر عليه، بعد أن غدا عنواناً للتائهيين وحلماً للضائعين الذين نسوا ملامح أروضهم.

أستغل الرجال هدوء البحر ليريحوا اجسادهم، ويزيلوا بعض ما لحق بها من تعب وارهاق، قبل أن يعاودوا التجديف مجدداً في صراعهم الذي بدا من دون نهاية، مع البحر الذي أفقدهم طريق الوطن، لتصبح أمواجه ملاذهم ومنفاهم، منذ أن غدوا يبحرون في دوامة مغلقة من الضياع، كلما سلخوا طريقاً جديداً أملين بالخلاص والنجاة، لم يجدوا أنفسهم فيما بعد إلا وهم يرجعون لبدائيتهم المحيرة، بعد أن حُجبت عنهم العتمة بغفلة من غرائب ونقائض زمن غادر قناديل الكون، ليفقدوا معها خيوطه الواهية التي تدلهم الى شيطان "أريدو".

أستل "لوبوماش" نايه العتيق الذي لا يفارق نطاقه، ليبدأ عزفه الشجي الحزين الذي تلاعب بخيال رفاقه، مسافراً بهم الى عالم ساحر جميل مُسكناً أنينه إياهم، مثيراً لواعج قلوبهم الباكية بفراق الأحبة والوطن، وكان تلك القصب النحيلة المجلوبة من أهوار "سومر"، قد احتضنت كل تلك الشجون، فتحدثت عما يجول بين ثنايا صدورهم العامرة بالحنين، لم تكن تلك أنغام في حقيقتها بل آهات بثّتها روحه المتعبة التواقّة لرؤيا "أريدو"، وشوقه الأبدي لخط شاطئها الساحر.. (أيه يا "أريدو"!)، أما زلت تذكرين أبنائك؟

ألا يزال في قلبك العامر بالخير مكان لهم؟ حتى متى تظلين كحال هذا الناي، لا تعرفين سوى الأنين؟).  
ثم أكمل بصوت خافت مخاطباً رفاقه.. (هل ما زلتم يا رفاق تذكرون شاطئ مدينتنا؟).

وكان ذلك التساؤل كان بالانتظار، ليثير لوعة "أنشوسو" الشاعر المُرَهف بأشعاره الهائمة بين الحب ومعاناة الغربية، الذي اعتاد تهدئة هموم رفاقه، فيعقب على أحاديثهم بمقطوعات من شعره المتخم بالألم والذكريات، لتصاحب ما يجود به ناي صاحبه "لوبوماش" من أنين، بتناغم فطري يسيل عذوبة وشجن..

أمواج بلا عدد تضرب جدار السفينة

زوابع الظلام سرقتنا من صخب المدينة

أيامك يا "أريدو" تمضي كزبد البحر

حين تلامس بهدوء الارض الحزينة

رد "أتوريا" وهو ممدد على ظهره، واضعاً راحتيه تحت رأسه جاعلاً منهما وسادة طرية، ملقياً بصره الى السماء، كما اعتاد أن يفعل في وقت راحته حينما كان يعمل في حقول "سومر" .. (لقد ضلّت الشمس طريقها الى مدينتنا، فأصبحت مرافئها ظلماء لا يمكن الاسترشاد إليها، وأيام أهلها غدت مالحةً أشد صبراً من مياه البحر، بعد أن أصاب القحط والسبخ أرضها ليهجروها رغم عشقهم لها)، ثم اردف.. (هل تصدقون يا رفاق، كلما مرّ شيطان نسيان "أريدو" على ذاكرتي، يدغدغ لساني مذاق حلاوة ليس له مثيل، ليعيد لتلك الذاكرة المتعبة صوابها، لا بد أنها حلاوة تمر نخلات جدي التي زرعتها أمام داره، كنت صغيراً لكنني لا زلت أذكر جيداً كيف زرع فسانلها بيديه الحانيتين وكيف سقاها، كأنه كان يرويها بدموعه وليس من مياه الفرات، لتغدو تلك النخلات مع مرور الأيام علامة يُستدل بها بيته، حتى أصبح الناس يسموه بيت النخيل. يا له من حنون! كان يقول.. النخلة أحدى بركات الآلهة، وحلاوة تمرها من طيبة هذه الأرض وعذوبة مياهها. لقد صدق جدي كل الصدق، فعلاً أن بحور الدنيا وأراضيها لا تساوي جرة نبيذ معتق من ذلك التمر).

صرخات جراحنا بين البحور تبعثرت

أهاتنا كبرت وأرواحنا بالصبر تصدعت

رغم قسوة ضحكات وازدراء الشامتين

لكن ضمائرنا العامرة بالأمل أبداً ما تغيرت

ومن مكمته في مؤخرة المركب مُمسكاً بدفته، رد "أوندالو" على رفاقه بهدوء.. (حتماً أنها ستظل تذكرنا، مؤكداً أنها ستذكرنا. هل سمعتم عن أم نسيت وتكررت لأبنائها؟). رغم امتهانه ركوب البحار إلا أنه كان يخاف ويكره السفر، في كل إبحار له كان صدره يعتصر، مراوداً إياه هاجساً غريباً خفي بأن سفرته هذه ستكون الأخيرة، ولن يكون بعدها من رجوع الى معشوقته "أريدو"، تولد لديه هذا الاحساس منذ أن غادرهم أباه يوماً دون أن يعود، لازل يذكر جثته الضخمة التي كانت مع عشقه لـ"سومر" كل ما ورثه عنه، لم يعرف حينها الى أين غادرهم أو أين أتجه بسفره، كل ما عرفه آنذاك أنه مسافر من أجل "سومر"، ولأجل شعبها. بهدوء مرر راحته على صدره العاري مُستشعراً دفء حنين والده، حين



أحتضنه ذلك اليوم لدى وداعه الاخير له، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة جميلة لا تتناسب مع ضخامته، لم يقل حينها كلمة واحدة لكنه ظل محققاً في وجهه طويلاً قبل أن يفارقه، ليقرأ في عينيه الحادثتين اللامعتين تلك الوصية الخالدة التي كان يود قولها دون أن ينطق بكلماتها، بأن يظل عاشقاً وقيماً لبلاده الخيرة، وأن لا ينساها حتى وأن لاقاه يوماً ألم وجفاء وجحود منها.. (خسأت الغربية أن توهمت يوماً بأنها تستطيع أن تنسينا "سومر"! ستظل بلادنا رغم ما أصابها وأصابنا أقرب إلينا من جلودنا).

هو نفسه ثوبي القديم المرّقع ما غيّره النسيان

لا زال يكسوا عظام من ضيعه غدر الزمان

بدا أسماً باهتة لكنه ظل يحتضن صبراً وصمود

وخيوطه غدت أوتاراً تتغنى بحلم يعيشه الانسان

(نراك شاردأ بفكرك يا "سوموكي"، لم يفارقك داء السرحان حتى وأنت تصارع الموج بمجدافك، من ذا الذي سرق فكرك وسلبك عقلك، حتى جعل منك هائماً تعيش عوالم أخرى؟)، قال "أتوريا" مخاطباً رفيقه الشارد بهمّ لا يعلم به سوى قلبه المتعب، ليرد بصوت مبوح كاره للكلام.. (لا بد أن زوجتي الحبيبة قد ولدت الان، ولدت تلك الطفلة الجميلة التي تمنيناها، طفلة نرى فيها فرحة الحياة التي فارقت بلادنا، وضاعت بين دهماء هذا الزمن اللعين، كنا قد اتفقنا أن نسميها "لامينا"، تخيلناها كملائكة السماء، جبينها مضيء كلمعان القمر، وعيونها سوداء كليل ساكن يلهم قلوب العاشقين، وضحكتها نسمة عذبة تنعش حياتنا وتغسلها من الهموم، لقد ظللنا نحلم بتلك الضحكة الجميلة وهي تطرب آذاننا، حتى جعلنا صدى ترددها علامة القرب من "أريديو" وأرضها الحزينة).

هنيئاً لك يا أبنتي فراقي ودنيا المتعبين

سامحيني أن بعدت عنك أسوة بالحالمين

دمعي يناجي أمّياتي أن تجمعنا الاقدار

فالربيع لا بد أن يرطب يوماً حياة البائسين

(أن لك أملاً تركته في "أريديو" يا "سوموكي"، ربما طفلتك الموعودة تشعرك بأيام قادمة أجمل، لكن ماذا بشأن من أضاع نشوة الأمل وفقد كرامة العيش)، من مكانهما في مقدمة المركب، رد كلٌّ من "أنوزير" وشقيقه التوأم "أونري"، الاخوان الحالمان بالسفر منذ صباهما، سعياً لعالم آخر جديد خالٍ من الموت والحروب، متنقلين بترحالهم من مكان لآخر من مشرق الارض لمغربها، بحثاً عن أرض يشعران معها بنسمة الأمان، ويشمّان فيها شيئاً من عبق الانسانية التي افتقداها في "أريديو"، لتنتهي بهما الرحلة بفشل سعيهما للوصول لذلك الفردوس المفقود، الذي لا يوجد سوى في مخيلة السراب، عندها فقط قررا الرجوع الى الوطن حتى وأن كان مجرد خرائب متهالكة، كي يبكي على أطلالها المقدسة المخضبة بالحنين، فكان الضياع وسط الامواج مصيرهما.. (لا يمكن أن تدوم الظلمة الى الأبد، أن الأفلاك دائمة الدوران، ومن المؤكد أن فجرأ جديداً لامع الضياء سينير أيامنا ليعتق فينا الحياة مرة أخرى).

حتى متى نبقى ضائعين بين البحور الهائمة؟

أنظّل نحلّم بوطنٍ مرسومٍ على الوجوه الباسمة؟

أنقضي أيامنا باحثين عن معنى الانعتاق؟

أنظّل نترقب فجراً جديداً ينير أيامنا القادمة؟

ما أن أنتهى "أنشوسو" من ترديد مقاطع أشعاره التي كوّت قلوب رفاقه، حتى أخذت أمواج البحر تعلو مجدداً، منذرة الرجال بأن وقت راحتهم قد أنتهى، وأنهم على موعد مع نزال جديد ضد غريمهم اللدود، حتى النوارس المُحلقة خضعت لتهديد الطبيعة ففضلت أن تطير بعيداً، تاركة ساحة الصراع لمن هم أهل لها، لينادي عندها "أوندالو" برفاقه.. (هيا يا رفاق، لم تعرف سواعدنا يوماً الراحة ولا أجسادنا الخدر، لقد كتب لنا ظلم الأقدار أن نظل نبحت عن وطننا المفقود بين دروب البحار الغاضبة، سنأخذ طريقاً آخر لعل فيه النجاة من ضياعنا). أخذ كل مكانه المعتاد خلف مجدافه، لتواصل تلك المجاديف ضرباتها بنفس الرتابة والنسق، بلا أدنى أمل في الخلاص، بتوجيه وتحفيز من ربانهم "أوندالو" الذي كان كقائد فرقة موسيقية يدير وينسق العزف على آلات أعضائها.

فجأة توقف "سوموكي" عن التجديف دون الآخرين، موجهاً أذنه باتجاه الأفق، كأنه يريد أستراق السمع لصوت يتردد بهدوء قادم من هناك، ثم نهض بسرعة رافعاً يده للأعلى كي يتوقف رفاقه، صرخ بعلو صوته المبحوح "" (أنها "لامينا"، أنصتوا معي، أني اسمع ضحكاتها تأتي من عند الأفق). سكون مُطبق خيم على المركب، الجميع ينصت، الكل يتأمل، ينتظر حلم العودة، همهمات الرجال تتعالى شيئاً فشيئاً، صاح "لوباماش" .. (نعم أنها تأتي من هناك، أني أسمعها بوضوح)، أعقبه "أتوريا" والآخرين واحداً تلو الآخر.. (نعم، أنها "لامينا"، ما أرق وأجمل تلك الضحكة، أخيراً لاحت نسيمات الوطن). توالى صيحات الفرح الممتزجة بضحكات النصر، دمعات الفرح بللت وجوه رفاق الغربة والسفر البعيد. صاح "أوندالو" بالجميع.. (هلموا الى مجاديفكم يا رفقة الدرب، لقد اقتربت ساعة اللقاء، أن لنا وطناً ينتظر)، (أقوى، أقوى، أقوى). ضربت سواعد الرجال المفتولة القوية بمجاديفها الثقيلة مياه البحر المبهورة ببأسهم، ليسيروا بمركبهم نحو الأفق، حيث الوطن المنشود، حيث تصدح "لامينا" هناك بضحكاتها الساحرة.

## عَيْنِ الْآلِهَةِ

مع خروج المُتعبدين من باب صومعة المعبد، تتبعت عيناه خطوات أقدامهم، بعضها متسارعة لم يصدّق أصحابها انتهاء موعظة الكاهن، ليتركوا مسرعين المكان وما لفه من اكتئاب وضيق، بعد أن قضوا ساعتين بالاستماع الى هراء فارغ يصدّع الرؤوس، لا ينطلي سوى على الحَمقى والموهمين، ومعها تهادت خطوات آخر سار أصحابها مُترنحين مُنتشيين بمتعة خدرهم، لاتزال مزيلتهم سكرى بتلك الموعظة وما تضمنته من وعود قطعها لهم الآلهة، نقلتها اليهم أفواه من برع بلغة الرياء والدجل، للهائمين بحبها، المودعين مصائرهم لتقلبات أمزجتها، من حياة رغيدة سعيدة ستَهَبها لهم، وهناء وخير عميم، سيطالهم فيما لو اطاعوا أوامرهم وساروا وفق إرادتها، وملأوا أجوافها بما غلى ونذر من القرابين، لتتقاطع خطوات من كانوا محشورين داخل ذلك القمقم، مع أخريات تتبعتها عيناه كذلك، كان ملؤها الحيوية، لا يضاهيها سوى نشاط كلاب الصيد، حين تعدو لاهثة وراء طريدتها وقد مدت السننتها طويلاً. رجال من مختلف الأشكال، قصار، طوال، ممتلئين كأكياس التبن، نحيلين كأعواد القصب، وبشتى الأعمار، شباب، كهول، بل وحتى شيوخ بلحى بيضاء، امتلأت صدورهم نشوة بما هم قاصدين اليه، ليدخلوا بسرعة باباً لبناء آخر الى الجانب الاخر من مجلسه، طليّ بلون أحمر وزين جانبيه برسوم محورة تمثل رموزاً للجنس وممارساته، مُشيراً لوظيفته وهويته ماخوراً لتجارة البغاء، أصطف عنده عدد من الفتيات بملابس فاضحة، والى جوارهن عدد مماثل من المُخنثين يمازهن وينافسهن في رزقهن المنتظر، وضعوا على وجوههم واجسادهم وشعورهم علامات خاصة تشير لهويتهم. كانت الحركة عند هذا الباب كحال باب المعبد لا تكاد تتوقف أو تنقطع بين دخول وخروج، نساء ورجال، كلٌ يبغى أطفاء حرارة رغباته، جموع داخلة لاتزال بحيويتها، وأخرى خارجة تترنح استنزفت كل ما لديها من طاقة ومال، أحمرت وجوهها من تأثير تعب افراغ الغرائز واحتساء النبيذ.

هكذا هو، منذ أن عرفته المدينة قبل دهر غير محسوبة أيامه، بجسمه النحيل، وملابسه الباهتة الرثة التي لم يعرف لها شكل أو لون، وشعره الأشيب الأشعث، لم يتغير أو يغيّر مكانه هذا، حين أتخذ من جذع نخيلة محروق مليء بالشقوق غدا مستعمرة آمنة لحشرة الأرضة مستقراً لجلسته، واضعاً معبد التوبة حيث خدر أو هام الآلهة الى يمينه، وماخور المَلذات حيث تُقبر الشهوات الى يساره، لم تأت أي من أعضاء جسده بحركة توحى بالحياة، فقط عيناه الغامضتان اللتان لم يغمض جفنيهما قط كانتا من تتحركان بلا توقف، تنتقلان بهاذين الاتجاهين دون آخر، ما تفوه يوماً بكلمة أو أتى بحركة تُشعر من ينظر اليه أنه على قيد الحياة، كما لم يأبه بحشرة الأرضة وهي تسري على لحيته البيضاء الطويلة التي تصل خصره، ولم يره أحد يتناول طعاماً أو يتجرع شربة ماء، أو حتى يختلي بأحد الزوايا كي يقضي حاجته، ولم يعر اهتماماً لقيض الصيف وشمسه اللاهية، أو قرّ الشتاء وزمهريره وأمطاره، ولولا حركة عينيه لكان أقرب أن يكون تمثالاً منه الى بني الأنسان، لا أحد يعرف من اين جاء أو اين يقضي ليلته حتى صياح الديك وبيان أولى خيوط الغيش، حين يظهر فجأة جالساً في مكانه الأثير هذا، كأنه بُعث من عوالم الخيال.

حاول بعض الفضوليين مشاكسته، عن طريق اضحاكه واستثارة غرائزه وحتى ضربه لكن دون جدوى، إذا الصخر يتحرك كان هو كذلك، كما أراد آخرون الجلوس بجانبه طوال الليل ليتبعوه حيث يذهب ليقضي ليلته، لكن حتى هذه المحاولة فشلت فشل الطوفان في القضاء على بني البشر، إذ كان من العناد أقوى ومن الثبات أشد، حيث ظل جالساً طوال الليل متحدياً غايتهم، مصيباً باليأس كل من حاول معرفة شيئاً عنه، ليغدوا لغزاً وسراً استعصى على الجميع فك طلاسمه، فلا هو بخيال يوحى ولا هو بحقيقة تُلمس، حتى أصبح مع جريان نهر الزمن، أحد شواهد المدينة وعلاماتها المألوفة، وليتخذ الناس من مكان جلسته مثابة للتلاقي، ودلالة لتحديد الاتجاهات وتثبيت العناوين. ومع تتابع الحكايات والأساطير، صورته العقليات البلهاء، بأنه رقيب أرسلته الآلهة لرصد حركتهم وواقع حياتهم ونمط معيشتهم، وفيما إذا كان يسيرون وفق رغبتهم، فأخذوا يطلقون عليه أسم "عين الآلهة".

البغايا جعلن منه مصدر خير وبركة وتميمة رزق، حيث ازدهرت بسبب جلسته هذه تجارتهن وتضاعف زبائنهن، فأصبحن يتبركن به، ويمسحن أيديهن ووجوههن بلحيته كل صباح، يلتمسن منه ديمومة الحال وزيادة الرفاه، حتى أسمين ماخورهن باسمه "ماخور عين الآلهة"، بعد أن غدا رمزاً للخصب، وراعياً ومحفزاً للرجال والنساء على حدٍ سواء لتعاطي الجنس، لينسوا مع أطفاء نار رغباتهم قسوة مظلوميتهم، وما رمت الدنيا عليهم من هموم ومتاعب. والكهنة بذات الوقت أخذوا منه مُلهماً للإيمان والورع ومخافة الآلهة، ليسموا معبدهم باسمه كذلك "معبد عين الآلهة"، فأصبح الكهنة لا يبدئون طقوسهم عند الفجر، إلا بعد أن يدوروا حوله سبعة مرات، يبخرون مجلسه ويرشون على رأسه العطر المقدس، كيف لا وهو الذي مع وجوده ازدادت أعداد المتعبدين وزادت معهم قرايبنهم وعطاياهم، لتنتفخ بفضلهم كروشهم وجيوبهم، ليغدوا بالنسبة لهم كالآلهة الذي لا يستقيم حال البلاد والعباد إلا برضاها وحلول بركتها، ليصبح بحق، قباناً وميزاناً لحركة مصائر أهل المدينة، ومزاراً يتبرك به كل من يمر بمجلسه ذهاباً وإياباً، ومقصداً لكل ذي طالب حاجة وصاحب محنة وسؤال.

فالتاجر الذي يبغي زيادة أرباحه أو تعويض خسائره أو بيع بضاعة فاسدة في حانوته، يذهب إليه واضاعاً الى جانبه جرة مليئة ببول شاة عوراء طالباً منه تسهيل الأمر، فهو من لديه مفاتيح الحلال والحرام. ومن أغشته الدنيا فامتدت يده الى أرزاق الآخرين، كان يكوي جسده بالنار أمامه كي يتقبل توبته. ومن كان منافقاً يتوق للتقرب من القصر وحاشيته، كان يدعك كتفه بكتفه، عسى أن ينال بركته ويُهد له طريق الوصول لمأربه. ومن كانت عاقراً حرمتها نقمة الحياة من معنى الأمومة تقصده، كي تذبح عند مجلسه ديكاً برياً كبيراً بريش أسود ورقبة مسلوخة، مسيلة دمه عند قدميه الحافيتين، علّ عقدها تُفك وتلحق بركب النسوة الخبالي. ومن سلب تتابع السنين شبابها دون أن تدخل بيت الزوجية، كانت تضع على كتفه حمامة بيضاء مقصوصة الذيل، كي يعينها لتحظى بزواج يشاركها نكد الحياة. ومن ارتكبت خطيئة وعاشرت رجلاً غير زوجها، تعلق برقبته طوقاً يانعاً مزهراً، ثم تبوح بسرّها في أذنه كي تُغتفر خطيئتها، فكل بني البشر خطاؤون، ولم يمتلك العصمة سوى الآلهة وحدها. ليكون بحق بئر الأسرار، الذي حوى كل ما أعترت قلوب أهل المدينة، وما خزنت من آثام وآلام وغايات ونوايا.

ما أن بدأت الحياة تدب في المدينة مع أولى خيوط الفجر لأحد أيام الخريف الغائمة، حتى علت همهمات عالية بين الناس، حدث فاجأ الجميع ولم يكن أحد يحتسب وقوعه أو حدوثه، أختفى "عين الآلهة"! تجمع الكهنة والكاهنات، والبغايا والقوادون، ومن كان قاصداً المعبد والماخور، أو ساع لمأرب أخرى عند جذع النخيلة المحروق، لا يقوون على الكلام بعد ان عقدت المفاجأة ألسنتهم، كان المكان خالٍ من ذاك

الذي ملأ الدنيا وشغل فكر الناس أيام وأيام، وحدها حشرة الأرضة كانت تدب بهدوء على الجذع، كما كانت واعتادت أن تحيا بين شقوقه بأمان، بعد ان اتخذت منه موطناً مريحاً، ومن جليسه جاراً وحارساً ورفيق حياة. أخيراً انتهت الاسطورة، جالب الخير ومانح البركة، وكاتم أسرار الظالمين والمظلومين لم يعد موجوداً، حالة من الذهول والحيرة أصابت سكان المدينة أفقدتهم الصواب، ليشغلهم هاجس مستقبلهم عن أي شيء، فهل سيكون القحط وسوء الطالع هو صورة حياتهم القادمة، بعد أن غاب من كان له الفضل في رخاء دنياهم وبُسر حياتهم؟ وهل سيختل مع ذلك الغياب توازنهم وتحديد مساراتهم، بعد ان اختفت علامة دلالتهم فيفقدوا معها التمييز بين اليسار واليمين؟ (حلّت اللعنة علينا وحق الآلهة! لا بد أن كارثة في الطريق لنا)، صاحت إحدى البغايا وهي تندب، بعد أن أنساها الحدث حتى من ارتداء ثيابها مكتفية بغطاء رأسها، ليجيبها كاهن لف لحيته الطويلة حول رقبته، ضارباً رأسه بكلتا يديه.. (لم يعد هناك من قرابين، ستجوع الآلهة وسنجوع معها، ويل لنا من هذه المصيبة!)، ليواسيه أحد القوادين، محاولاً تخفيف الصدمة عليه.. (مصائبنا سواء معكم! ماذا سنفعل بعد أن غاب مُلهم الخصب؟ الآلهة وحدها تعلم بأي حال ستكون فحولة الرجال وأنوثة الفتيات، لتكن الآلهة في عونكم وعوننا).

علا اللغظ بين جمع المتجمهرين، كلٌ يدلوه بلدوه، محاولاً اعطاء تفسيراً مقنعاً لهذا الغياب الذي لم يكن على البال، هل كان "عين الآلهة" رقيباً أرسلته الآلهة حقاً أدى مهمة ثم رحل؟ أم أنه لم يكن سوى مجرد رجل أبله، خُدع الجميع به وتوهموا بحقيقته طيلة السنين الماضية، ليأتي أجله ويُلاقى مصير الموت أسوة ببني البشر؟ حمت النقاشات وزادت حدتها، وتبادلت الأفكار وتداخلت وتعارضت. لكن رغم اختلاف الآراء وتناقضاتها، إلا أنها طرحت خوف وقلق الجميع من كهنة وسدنة وقوادين وبغايا، على مصير معبدهم وماخورهم، وما سيصيبهما من افلاس، بعد غياب سبب رخائهم وازدهار نعمتهم، حتى وأن صدق ما قيل وما تم تداوله، بشأن أنه لم يكن سوى اذكوبة انطلت عليهم دهرأ، فالنتيجة واحدة مؤكدة، كساد مؤكد وخراب واضحة معالمه، سوف يصيب الجانبين على حدٍ سواء، بسبب توقف الرواد الذين كانوا يتسربون للمعبد والماخور، من أجل دلالة "عين الآلهة" ورمزية جلسته.

في خضم ذلك الجو المشحون المُتلبد بالقلق، وقف الى الخلف من الجميع، كاهن حديث العهد في خدمة المعبد، تبقى في تجويف عقله مكان صغير لم يصل اليه شيء من فتاوي الكهنة ودجلهم، كان في نقاش هادئ مع بغي صغيرة لا تزال في أولى خطوات مهنتها، اعتبرتها المترسات من البغايا مجرد عذراء في طور التمرن. ما أن اتما نقاشهما حتى أعلننا نتيجته للملأ.. رؤية وردت لهما سوية، وبذات الوقت من الليلة الماضية، حيث الكاهن اليافع يبخر المعبد، والبغي المراهقة بين أحضان رزق دسم. شاهد الكاهن في رؤياه.. أن الآلهة اجتمعت وقررت مكافأة كل من عمل وتعب، وبذل جهداً في خدمة المعبد، من كهنة وكاهنات وخدم، فأوعزت لـ"عين الآلهة"، أن يضعهم في سلة كبيرة وينقلهم الى الماخور، كي يعملوا قوادين وبغايا وخدماً لطالبي اللذات، تقديراً لكل ما بذلوه في خدمتها، من تقوى تعبدهم في حني الظهور وفردها، وشدة ورعهم وصبرهم وخضوعهم لإرادتها، وكثرة ماجنوه من المتعبدین المخدوعين من قرابين أتخمت بطون الآلهة، لتجعلهم كما تمتت عيونهم دوماً حيث رزق البغاء تحت سقف الماخور. ونفس الرؤيا ما شاهدته البغي.. أذ قدرت الآلهة عند اجتماعها كفاح البغايا ونضال القوادين، ومعاناة خدم الماخور على مرّ الزمن، وصمودهم بدرج شقائهم الصعب، في أطفاء جمر شهوات رجال ونساء المدينة دون حيادهم عن رسالتهم، رغم حسراتهم وآهاتهم عند رؤية كروش الكهنة المنتفخة وجيوبهم المليئة بالفضة، وسلاسل الذهب التي تطوق رقاب الكاهنات، فقررت مكافأتهن فأمرت "عين الآلهة"، أن يضعهم في شبكة صيد واسعة، وينقلهم الى المعبد لينالوا شرف خدمتها هناك تحت صومعته.

زفرات قوية خرجت من صدور المتجمعين، من هذا الجانب وذلك، ترافقها أسارير وابتسامات ارتسمت على وجوههم، رغم أمتعاض زائف هنا وانزعاج كاذب هناك، صدر من البعض في كلا الفريقين. أخيراً بان خيطا الحقيقة أسودها من أبيضها، وصدرت فتوى الآلهة التي أزالته الحيرة عن الجميع، وليعرف أخيراً سبب اختفاء "عين الآلهة"، إذ أمرته الآلهة أن ينفذ إرادتها التي لا تقبل الجدل أو النقاش، لتتصف الجميع عن ماضي أيامهم، وتعطي كل ذي حق حقه، مُعيدة بذلك التوازن بين الجانبين في توزيع الأرزاق والمهام ولعب أدوار الحياة، لينتهي كما بدأ الأشكال ويموت التساؤل، حينما تسود عدالة الآلهة وحكمتها التي لا يعرف الانسان مدى عمقها وغورها. تبادل الفريقان التهاني بعد أن اتفقوا على تبادل الادوار والمهام لأجل غير محدد، وحتى تقرر الآلهة أمراً آخر كان مقضياً.

مع صبيحة اليوم التالي تبدلت الوجوه في كلا الجانبين، بغايا الأمس بمعية قواديمهم ارتدوا ثياب الكهنة، وشمروا عن سواعدهم منذ الفجر لإداء واجبات خدمة المعبد، نكاء البغايا ودهانهم كان واضحاً وجلياً في ذلك لجلب المزيد من المتعبدين، أخذن يبخرن المعبد ببخور ذو عبقٍ خاص، كان يتبخر به رواد الماخور بعد نفاذ شهواتهم، ويعطرن صوامع الصلوات بعطرٍ ذو أريج أخذ مثير للغرائز، كان يُستعمل قبل يوم في تعطير غرف البغاء، ثم بسرعة أخذت كاهنات اليوم وبغيا الامس، يعزفن على القيثارات الحان الايمان والورع، ترافقها تراتيل خاشعة تصدح بصوت رخيم جميل، تقطر محبة بالآلهة وتقوى طاعتها.

في الجانب الآخر أبدل كبار الكهنة ثيابهم بأخرى مزركشة، بعد أن أصبحوا قوادين يقفون عند باب الماخور كالشحاذين، يمدون أكفهم المصبوغة بحناء المعبد، ليقبضوا شقيقات الفضة من زبائن الجنس وطالبي اللذة، ثم يمسحونها بلحاهم بعد كل شيقل فضة يدخل جيبيهم، وفي الداخل توزعت كاهنات الأمس بين غرف البغاء متجردات من ثيابهن، بعد أن وضعن سعفتين على جانبي باب كل منها، وعلقن على جدرانها أغصان الزيتون، وفي أركانها وضعن حزم السنابل، وصبغن وجوههن بالوان الأغراء الصارخة، وتعطرن بعطر المعبد الذي باركته الآلهة، ليُشعر الناس بطيب عالمها وقديسية دربها، فيعيشون مع بركة الآلهة حياة البغاء بكل تفاصيلها بما حوته من متعة واسترخاء، أما صغار الكهنة فكان لهم مكاناً أيضاً، فاليافعين وذوي الوجوه الحسنه منهم غدوا مخنثين اصطفوا الى جوار رفيقاتهم من كاهنات الامس، ومن كان دون ذلك فقد أنيطت بهم مهمة تنظيف غرف الجنس، وتحضير مستلزمات، وايصال الزبائن لمن يختاروه من البغايا والمخنثين. ومن جديد اخذت القرايين وشقيقات الفضة والذهب تهّل كما كانت، لثملاً خزائن المعبد والماخور على حدٍ سواء، وجيوب من يعمل فيهما، بل تضاعفت وزادت، فرواد المعبد ومن كان يقصد التعبد فيه، ظلت ارواحهم مشدودة بكاهنات الامس وما كنّ يعضن به من حكم الآلهة، لتسوقهم اقدامهم نحو الماخور ورفيقات الأمس، حيث يتعاطون بغاءً بنكهة التعبد، وزبائن الماخور وفق نفس الحال شدّهم الشوق لمن كنّ يطفان لذاتهم، لتتنساق اقدامهم ورائهن نحو المعبد، حيث مراح عملهن الجديد، ليكون تعبدهم بطعم البغاء.

ترسخ واقع الحال الجديد والكل راضٍ بما قدرت له الآلهة، فهي التي تقرر المصائر وترسم مسيرة حياة البشر، وليس هناك من راد لإرادتها، فهي ترفع من تريد وتذل من تريد، وتوزع الاعمال ومهام الحياة كيفما ترتأي وتشاء وتريد، فهي تجعل من العذراء بغياً ومن اللعوب كاهنة، وهي كذلك من تصطفي الملك من بين الناس كي يخدم مصالحها، حتى وأن كان قواداً أو لصاً أو قاتلاً، ولا يجوز لأحد الرفض والمعارضة، وهي من تجعل البائس مطأطأ الرأس على الدوام، لا يملك النظر للأعلى وإلا كُسرت

رقيبته، وهي من تفرض على الكتبة والشعراء، ومن امتلكوا ناصية العلم وأدركوا معالم الحقيقة، أن يتصوروا جوعاً ويسكنوا الخرائب، يعانون الأمرين في دنياهم، وما على البشر في كل ذلك، سوى الطاعة والامتثال راضين قنوعين، فالقناعة أغلى الكنوز وأثمنها، وفي كل الأحوال طالما جيوب المنتفعين ممتلئة، وجرايات القرايين تسير دون توقف الى بطون الآلهة الشرهة، والمتعبدين السكارى بهيام الآلهة قد زهدوا بالحياة الدنيا ومباهجها ولم يعودوا ينظرون لأبعد من أنوفهم، والخطوات المسعورة اللاهثة بالسعي وراء الجنس، لازالت على حالها دون توقف، فكل شيء على ما يرام.

شتاء بعد شتاء أعقبتها أشتية، نُسي "عين الآلهة" وأصبح جزءاً من الماضي، فكما اعتادت المدينة وجوده فقد تعايشت مع غيابه، بعد أن اقتنع كل من فيها أنه لم يكن سوى مبعوثاً من قبل الآلهة، راقب الحال رداً من الزمن، ثم حمل فتواها وحكمها الذي سرى على الجميع. لكن المفاجأة تكررت مع إحدى صباحات الربيع، حين ظهر مرة أخرى بصمته المطبق وهيئته الغريبة، وجموده الذي ينافس جمود التماثيل، وبجلسته المعتادة على جذع النخيلة المحروق المليء بحشرة الأرضة، فقط عيناه كانتا من تتحركان كما تعودتا من دون توقف، ذات اليمين وذات اليسار. (لا بد أنها فتوى جديدة من قبل الآلهة جاء ليبلغها) ، قالها الجميع على الفور، بعد أن فهموا سر الغياب ولعبة الظهور، أذاً لا بد أن يعود حال المعبد والماخور الى ما كان عليه، فالرسالة واضحة وأمر الآلهة واجب التنفيذ، وهكذا كان، ليغيب "عين الآلهة" بعد تنفيذ الإرادة الإلهية، ثم ليظهر مرة أخرى بعد حين من الزمن، ثم ليغيب ويظهر مرات ومرات أخر.

ومع تكرار الغياب والظهور، نظمت المدينة طبيعة معيشتها ونسق حياتها، فكانت الوجوه تتغير والأدوار تتبدل، لكن المعبد ظل على حاله معبداً، والماخور حافظ على هويته كما كان قد عُرف، وما بينهما ليس سوى جذع نخيلة محروق، اتخذت حشرة الأرضة منه موطناً أثيراً لها. ورغم أن السر قد جُليّ وبانت حقيقته وفق ما فسّرتة المصالح والأهواء وطمع الجيوب، إلا أن أهل المدينة ظلت دواخلهم تتساءل دون جرأة على البوح بما يعتمر صدورهم.. هل كان "عين الآلهة" حقاً رقيب الآلهة ومبعوثها؟ أم أنه لم يكن سوى أنسان فاقد العقل مسلوب الإرادة، مَشدوهاً بحركة البشر، يعيش وفق غرائزه التي تكرمت الطبيعة بها عليه؟ لئساق العقول البليدة سوق البهائم، وفق ازدواجية غيابه وظهوره، وحركة عينيه الغامضتين، وهما تنتقلان دون توقف نحو اليمين ونحو اليسار، حيث تقوى البغاء ودعارة التعبد.





## عند أسوار بابل

راعه منظر بوابة المدينة وقد تساقطت أجزاء كبيرة منها، حتى غدت مجرد كتلاً شوهاء من الطابوق، بلا مظهر أو معالم يمكن أن توصف به، منحوتات عشتار التي نُصبت عندها بابتسامتها الساحرة الجميلة وأيديها الممدودة ترحيباً بضيوف بابل وزائريها، أزيلت جميعها ولم يتبق منها سوى قواعدها، وبقايا قطع صغيرة منها متناثرة هنا وهناك يصعب تمييزها، لم يعد هناك جنود وحراس ضخام بقامات ممشوقة وسيوف ماضية يسيرون أمامها جيئةً وذهاباً، مانحين المدينة كبريائها، راسمين صورة مهيبة لسلطة المدينة وقوة قانونها، اختفى كل ذلك، ليغدو مشهداً مجرد صورة مُبهمة من تاريخ زائل، وبقايا ماضٍ مؤطر بالجمال لم يعد له من وجود، لم يعرف أي وصف يعطي مدينته، وهو يراها بهذا الحال بعد سنين طويلة من رحيله عنها، ليعود اليوم فيلقاها هكذا وحيدة كسيرة، بعد أن كان يريقها يضاهي نور الشمس.

بعد صرخة مدوية من قائد القافلة، معلناً لجميع المسافرين معها وصولها الى نهاية طريقها، ترجل "سوتورام" مع كيس متاعه الصغير، عن العربة التي اقلته من أرض غربته الى تلك البقعة البائسة المنسية من حسابات الزمن، والتي كانت في يومٍ ما وطناً مفترضاً له، تنقل ببصره الى أسوار المدينة غير مُصدق لما آل اليه حالها، وما تُصوره له عيناه من حقيقة ما يرى. نعم أنها بابل عينها! بابل التي كانت يوماً سالبة الابصار، ومُلهمة الجمال ومَرام المبهورين بالشعر والفن وحلم الشرق، لم يتبق شيئاً من ذلك البريق. كان قد سمع وهو في منفاه القسري، أنها سارت بدرب الخراب الذي أبتلعها مع شعبها وتراثها، لكن ليس للحد الذي يراها فيه الآن، مُجرد خرائب وأنقاض. اسوارها العالية المنيعة انهارت أجزاء واسعة منها، حتى اصبح دخول المدينة حقاً مشاعاً لكل من هب ودب، ودون حسيب أو رقيب، فلا حراس يقومون بحراستها، ولا بوابات تراقب وتنظم حركة المارين عبرها، ولا قانون يلجم من تسول له نفسه المساس بأمنها وأمن اهله، لثباح عذريتها لكل ضعيف نفس وكاره.

رمى ببصره لمحيط المدينة، حيث كانت تزهو بالبساتين الخضراء العامرة، الصداحة بتغاريد البلابل وزقزقة العصافير، غدت مجرد أدغال وغابات شائكة من الأشجار المُتَيْبسة، جفّت سواقي مياهها الجارية الصافية الرقراقة، تاركة التصحّر يغرس أنيابه في أرضها، التي تحولت الى ملعبٍ للرياح المترية، تغزوها من كل حذب وصوب، حاملة معها ما تيسر من أشواك وأغصان متكسرة، ونخيلها الشامخ بأعذاقه الصفرة الزاهية المُتدلّية، بات مجرد جذوع محترقة كأنها أعواد مشاعل تزيّن إحدى غابات الجحيم، وحدها بنات أوى كانت تتراكم مستمتعة هنا وهناك دون خوف، مائة الفضاء بضجيج وأوتها القبيحة.. (آه يا بابل! أي عاصفة هوجاء تلك التي اجتاحت ديارك؟ وأي بلاء ذلك الذي ألمّ بأرضك المظلومة أبد الدهر؟).

لم يُشَيّد عند بقايا البوابة الكبيرة أية أبنية لخدمة واستقبال المسافرين، والقادمين للمدينة أو المارين بها بطريق سفرهم، تشعرهم بشيء ولو يسير من جمال المدينة وكرم أهلها، ولم يوجد أولئك الذين تعثر عقل الزمان فسلم اليهم أمرها، سوى بمعبد قبيح الشكل مطلي بلون أسود فاحم، كأنه سخام وهباب المحارق، لم يكن بشكل المعابد التي ألفها وقصدها أهل بابل للتعبّد وتنقية الفكر والروح، بدا كإحدى صوامع

الشياطين التي لا تسكنها سوى خفافيش الظلام، كان هناك عدداً من الكهنة يدورون حوله، مشياً أحياناً، وأحياناً آخر هرولة أو ركضاً، يوجهون رؤوسهم تارة الى الأعلى، كأنهم يستعجبون زرقة السماء، وتارة أخرى نحو الأسفل، كما لو أنهم يريدون الاعتراف بمذلتهم ونسيان كبرياءهم، بدت هيئاتهم كشياطين العالم الاسفل التي جلبت القحط للبلاد بعد اختطافها إله الخصب والنماء "ثُموز".

كان جميع الوافدين للمدينة يُجبرون على التبرك بجدران ذلك المعبد، مُقبّلين إياها قبل أن يهّموا بالدخول، وبعد أن يمنحوه شيئاً من الهدايا والقرابين. لم يجرؤ على الدخول الى المدينة، فثنايا عقله لم تكن لتستوعب حتى تلك اللحظة هول ما يراه، وما آل اليه حال بابل منذ أن تركها في ذلك الزمن الشاذ الأسود الذي يصعب وصف أيامه.

ظل "سوتورام" سنياً طويلة في حالة صراع مع الذات، منذ أن ورده وجميع الذين كانوا على شاكلته، ممن رفضوا طأطأة هاماتهم لمن أرادوا أدلالها، خبر سقوط الملك في بابل وزوال سطوة أعتى طغاته، هل يتقهقر عائداً الى مدينته التواقة لرؤية أبنائها الأوفياء الغائبين؟ كيف سيجدها وأهلها وما تركه فيها؟ بأي حال سيراه؟ بعد سنوات عجاف ضاعت بين أهات أهلها، خُنق الناس خلالها خنقاً، لتجعل منهم، أما شريداً أو قتيلاً أو ضعيفاً مسلوب الإرادة، لا يقوى على فعل شيء لتغير واقعه ومأساته، حتى وأن كان بين ثنايا عقله، بقايا فكرٍ يرنو لكسر قيوده، كان هناك هاجساً خفياً يمنعه من العودة، يصرخ في أذنه على الدوام.. (أفنع بغربتك رغم قسوتها، فلم يعد هناك شيئاً من بابل الماضي).

هكذا تقاذفته الافكار وتلاعبت بعقله المخاوف، لتدور به دوامة الزمن الغريب دون أن يشعر أو يحس، إلا من اعتلال صحته وغزو المشيب لشعيرات رأسه، وبعد أن أخذت ذاكرته تسير رغماً عنها في طريق الوهن، فلم تعد تقوى على الاحتفاظ سوى بحفنة ذكريات مُبعثرة، لوطنه المزهوة صورته في مخيلته، رغم ما حوته من آلام إلا أنها أيضاً حملت شيئاً من لمعان الحياة ورونقها، كان أجملها بيت طيني صغير ملأت جدرانه الشقوق، أحتمى تحت سقفه المتهوي، أعلى ما منحته الحياة وجادت به عليه، أم حنون صابرة، مجرد جسد ضئيل نحيل، لا يعرف سوى نطق كلمات الحب، أحتوى قلب صغير أستطاع أن يسع العالم أجمع دون أن يعرف التخمة.

(يا ترى هل مازالت على قيد الحياة؟ تجلس عند باب الدار كما اعتادت، سائدة ظهرها على حافته المتأكلة تستنشق غبار الألم، تحلم بيوم الانعتاق الموعود، وينسائم فرح عذبة ترطب وجوه أهل بابل، تدعو ما تبقى من تلك الآلهة الخائبة التي لم يتلوث شرفها، ولا زالت تحمل شيئاً من الحنين لبني البشر، كي تحفظ الناس وتقيهم شرور الحروب والفتن؟)، كانت أمه ترفض الرحيل عن مدينتها، رغم ما أصابها خلال تلك العهود العجاف، وهجرة أهلها الطيبين عنها طمعاً بشيء من كرامة، وبعضاً من السلام الذي نسوا صورته منذ دهور، كبرياء غريب يصعب وصفه، ذلك الذي تدفأت به تلك النخلة الشامخة المولودة عند ضفاف الفرات، جعلها تشعر أنها توأم روح بابل، لترد عليه بلسان يقطر طيبة وعذوبة، حين يمازحها كما اعتاد أن يفعل.. (أتظنين يا أماه أنك من ذوات الاعمار الطويلة؟ أم أن حياتك ستنتفي عند حصاد الموسم القادم؟).. (أن عمري سيطول، حتماً سيطول، رغم أنف الظلم والألم، لأنه أرتبط بحب بابل، وأنا على يقين أن مدينتنا لن تعرف الموت أبداً).

تذكر صورتها، لحظة فراقها يوم سفره المجهول الخاتمة والاتجاه، لم تنحن هامتها، ولم تذرف حينها دمعة واحدة، ولم تبد شعوراً بالحزن، بل منحته ابتسامة وادعة هادئة، مُتيقنة بأن أيام الفراق وأن طالت،

لابد من أن تجمعهما ثانية، عندها علقت برقبته قلادة لم تفارق صدره من حينها، حتى عَدت جزء من جسده، كانت تذكّرها الوحيد اليه والذي ورثته يوماً عن جدته، مُجرد نواة بلّحة معقودة بخيط رفيع، نُفّس عليها أسم بابل، كان لتلك النواة البخسة رائحة غريبة لم يشعر بها سواه، ربما رائحة الأم التي لا يميّزها سوى وليدها؟ ربما عبّق النخيل والبساتين والأرض الفواحة بنسائم الخير؟ وقد تكون العبير المكنون الذي أحتوى سر حياة مدينته؟ لم يكن ليعرف أو يميّز أياً من ذلك، ومع مرور الايام، أهترأ الخيط مرات ومرات ليبدله في كل حين، لكن النواة بنقشها الغائر ظلت صامدة تتحدى تعاقب حوليات الزمن.

(غربتي وجع في سجن كبير، غربتي وهم بين ثنايا المصير.. عائدٌ لحضنك يا بابل، وأنغام خلودك ستبقى تعزفها الأنامل)، لم تكن تلك مجرد أغنية، بل صدى طبل كبير أيقضه من تناقضات تفكيره وحسم جدلية هواجسه. هكذا قرر بسرعة ودون تخطيط أو تفكير طويل، بمجرد سماعه تلك الكلمات يُدندن بها عند قارعة طريق موحل، أحد الشحاذين السُكاري المكتوبين بجمر الغربية، من العودة الى مدينته المُبتلى بعشيقها، والمأسور بعبق تاريخها الزاهي، مُعلنًا أن غربته قد أزفت نهايتها وحانت ساعة نسيانها، وأن له وطن ينتظر على شوقٍ أحرّ من قيض ظهيرة شهر آب. هكذا صوّر له عقله الموهوم بسداجة الملائكة، بعد أن كبّلت عقله أفكار طفولية غريبة، بعيدة عن مجريات الحقيقة، لا تفقه طبيعة تناقضات الدنيا، وغدر زمانها المُتربص دوماً بسعادة البشر، ومؤامرات من تمنى وحلم دوماً باغتيال نخيل بابل.

ورغم توارد الأخبار تباعاً دون أن يمضي وقت طويل، عن تقلبات الدهر وما فرضه دستور التغيير ومنطقية الحقيقة، معلناً تبدل مجرى الأحداث، وسيرها بما كان لا ينتظر أو يتمنى شعب الفرات، لتفويض الدماء ويستجد الطغيان من جديد، وتذبح طيور البلاد مرة أخرى بسيفٍ عمياء باردة، قدر أهوج مجنون ذلك الذي لف هذه الارض التي ما تكاد قطرات الأمل تبلل مخيلتها، حتى تعصف بها من جديد رياح الموت والقهر، لتبقى مدينته الأبية الحالمة غافية رغماً عنها تحت جفون الألم، لم يفكر في كل ذلك، ولم يرد الى عقله أياً من تلك الأفكار المتبصرة، فلم يعد في بقايا العمر ما يستحق الندم على قرار طائش مُتّعجل، كانت غربته التي اقتصت من حياته الكثير، وسرقت برعم شبابه، وأخذت مأخذها منه رغم عنوان نعومتها، قد مسخت شخصه وروحه، وجعلته كائنًا معلقاً بين غيوم الكرامة وحقيقة الذل، وأنسته كل أحلامه، التي ظل يغفو ليله منتظراً ومتوهماً تحقيقها دون جدوى.

أخذ يسير مع الاسوار مُتفحصاً حالها، لم تعد العصافير تبني أعشاشها بين شرفاتها ومقرنصاتها، وحدها الغربان السوداء كانت تحوم فوقها مألئة الفضاء بنعيقها الكريه، وبُوم النحس بدت مزهوة نافخة ريشها، تتبختر على أنقاض ركام ما أنهار منها، مطلقاً أصوات غريبة تشبه ضحكات الشامتين. كان يتوقف في كل حين، ينظر بتمعن الى داخل المدينة، ملقياً نظره الى أبنيتها وشوارعها، عند كل فجوة أو مكان تهدم في السور، مُتقدماً ما كان عليه حالها أيام دهرٍ مضى كان أشبه بالحلم.

بدت أزقتها كنيية خالية من سكانها، تتلوى فيها تيارات الهواء المليئة بالغبار ذات اليمين وذات اليسار، وكأنهن مجموعة راقصات خليعات يرقصن رقصات الجنائز، تماثيل أبطال بابل وشعراؤها ومغنوها، التي كانت تجمل ساحاتها لم يعد لها وجود، حوانيت بيع الأقمشة والعطور والسجاد والتحف مغلقة، دكاكين صاغتها الزاهية المتباهية بلمعان ما تعرضه لأجمل حلبيها من فضة وذهب وأحجار ثمينة، بدت ظلماء خاوية، غرف الكتبة بما كانت تحويه من خزائن الألواح المكتوبة أصبحت ملاجئ لنوم الكلاب والقطط، ورش ومشاعل النجارة والحدادة والنسيج لم يعد يُسمع ضجيجها الذي كان يوحى لمن يصله صده، بأنه عزف شجي تفننت وتفردت به سواعد صناع الحياة، الحانات الجميلة التي كانت تنتشر بين

شوارعها، تصدح منها أعذب الأغاني، وأرق أنغام الموسيقى، تم هدمها مع الارض.. (هناك كانت حانة "ستراني"، ومن الجانب الآخر تنافسها حانة "أينكاسا"، يا إلهي! كيف غدا مصيرهما هكذا، أن طعم نبيذهما لا يزال يرطب شفاهي).

أصبحت الحياة صنو ومعنى آخر للموت، الحزن والكآبة والوحشة، هي كل ما تبقى بين شوارع بابل، لم تشيّد أبنية جديدة، كل ما تم تشييده هو المعابد، صغيرة هنا وكبيرة هناك، كل بضعة امتار معبد، وبين كل معبدين كبيرين، كان هنا آخر صغير يتوسطهما، ولم يكن بينها سوى الكهنة، كهنة في كل مكان، ينتشرون بين الشوارع والازقة، حتى بدو بتجمعهم، مثل اسراب القمل حين تُبتلى بها خُصيلات الشعر .

لم يكن أولئك مثل كهنة بابل التي عرفهم أيام مجدها، كانوا بسيمات غريبة ووجوه مكفّهرة صفراء، ينفر منها كل من تقع عيناه عليها، بعضهم كان يتجمع عند بوابات المعابد، كي يلقوا خطاباً وفتاوي بصوت عال، وبلغه لم تكن سومرية أو أكديّة، وآخرون يسيرون في أحد الازقة بشكل كراديس صغيرة، يقودهم كاهن متحمس يصرخ فيهم كلما بطأ سيرهم أو خفت نشاطهم، حليقي الرؤوس عراة الصدور، يتناوبون الضرب على أجسادهم بشدة، تارة على الصدور وتارة على الرؤوس، وفق تناغم موسيقي فطري قبيح، ذكره بصوت انهمار السياط على ظهور المعتقلين في سجون الطغاة، نفس الوجوه الصفراء، نفس الصوت، ونفس المهارة في الضرب، ونفس الغايات الخبيثة، بقمع الصوت الآخر واخراجه من معادلة الحياة.. (ما تغير شيء يا بابل، كلا، ما تعيّر شيء)، هكذا قالها "سوتورام" بحرقة، مع زفرة مسموعة أخرج معها كل آلام صدره.

تتبع عيناه إحدى كراديس أولئك المخدّرين وفاقد العقول، كانت تضرب بقوة تفوق باقي الاخريات، يهيجها كاهن بلحية طويلة، على رأسه قلنسوة عالية تشبه تلك التي يعتمرها السحرة، كي يخبئوا تحتها الأفاعي والعقارب، محفزاً إياهم على المزيد من شدة الضرب وإيلام الجسد، بدا شكله وهيبته ليستا بغريبتين عليه، فرغم ضعف ذاكرته المشبّعة بهموم الأيام، لكنها لا تزال تحتفظ بصور أولئك الذين جعلوا من لحوم أبناء بابل طعاماً لمخالبهم، وقوتاً لأحلامهم المريضة.. (عرفته بالتأكيد، كان أحد جلادي الطغاة، أشتهر بوحشيته إزاء كل من وقع تحت رحمته من أبناء المدينة، ممن رفضوا حكم الظالمين المقبور، من المؤكد أنه أصبح جلاداً من نوع آخر، لا يقتص من الأجساد، بل من العقول والأفكار، بعد أن أبدل أسياده أساليبهم العتيقة البالية، بقهر المظلومين والكادحين بالسياط والسكاكين، ليستعيضوا عنها برياء القول وزيف الكلام واكاذيب التعبد!).

هكذا أذن بانث الأمور واتضحت صورتها، من تلك الخزعلات، فهم "سوتورام" الى أي مستنقع نتن أسن سيقت بابل وأهلها الصابرين، وأية هاوية عميقة القرار تم ايقاعها فيها، ومن دون شعور تلمس قلادته كأنه ينشد منها العون، بعد أن استنزفت تلك المشاهد ما كان قد جلبه معه من أرض غربته من بقايا كبرياء جسد خاوي، وما كاد يستوعب صدمته حتى قفز الى فكره سؤال بديهي، أنساه إياه حال المدينة وواقع دمارها.. (أين الناس؟ أين شعبك يا بابل؟ هل يُعقل أنهم غدوا جميعاً محشورين قسراً، داخل تلك الصوامع الدهماء الموحشة، منتظرين دورهم في عملية غسيل العقول؟ لم أرى سوى بضع عشرات، لكن أين الباقين؟).

واصل سيّره مع امتداد الأسوار، كانت المدينة خاوية، لم يكن هناك من بشر.. (أين شعبك يا مدينة الصخب والموسيقى والضحكات المججلة؟ لم يعد من أثر لأطفالك المتمازحين، اللاعبين بين أزقتك

المضاءة بالفناديل الملونة، والفواحة بأريج العنبر والياسمين. أين جسانك المتمايلات بمشيهن ساعة الغروب وبرد العصاري، بدلال تغاره حتى عشتار وآلهة الخمر، تلاحقهن كلمات غزل شباب جبلوا على عشق الجمال؟ ماذا حدث لمجالس شيوخك تحت أشجار السدر؟ بنقاشاتها الحامية الحادة التي لا تنتهي، حول متضادات الحياة وأصل الوجود... "هل الآلهة هي التي خلقتنا، أم نحن الذين خلقنا الآلهة؟".

ظل كحال من فقد صوابه، أو أبغى بمس من الجنون يردد ذلك مع نفسه، أحياناً بصوت عال، وأحياناً بصوت مخنوق بعبرات الحسرة والصدمة، لم يعد هناك سوى أكوام القمامة والنفايات، بذبابها وروائحها التي تخنق الصدر كحال المعابد، تتراقص بينها الرياح المُعبّرة الخانقة، التي جعلت من جو المدينة أصفر اللون يدعو للغثيان، ناقلة مع تياراتها أصوات تراتيل الكهنة، المرافقة لصدى صوت الضرب على الرؤوس والصدر، خراب ومعابد وكهنة وقمامة، هذا كل ما جنته المدينة بعد تغيير الوجوه، وتبدل الأحوال ومناخات وأهواء المصالح.

أوصلته قدماه بسيرها الهائم حيث مجرى نهر الفرات، الذي كانت بابل تغفوا مستمتعة على ضفتيه، كقصبية هواء تبعث مع مجراها الحياة والانتعاش الى رنتيها المتخمتين بعليل وبرد النسائم، كان حاله لا يختلف عن حال المدينة، مياهه أضحلت وبان عقيقه الطيني، كاشفاً عن عدد لا يحصى من الجزيرات الصغيرة، لتغدوا مجرد بُركاً للمياه الأسنة، جعل منها البق والبعوض مستعمرات آمنة له ولذريته، بدت لناظرها شديدة الحمرة كما لو أنها اختلطت بالدماء، أسماكه اختفت، وحتى الضفادع والسلاحف هجرته، بعد أن رأته يسير نحو الاحتضار، ومراكب الصيادين والتجار والسفر، التي كانت فيما مضى تشق تلك المياه جيئةً وذهاباً بأشرعتها البيضاء الناصعة العالية، لتكون سفيرة بابل لبقاع العالم البعيدة، تنقل لها صورة وخير شعبيها سليل الأمجاد والحضارة، وجدها مُهشمة مُلقاة عند الضفة بشكل يُدمي القلوب، تستذكر أيام عزّها، حين كانت تزار مهيبة مثل ربابنتها وهي تشق مياه البحر، مفترقة تلك الأمواج التي تفخر بحملها، لم يبق شيء في بابل يستحق حتى مجرد التفكير به، بعد ان حولتها طعنات الزمن الى لوحة دهماء موحشة تستجدي رثاء الشعراء .

بدت له من بعيد عند طرف سور المدينة البعيد، تجمعات لبشر مُنتشرين هناك، أخذت معالمهم وصورهم تنتضح شيئاً فشيئاً كلما اقترب منهم.. (أخيراً وجدت أهلك يا بابل! أهكذا أبعد الناس الكرماء الطيبين عن بيوتهم وأزقتهم، ليلقوا بهذا الشكل الذليل، ليُجعل منهم كأنهم مَجْذورين مَحْشورين في مستعمرات الأوبئة؟). لم يبال أحد به أو بقدمه، أو يستغرب لمشيته الحائرة المتعثرة، ولم يوجه أياً منهم التفاتة أو نظرة تشجعه للسؤال عما جرى ويجري، لم تكن هيئاتهم توحى بانتمائهم الى عالم الأحياء، جلودهم أحرقتها قسوة الشمس اللاهية، وجوههم ختمت بعلامات الحزن بعد أن نست أفواههم صورة الابتسامة، رجال يشعرون بانتقاص الرجولة ومذلة الأيام، ونسوة فقدن بريق أنوثتهن، بينهم أطفال لا يفقهون واقع حالهم، ولا يعرفون شيئاً عن مجد مدينتهم أيام أجدادهم، يلهون بالأتربة ويتراكمون بين ذويهم، بعد أن ورثوا عنهم مرغمين هول مأساتهم.

الجميع كانوا مجرد أفضاصاً من عظام لفت بجلود متيبسة مهترئة، تناثرت على امتداد الاسوار، بعد أن تنكرت لهم الأحياء والأزقة، التي لم يعد يربطهم بها سوى خيط واه رفيع مزوق بذكرياتٍ لم يعد لها طعم أو معنى، ليتخذوا من تلك البقعة النائية الضيقة وطناً بديلاً لهم، بعد أن تحولت مدينتهم الى مسرح كبير للأكاذيب والخداع، واللصوصية والتطرف، وغدت دروبها مستعمرات لأعشاش الغربان.

كانت المأساة تتجسد في صورهم، وهم يعيشون بذل تلك الحياة الكسيحة التي يأتريها الفقر والفاقة، أفضلهم حالاً لا يمتلك أكثر من خيمة مهلهلة ممزقة تتلاعب الريح بجوانبها، ولم يكن لهم من متاع يستحق القول أو الذكر، أما قوتهم فلا يتعدى ما كانت تجود البريه به عليهم، من أعشاب وعظايا وقوارض يقتاتون عليها، الى جانب مياه ملوثة تجلب من شحيح مجرى الفرات.

أخذ يسير بين هؤلاء المتعبين المتناثرين بعشوائية في هذا المكان، بين مُستلق وجالس، وهائم ينقل خطاه جيئة وذهاب في خطٍ متعرج رسمه في مخيلته، ناقلاً بصره نحو الأفق، لأيام قادمة لا يعرف لونها أو طعمها، حائراً في زمانٍ سرق منه حلو البسمات وخضر الأمانى، كل شيء كان واضحاً رغم حيرته بما يراه.. هل هي حقيقة مرة مفزعة، أم وهم وخيال، أم كابوس كريبه مرعب؟ أهذا هو حقاً وطنه الحلم؟ هل هذه حقاً نهاية المدينة التي ظلت على الدوام تنتظر ربيعها محمولاً على أنوار فجر جديد؟

نسى "سوتورام" في تلك اللحظة كل شيء، من أين جاء، ومتى غادر مدينته، بل أنسته مناظر هؤلاء المظلومين حتى صورة أمه، التي تحمّل عناء السفر من أجل رؤياها ومعرفة مصيرها. تلمس قلاذته مرة أخرى عسى أن تمنحه شيئاً من إرادة، لكن دون جدوى.. (حتى التاريخ كرهنا وما عاد يطيقنا، تبال له من قدر! أنظّل هكذا نُقتل في كل حين، مغروسة في ظهورنا مخالب الغربة، ومن دماننا تقطر أنياب الطغيان؟). كان قد فقد كل قوته وسلبت منه مشاهد تلك المآسي جَل طاقته، فلم تعد ساقاه تتمكنان من حمل جسده المتهاوي الضعيف المُنهك، ليختار مكاناً بين الناس القى بنفسه عنده، ساندأ ظهره على السور، كأنه يستذكر كتف أمه الذي ما نسي يوماً دفته ونعومته. ورغم بؤس المكان وتعاسته لكنه أحس بارتياح غريب ينتابه، هل هو شعور الانتماء لهذه الأرض المحكوم عليها بالتصحّر أعتقد أنه مات منذ زمن؟ هل هي راحة منتظرة لتائه حائر بلغ غايته المبهمة بعد سفرة شاقّة في متاهة العمر؟ أم أنه استرخاء الخلود الذي وعد به من وقع على عاتقه بناء الحضارة حتى وأن كان بين فكي الموت؟

مد ساقيه بتثاقل، رامياً بصره الى السماء، تاركاً لتفكيره الهائم السفر لتأملات عبثية، لم يعد يُميّز أن كان هناك رابط بينها، كأنها عرض مسرحي متناقض ومتعدد الفصول.. الطغاة، الغربة، بابل، الجلادون، الكهنة، الضرب على الاجساد، الغربان واليوم، المعابد، الناس، الفرات.. لتسرقه سريعاً من حيّز الوجود، غفوة حالمة جعلته يعيش عالماً سرمدياً، أعاده سنيماً بعيدة الى الوراء، حينما كان طفل صغير، يُلاعب أقرانه الصغار لعبة قذف الحصاة، والاختباء خلف جذوع النخيل.

خطوات جسدٍ ضئيل اقتربت منه بهدوء جعلته يستيقظ من قيلولته، فتح عينيه ببطء لتلاقيان طفلة صغيرة بالية الثياب كحال أقرانها، لها وجه جميل مُستتير رغم تعفره بالتراب، وشعر ناعم بسواد الليل، انسدل بشكل جدائل طويلة تصل حتى خصرها، أخذت تنظر اليه بتمعنٍ مُستغربة هيئته، ثم مدّت يدها النحيلّة المرتجفة تتلمس وجهه المُتعب، كأنها تريد التأكد أن الحياة لازالت رفيقة جسده، بدت اليد باردة كالثلج، شعّر بحنّوها ونعومتها، بعد تأكدها من تردد أنفاسه، أشارت الطفلة بسبابتها الرقيقة الى ما كان يعلقه في رقبتة، أبنتسم نحوها بصعوبة، ودون شعور أو تردد أنتزع قلاذته الأثيرة من رأسه وعلقها في رقبتة، عندها أشرق ثغرها عن ابتسامه عريضة جمعت فيها كل ورود الدنيا، تركته مهرولة لتكمل لهوها مع صُحبيباتها، وبقياً ابتسامتها لازالت مُرتمسة على وجهها، متباهية أمامهن بما نالته من دون موعد أو انتظار، كانت تلك هي الابتسامه الأولى التي يتلقاها في مدينته منذ أن وطئت قدماه أرضها، تُذكره بصورة ماضيها الجميل وتُشعره بحنين وطيبة أهلها، عندها فقط أدرك "سوتورام" أن بابل رغم هؤل مأساتها، ونزيف جراحها لا زالت على قيد الحياة.

## نُبوءة الماضي

خرج "ميكاس" بسرعة من المنزل وقد ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة تكشف عن بياض أسنانه، ولم يشعر إلا وصيحة والدته تلاحقه.. (أغلق باب البيت خلفك أيها الهيمان، هل انت الشاب الوحيد الذي سوف يتزوج؟). نبهته تلك الصيحة لسرحانه، لكنه لم يرد بأية كلمة، فقط عاد أدراجه بهدوء متأنفاً ليغلق الباب الخشبي الثقيل معيداً لنفسه الاتزان، ثم لينطلق مجدداً لإكمال باقي التحضيرات، وشراء ما تبقى من تجهيزات ولوازم عرسه من حبيبته "تالا". هكذا مرّت الايام سريعاً لتقترب امنيته من التحقق، فبعد جهود كبيرة مُضنية بذلها والده وشقيقاه، أعقبتها زيارات عدة لوالدته وشقيقاته الثلاثة بصحبة الكثير من الهدايا، إضافة الى وساطات العديد من المعارف دامت أكثر من عام كامل، وافق بعدها والدها ثقيل الدم من تزويجها إياه. لم يتبق الكثير من الوقت فمساء اليوم يكون الحفل الكبير في باحة منزلهم، والذي دُعِيَ اليه العديد من الأقارب والأصدقاء، وصبيحة يوم غد سيتم عقد الزواج في معبد "عشتار"، لذلك فقد غدت العائلة طيلة الاسبوع الماضي في حالة استنفار كامل لهذه المناسبة السعيدة، يوم زواج صغيرها ومُدللها الوسيم وآخر من تبقى منهم لاهياً بمراح العزوبية.

وبأوامر صارمة من الأب توزعت المسؤوليات والمهام على جميع أفراد الأسرة، لإتمام هذا الحدث المُفرح بأحسن حال، بما يتناسب مع سمعة العائلة عند الناس ومكانتها بينهم، من تجهيز باحة البيت بالزينة والقناديل، وبمقاعد ومناضد لضيافة المدعوين، وكذلك أعداد الاطعمة الشهية التي ستقدم لهم، من لحوم ضأن وطيور، ومن فواكه وفطائر مُحلاة بالسكر، وأخرى مَحشوة بالتمر، إضافة الى جرار خمور التين والعنب، وأنقعة الزبيب والسفرجل التي سترافق موائد الطعام، والأهم من كل ذلك طبعاً اكمال تجهيزات العروس وهدايا عرسها، من ملابس وقناني عطور ومفروشات زاهية لغرفتها، إضافة الى الخلي الذهبية التي أشتراط والدها أن يُلبسها "ميكاس" لعروسه عند إجراء مراسم عقد الزواج في المعبد، بعد أن غالى كثيراً فيها لغرض منح موافقته النهائية على هذا الزواج.. (لم يتبق شيء، الاتفاق مع فرقة العازفات ومنشدو التراتيل، إجراءات المعبد وألعاب الكهنة، شراء متطلبات الحفل، تجهيز البيت، توجيه الدعوات، كل التحضيرات تمت، ولم يتبق سوى الخلطة التي أوصت بها الآلهة). هكذا ظل يتمم مع نفسه طيلة الطريق المؤدي الى سوق مدينة "أكد"، غير عابئ بنظرات الناس إليه وهم يهزّون رؤوسهم عطفاً عليه، مُعتقدين أنه مصاب بمسّ من الجنون، حتى أنه لم يبال كثيراً بتحايا أصدقائه، وتهنئة معارفه في يومه المبارك الموعود، ليردّ عليها فقط بكلمات شكر باردة، أو بإيماءة صغيرة من رأسه وإشارة من كفه.

(هل جهزت الخلطة يا "أولاخ"؟ لم يتبقى شيء سواها)، هكذا سأل العطار الذي كفه والده بأعداد الخلطة الخاصة، التي أعتاد العرسان تناولها في ليلتهم الموعودة.. (مبارك، مبارك عرسك يا "ميكاس"، دقائق وكل شيء يجهز)، (قليل من الفلفل الاسود والملح، مع مسحوقي البصل والثوم المُجففين، وشيء من القرنفل المطحون وبعض حبات الزبيب، مع قليل من العسلين الأسود والأبيض، مع نصف كأس من ماء الورد وشيء من مبروشي اللوز والجوز). ثم أخذ العطار يحرك الخلطة ويدعكها بمهارة، وينقلها مع كل

إضافة من صحن فخاري الى آخر، محدثاً إياه بذات الوقت عن فوائدها مع نصائح عن طريقة ووقت تعاطيها. أخذ الخلطة الموضوعية في وعاء فخاري صغير بعد دفع ثمنها شيقلين من الفضة، مع تكرار تهنئة العطار وتشجيعه الذي أكد أنه سيكون في ليلة عرسه بمعونة ما أعدّه له، ذلك الثور النطاح الفخور بفحولته.. (كل شيء قد تم أذن، ويوم غد سيكون أسهل بكثير مما قيل عنه ويقال).

بعد إكمال جولته واقتناء بقية حاجاته، وبينما هو سائر في دربه حاملاً ما تبضعه، سارحاً بأفكاره الخضراء، لفت نظره عند طرف السوق عدد من النسوة ومثلهن من الرجال، يحيطون بكاهن عجوز بدين الجسم، حليق الوجه والرأس، عاري الصدر، يجلس على مقعد خشبي ليقراً الفأل، ويصور لطالبيه وسائليه مكنونات طالعهن، وما تخبئه قادم أيامهم، وبشكل لا شعوري أخذت قدماء تقودانه نحو ذلك التجمع، ربما من باب الفضول أو رغبة بسماع بعض الحديث عن المستقبل، بعد أن ملّ جميع الناس واقع حياتهم المزرري الذي يعيشونه في مدينتهم "أكد".. (طفلك سيكون منحوساً حتى يموت)، (هذه البنات الصغيرة سيتزوجها أحد الأمراء، ويكون لها شأن في المستقبل)، (زوجتك يا هذا تخونك مع أحد أصدقائك المقربين). هكذا ظل يستمع من بين الواقفين لما يقوله الكاهن، مُمعناً النظر في شكله وهينته، وحركات جسمه وذراعيه التي لا تبدو غريبة عليه، مع أدوات عمله من قوارير وصحون صغيرة وعصي رفيعة ناعمة، مُصغياً الى نبرات صوته الأجنس المُميّز. قليل من الوقت ثم غادر المكان وقد شغلت الحيرة فكره.. (يا ترى أين رأيت هذا الكاهن؟ من المؤكد أنني رأيته يوماً ما، لكن متى وأين؟).

وكما جاء الى السوق كان كذلك لدى عودته، مُتمتماً مع نفسه، وأن كان بأمر آخر وشأن مختلف، لكنه ما لبث عند منتصف الطريق أن صرخ بصوت لافت.. ( أنجديني يا "أنليل"، أنه نفسه كاهن النحس ذاك!)، ثم ملياً ملياً أخذ يتذكر سنين بعيدة مضت، يُساعده في استرجاع أحداثها صفاء مخيلته وخلوها من الهموم والاصاب، تذكر جيداً ذلك الكاهن وما قاله حينها له، رغم مرور أكثر من عشرين عاماً على لقائه به، لتعود تفاصيل ذلك اللقاء البعيد كأنها حدثت يوم أمس فقط. كان حينها صغيراً لا يتعدى الخامسة من العمر، حين رآه ذلك الكاهن البدين يتمشى مع والده في سوق المدينة، فطلب منه أن يقرأ طالع ولده الصغير مقابل نصف شيقل من الفضة، وافق الوالد على مَضض ليتخلص من إلحاح الكاهن، فهو يعرف دجل الكهنة وريائهم الذي لا يُعرف له حدود، عندها سكب الكاهن بضع قطرات من زيت السمسم في صحن يحتوي قليل من الماء، ثم طلب من "ميكاس" أن يحركهما بسبابته الصغيرة ثلاث مرات وبشكل دائري، سرعان ما تحركت قطرات الزيت في كل اتجاه من الصحن، لتشكل فيما بعد شكلاً غريباً على سطح الماء، أخذ الكاهن ينظر اليه بتمعن، ثم وجه كلامه الى والده مُعلنًا رؤيته لما قدرته الأيام لأبنه.. (سيكون أبنك أمنية جميع الفتيات، لجمال وجهه وروحه، وحلاوة كلامه، وعضوبة صوته التي يحسده عليه المُنشدون، ويعيش مُنعماً فرحاً مزهواً بخير والديه ومَحبة أشقائه، ويغدو مثقفاً فصيح اللسان، يقول الشعر ويتغنّى بملاحم الآلهة، ويتحدث ويكتب السومرية والأكدية، ولغات البلاد البعيدة بشكل يفوق كبار الكتبة، لكن في يوم زواجه سيحدث له ما ليس في الحساب فيسلب منه فرحته وفرحة عروسه). عندها سحبه والده بشدة من يده مُبتعداً عن الكاهن بعد أن رمى عليه النصف شيقل مردداً.. (هذا الطالع مُجرد سخافة، لنترك كاهن الشوم هذا).

ظل "ميكاس" مصدوماً مشدوهاً، بعد أن سرقت ابتسامته تلك النبوءة التي غابت عن مخيلته طيلة السنين الماضية، إذ لم يكن فكره ليستوعب حينها مضمونها وفحواها، حيث كانت بالنسبة الى سنه الصغير مجرد نكتة أو مزحة عابرة، قالها عجوز أخرج تناست في وقتها مع ضحكات الطفولة الحاملة، لتعود اليه مجدداً بعد أن ظلت حبيسة في ذاكرة الأيام، لتذكره بها ويقرب تحقيقها في يومها الموعود، الذي



حدده قدر طائش مُحال أن يَنسى مساره وما كتبه على بني البشر، ثم أخذت حسابات عقله المتضاربة الحائرة، تتساءل عن أي أمر يمكنه أن يحدث لتسلب معه منه تلك الفرحة التي أنتظرها كل تلك الشهور والايام.. (تباً للكهنة! الذين لم نسمع يوماً من كلامهم سوى الشؤم، ولم نرّ من صورهم القبيحة ما يريح الصدور إلا مد الأيدي طلباً للفضة). عند وصوله كان البيت يملأه الضجيج، تقوح منه روائح الطعام الزكية المُطيبة بالتوابل والزعفران، وأطفال أخوته وأخواته يتراكمون هنا وهناك في باحة البيت الواسعة، مانحين إياه بهجة وسعادة، والنسوة بأشراف والدته قد توزعن لإداء مسؤولياتهن التي أنيطت بهن، بعضهن كنّ يواصلن تنظيف البيت وتنضيد المقاعد والمناضد في الباحة التي ستحتضن الليلة الموعودة، والأخريات قد شمرن عن سواعدهن بأعداد الاطعمة وتجهيز ما يحتاجه حفل المساء، كانت القيثارات مع باقي أدوات الموسيقى موضوعة في أحد الأركان، بعد جلبها من المعبد تنتظر عازفيها التي سيحيون حفلة العرس.

أستغرب الجميع من وجوم وجهه وسرحانه وخفوت حيويته ونشاطه، بعكس حاله صباحاً قبل ذهابه الى السوق، حياهم بصوت واطى لا يكاد يُسمع، والفرحة قد اختفت تماماً من مُحياه ثم دخل الى غرفته. تباينت ردود أفعال النسوة تجاه هيئة "ميكاس" وغرابة صورته، ثم أخذن يرددن أغنية للعرسان في يوم زواجهم.. (يوم أخير، يوم أخير، ويغدو العصفور أسير... آخر ليلة وحيداً في غرفتي، بعدها يكون الحبيب فيها سمير)، ثم تواصل حديثهم.. (لعله يراجع قرار زواجه)، (معه حق، لم يتبق سوى ليلة واحدة، يفارق بعدها حياة الحرية)، لتجيبن زوجة شقيقه الأكبر المعروفة بطرافة لسانها.. (من المؤكد أنه يفكر كيف سينجز مهمة اللية الأولى يوم غد)، تعليقات وسخریات وتهكمات لا حصر لها، أطلقتها النسوة وكأنهن أردن شيئاً يفرغن فيه ثقل تعبهن.

أستلقى على سريره مطلقاً لتفكيره العنان.. (يا ترى هل ستتحقق تلك النبوءة المشؤومة فعلاً؟ أم أنه غالى في تفكيره أكثر مما ينبغي، وأن ما سمعه ليس سوى خزعبلات وكلام فارغ ليس إلا؟ يا له من قدر أن أرى ذلك الكاهن بعد كل تلك السنين! كما لو أن الآلهة تريد تنبيهي الى قرب تحقيق تلك النبوءة لأستعد لملاقاة صدمتها). بالفعل عند استرجاعه لمجريات حياته، فأن كل ما قاله ذلك الكاهن في نبوءته قد صدق تماماً، فقد عاش مُنعماً مُدلاً، وأمتلك بفضل والده من الثقافة ما فاق بها اشقائه وأقرانه من الشباب، كما أمتلك من الحُسن وعذوبة الصوت واللسان وجمال الحديث، ما جعله على الدوام مَحَطَ أنظار فتيات المدينة ومخططات أمهاتهن، أذاً النبوءة حتماً في طريقها للتحقق.

ثم أخذت الأسئلة تتردد على فكره.. (ماذا يمكن أن يحدث يوم غد؟ وأي أمر يمكن أن يكون ليسلبه فرحته المنتظرة؟ هل يمكن أن يموت أبوه أو أمه مثلاً؟ بالطبع لا، فكلاهما بصحة ممتازة، حتى أن والده طيلة الأيام الماضية كان يمازحه بأنه ينوي الزواج بامرأة ثانية، وأنه يتمنى أن يُزف مع أبنه في ليلة واحدة، أما والدته فهي تستطيع طهو عشرين قدر طعام في يوم واحد، وبالنسبة لأشقائه فهم بأفضل حال، ولا خوف بأن يختطفهم الجنود أو حراس العائلة المالكة، أذ كانوا دوماً لا علاقة لهم بأولئك الذين يقفون نداءً للملك "سرجون"، ويشهرون بالسر والعلن بعدم شرعيته للحكم، وهم لا يفكرون سوى بأعمالهم ورعاية أسرهم، ماذا عسى أن يحدث أذاً؟ هل يمكن أن يموت الملك "سرجون" نفسه، فتُلغى حفلات الأعراس؟ يا ليت أن يتم ذلك، وهي الأمنية التي طالما ردها جميع أبناء "سومر" و"أكد"، يا للكارثة، أن يحدث شيء للحبيبة "تالا" نفسها).

نظر الى الجانب الآخر من سريره الذي سيضم حبيبته يوم غد، ثم مد يده تحت وسادته ليخرج سنبله صغيرة منتفخة الحبيبات، نظر اليها ملياً، ليعود معها بذاكرته الى عام مضى، حين التقى بحبيبته "تالا" أول مرة في معبد "عشتار" عند عيد الحصاد، حيث اعتادت العوائل أن تلتقي هناك لتحقل بهذه المناسبة، من نظرت الأولى لها ملكه سمارها الخمرى الجذاب، وسحر سواد عينيها الواسعتين، وابتسامتها الجميلة الصغيرة التي بدت كهلال أول الشهر، لترسم مع خصلات شعرها الطويل الفاحم الناعم، المُسدل بعثية كخيوط الحرير على كتفيها العاريين، لوحة تأسر كل من يرنو اليها، بادلته هي كذلك نفس النظرات، كيف لا وقد كان كل ما يملكه حري بأن يُحب، رجولته، شبابه، جمال روحه، وحدة ذكائه الواضحة من عينيهِ الفرائيتين، في ذلك اليوم رتل قصيدة بصوته العذب تغنت بحب عذارى المدينة، مُشبهاً إياهن بسحر الالهة ودلالها، جعلت جميع الفتيات يذبن في عشقه وأمنيتهن أن يكون من نصيبهن، لتنفذ "تالا" بجرأة غريبة من بين الجميع لتعطيه هذه السنبله، مُعلنة امتلاكها روحه وكيانه، كأنها "عشتار" حين سلبت قلب "ثُموز".

أيقضه من شرود ذهنه صوت والدته وهي تدعوه الى طعام الغداء، لم يتفوه بكلمة مع العائلة، كان الجميع يتضحكون فرحين، مُتمنين تسارع الساعات لتكتمل فرحة مُدلل العائلة، إلا هو الشارد بهمه الذي أملاك فكره، حتى أنه لم يجب على استفسارات والده عن اكمال استعداداته لحفل المساء ومراسيم يوم غد، حتى فاجأهم بسؤال غريب لم يكن أحد بانتظاره.. (هل الجميع بخير؟)، رغم غرابة السؤال لكنهم أجابوه جميعاً بالإيجاب، ليعقب سؤاله بنبرة عالية.. (أرجوكم أن تأخذوا اليوم حذرکم، وتنتبهوا جيداً لما تقومون به). أصبح "ميكاس" في حيرة من أمره، هل يتمنى مع عائلته استعجال الوقت، ليلتقي بحبيبته التي صبر كل تلك الشهور لتغدو نصفه الآخر الحلو، والتي معها سيكمل مشوار حياته؟ أم يدعو الآلهة أن توقف الزمن، كي لا تكتمل تلك النبوءة الظالمة التي قدرتها الآلهة عليه، فيحدث ذلك الشيء المجهول الذي يسلبه فرحة عمره؟ وهل يخبر عائلته بما يشعر به؟ خصوصاً والده الذي يبدو أنه نسى تلك نبوءة وصاحبها، ليشرك الجميع بما يشغل تفكيره، أم أن ذلك سيكون كفيلاً بسلب الفرحة من قلوب الجميع فتبتئس بالتالي ليلته الموعودة.

عند المساء وعلى أضواء القناديل الملونة، اكتظت باحة الدار بالمدعوين، بعد أن رُصت بالمقاعد، والمناضد التي امتلأت بصحون لذيذ الطعام وجرار النبيذ، أخذت عازفات القيثارات يعزفن أشجى الأنغام، يرافقهن المُنشدون مرتلين أعذب الأغاني، ليتفاعل معها المدعوون بشكل كبير، مردديها خلفهم وهم يحتسون كؤوس البيرة والنبيذ، ويُمتعون أفواههم بتناول حلو التمور والأعنان، الجميع كانوا فرحين تملأ قلوبهم البهجة، وكان والدا "ميكاس" يقفان عند باب الدار يستقبلان الضيوف، وعلى أفواههم ابتسامة عرضة ودودة ترحيباً بالقادمين لمباركة زواج أبنهم. ومع ارتفاع صدى الموسيقى، دخل "ميكاس" مرتدياً ملابسه المزركشة الجميلة الى وسط الباحة وسط هتافات الجميع، ليأخذ مكانه بين رفاقه، حيث بدا كأنه أمير يستعد لتولي عرشه، فالليلة ليلته والحفل حفله، فغدا محط أنظار جميع المحتفلين، بطلته الجميلة وزينته الأنيقة وعطره الفواح، وسط حسد الشباب، وحسرة العذارى اللواتي لم تتمكنن شباكهن ودهاء أمهاتهن من إيقاعه في فخاخهن.

ورغم ابتسامة الفرحة العريضة التي ارتسمت على شفثيه، ومشاركته المدعوين بالغناء والحديث المفرح والمزاح، لكن صورة القلق وعدم الارتياح كانت بادية بوضوح عليه، لتفشل معها محاولته لإخفائها عن الجميع، مما جعله فرصة للتندر ومزاح رففته الشباب، الذين ظنوا به أمراً آخر يشعر به العرسان في ليلة

زواجهم، غير عالمين بحقيقة ما يشغل باله.. (لا تهتم يا "ميكاس" ستجري الأمور على ما يرام حتى دون أن تشعر)، (هذه الليلة عليك بالإكثار من التمر والتين، وعند الفجر تناول ثلاث كؤوس من حليب الغنم، مع بعض الجوز وكل شيء سيكون على ما يرام)، (هذا ابتكار فاشل، لقد جربته في ليلة عرسي ولم يساعدني قط، أسمع مني، عليك عند الفجر بتناول التمر والسّمسم المقلّيان بزيت الزيتون، أن معه الضمان الأكيد). حتى طُفح الكيل به فأخبرهم لينهي أحاديثهم السّمجة عن ذلك، بجلبه تلك الخلطة العجيبة التي لن يقف عندها شيء، مع ذلك أستمّر الجميع بقفشاتهم كما أستمّر المحتفلون بفرحهم حتى منتصف الليل، حيث غادروا المكان مكررين تهنئتهم للعريس ووالديه، مع الوعد بحضورهم صبيحة الغد الى المعبد. هجعت العائلة بعد انتهاء الحفل الى مخادعها، فأمامهم عمل طويل يقتضي أنجازهم منذ خيوط الفجر الأولى، حيث سيتوجه الجميع الى معبد الإلهة "عشتار" لأجراء مراسيم الزواج هناك، غمضت عيون الجميع، إلا "ميكاس" وفكره وقلقه من ما سيحدث غداً، ليظل طوال الليل يرنو من شبّاك غرفته الصغير الى السماء، يلتمس منها أن تعينه وأن لا تتحقق تلك النبوءة.

ما أن دخل "ميكاس" فخوراً مزهوّاً بزينته وقشّابته هندامه مع عائلته عبر بوابة المعبد الكبيرة المهيبة، حتى بدا له كأنه يدخل عالماً آخر تسوده الرهبة والخشوع، ليستقبله كاهنان قاما بنحر حَمَلين عند قدميه، أحدهما أسود والآخر أبيض، كي يذهب معهما النّحس، وتبعد عنه الآلهة كل مقدرات الشر، والى جانبيه سار شقيقاه ليشدّاً من عزمه ورباطة جأشه، يرافقان مسيرته المتأنيّة البطيئة نحو المحراب، حيث ينتصب هناك شامخاً تمثال "عشتار" العظيمة، وعند أركان ساحة المعبد كان بعض الكاهنات يرددن بأصواتهن الرخيمة الجميلة، التراتيل المقدسة المتفاخرة بحب الآلهة، وهن يعزفن على قيثارات جميلة مزينة برؤوس ثيران ذهبية، والى جانب ليس ببعيد كان يقف كذلك بعض الكهنة، يضربون بقوة ووفق نغم خاص ووتيرة محددة على طبول كبيرة، بهدف أفزاع الأرواح الشريرة وطردها بعيداً عن مراسيم العرس كي لا تشكل ازعاجاً للعروسين، كما توزعت على جانبي مسيرة "ميكاس" المتجهة نحو المحراب، عدد من الكاهنات اليافاعات الكاعبات، ينثرن أوراق الآس والأوراد البيضاء على موكب العريس، جعلت دربه يفوح بعبير زكي أخاذ وهو يتقدم بخطاه الثابتة.

كل تلك الصور إضافة لشوقه لملاقاة حبيبته "تالا"، كان كفيلاً بأن يجعل "ميكاس" ينسى كل شيء عن النبوءة وصاحبها، وسبب قلقه طيلة اليوم الفائت، بعد أن تم كل شيء تقريباً دون أن يحدث ما يُعكّر صفو فرحته وينعّصها لتكون حبيبته اليوم الى جانبه.. (أنها مجرد خزّعات وكلام فارغ لا أكثر، يا لي من غبي كيف يمكنني أن أصدق ذلك).

كان للمحراب حيث تمثال الإلهة "عشتار" المُبجّلة والحركات الهادئة لكبار الكهنة، هيبة خاصة تفوق باقي أقسام المعبد، بسكونه المطبق وعبق الروائح المُسكرة للنفوس من بخور و عطور الصندل التي تفوح منه، ليفرض على الجميع الصمت والسكون. هناك كانت "تالا" تقف الى جانب والدها بثوب عرسها الأبيض الناصع، ساحرة الجميع بجمالها الأخاذ، حتى بدت بصورتها هذه كأنها حورية مبعوثة من عوالم الآلهة، كانت رؤية "ميكاس" لحبيبته وهي تنظر اليه بعينيها اللاهفتين الواسعتين، قد جعله يتعثر بمشيته حتى كاد يسقط لولا شقيقاه، وسط بسمات الجميع، وما أن لمس "ميكاس" يد "تالا" بعد أن قدمها له الكاهن، حتى أرتجف جسمه كله، كانت ذات طراوة ورّقة عجيبة، وكأنها قطعة من الزبدة أخذت تذوب مع حرارة جسده الأخذة بالارتفاع دون شعور، وبعد أن ألبس عروسه هدية عرسها الذهبية، من قلائد وأساور وأقراط، رتل الكاهن بعض التراتيل الخاصة بصوت عالٍ، وأخرى بصوت خافتٍ، طلب من

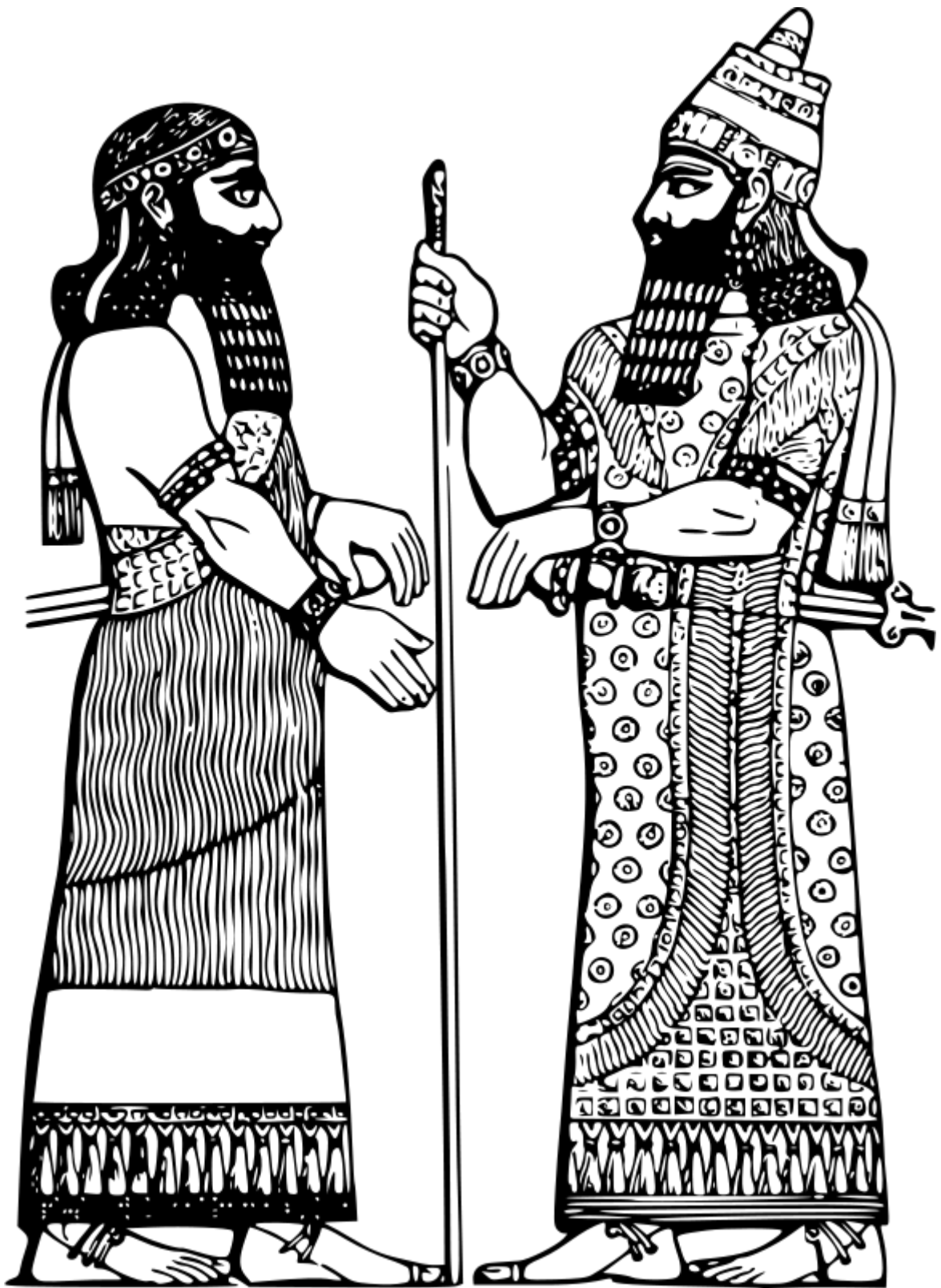
العروسين ترديدها خلفه عدة مرات، ثم ناول "ميكاس" كأساً من الفخار احتوى نبيذاً أحمر، طالباً منه أن يسكب بضع قطرات منه على قدمي عروسه، ثم أعاد الكرة مع نبيذ أبيض، بعدها قدّم للعروسين جرة عطر صغيرة، جعلهما يستنشقان عبيرها، ثم سكب قطرات منها على رأس كل منهما، بعد ذلك قام الكاهن بدعك جبهتي "ميكاس" و"تالا" بخليط من زيتي الزيتون والسّمسم، ثم شبك كفيهما وربطهما بغصن رفيع من أغصان الزيتون، دلالة على بقائهما متحدين، وأن لا تفرقهما مفارقات الدنيا أبد الدهر، ليرتل بصوت عال هزّ صداه جدران المحراب.. (عشّار العظيمة ستحفظكم وترعى حياتكم، عشّار الخالدة ستبارك ذريّتكم وتنير دربكم)، فردد العروسان بعده بصوت عالي.. (مباركة أنت يا "عشّار"، مباركة أنت يا عظيمة الآلهة)، أعلن بعدها الكاهن أن "ميكاس" و"تالا" قد أصبحا زوجين وعلى جميع الحاضرين مباركتهما. تعالت الهتافات في ساحة المعبد بعد خروج العروسين من المحراب المقدس متشابكي الأكف، ترافقهما حتى بوابة المعبد الأغاني والتراتيل، ودعوات الأهل والضيوف الحاضرين، وهم يرشون على رؤوسهم ماء الورد، وينثرون أمام خطواتهم حبوب الأرز والقمح، كي تكون أيامهم مليئة بالخير والمحبة.

ما أن خرج العريسان ومحتفليهم من المعبد حتى تغيّر كل شيء، حيث كانت المدينة تعيش حال آخر لم يشاهدوها به عند دخولهم، حركة غير اعتيادية لم تُعرف أسبابها، عربات عديدة تجرّها الحمير تقف على جانبي الطريق، عند كل واحدة منها يقف حارسان بسيف طويل لامعة، وفي كل عربة حُشر العديد من الشباب، جنود مُدججين بالسلاح ينتشرون في الطرقات والأزقة يدققون في وجوه جميع المارة، تفرق المدعوون بسرعة مخافة ما يحدث، بعد أن أفقدهم ذلك الفرحة والابتسامة، أصاب الخوف قلب "تالا" فاحتضنت ذراع عريسها الحائر كالأخرين بما يجري، ليعاوده في تلك اللحظة استذكار نبوءة الماضي المشؤومة.. (تباً للقدرا! أنها النبوءة)، وكقطيع من الذئاب احاط عدد من الجنود "ميكاس"، سائلين إياه عن عمره، وبعد أجابتهم بأنه ابن الخامسة والعشرين، رد أحد الجنود الذي بدا أعلى رتبة من الباقين.. (سنأخذك معنا، أنت من ضمن الأعمار المطلوبة).

أصاب الذهول والدي "ميكاس" وأشقائه فلم يستطيعوا قول شيء، وهم يرون حال أبنهم المذهول، وعروسه التي تلبّسها الحزن، فقط تجرأ والد "تالا" فسأل ذلك الجندي عن السبب، إذ أن صهره لم يرتكب جريمة أو يخالف أيّاً من النظم والضوابط، وأنه للتو قد أنهى مراسيم زواجه في المعبد، ليجيبه بصلافة وفضافة.. (جميع من في العربات كذلك لم يفعلوا شيء، لكن ألم تسمعوا بالخبر؟ لقد أعلن اليوم ملكنا العظيم "سرجون" الحرب على بلاد عيلام، وأمر بتجنيد جميع شباب المملكة لقتال الأعداء، ليؤجل زواجه حتى تنتهي الحرب، ما أغرب ذلك! البلاد مُهددة بالأخطار وأنتم تزوجون أبنائكم). ثم وجه كلامه الى جنوده.. (هيا خذوا هذا الشاب وضعوه في العربة الثالثة، أن فيها مكاناً يتسع لبضعة شباب آخرين، لازلنا بحاجة للمزيد).

لم يعد "ميكاس" يقو على الكلام أو الرد، إزاء الذي يحصل له عقب موت فرحته لحظة ولادتها، بعد أن سحقتها لعنة الحروب وهمجية صنّاعها، ليلتفت الى عروسه الغريقة بدموعها، قائلاً لها بلسان متلعثم.. (أنها النبوءة قد تحققت أخيراً يا "تالا"، نبوءة القدر الاعمى التي انتظرني كل تلك السنين). لم يفهم الجميع ما قاله وعن أي نبوءة يتحدث، فقط تابعت نظراتهم الجنود وهم يركبوه الى جانب بقية الشباب في العربة، لتسير العربات الواحدة تلو الأخرى مثل طابور الجنائز، حاملة أولئك المُبتلين بجنون وعبثية الملوك الى قدرهم المجهول. أخذ ينظر مع سير العربة وابتعادها شيئاً فشيئاً الى عروسه الكسيرة القلب

وأهله الحائرين، ثم التفت الى باقي الشباب في العربية وقد بدت عيونهم تقدح منها نظرات الغيظ والكره، سائلاً نفسه.. (اللجنة! هل هؤلاء جميعاً قد تنبأ بمصيرهم ذلك الكاهن المشؤوم؟)، ثم نسي نفسه فردد بصوت مسموع.. (عسى أن تحرقك الآلهة يا "سرجون"! عساها أن تحرقك!)، ليباغته أحد حارسي العربية بسرعة.. (ماذا قلت يا هذا؟)، تلافى هفوته بسرعة ليعاود القول.. (لا شيء لا شيء، كنت أقول عسى أن تحمي الآلهة ملكنا العظيم "سرجون"، وتنصره على أعدائه)، قال ذلك ثم أدار وجهه الى خارج العربية، وبصق في الهواء بشدة مُردداً كلمات غير مفهومة.



## شُجون الحَمائم

رغم أن الوقت كان صيفاً والشمس في أوج ضيائها، لكن ظلمة حالكة غريبة خنقت المكان، مُنبئة الأيام القادمة بحداد طويل الأمد، الوجوم خيم على وجوه الجميع، قطرات بطيئة من محلول لا لون له كحال أيام شعب "سومر"، أخذ أحد الرفاق يسقيها فم الرجل الممدد داخل خيمة مهلهلة عند طرف المدينة، ظن الجميع أنها ستبقيه معلقاً بخيط الحياة الواهي، بعد أن مزقت السهام صدره، أنفاس رتيبة هادئة ونبضات أخذة بالتباطؤ شيئاً فشيئاً، عكس قلوب المحيطين بالرجل التي كادت تخرج من صدورهم خوفاً وقلقاً، مثلهم آخرون يقفون خارج الخيمة، أفئدة غاضبة يعصرها الألم، صمت، ترقب، خصلات الشعر ما كانت تصمد بوجه التوتر، الجميع ينظرون، يدعون، يبتهلون لجميع الآلهة، ذاكرين عن ماض كهنتها، ودجلهم وما يرددوه من زيف الكلام، عل ذلك يأخذ بيد مصابهم و يُعجل بعافيته. الحركة تزداد، همهمات عالية، يتوافد الرفاق للدخول بسرعة الى الخيمة، فجأة يتوقف كل شيء النبضات، الأنفاس، صرخة مدوية، يتبعها صرخات هستيرية متوالية، بكاء، عويل، أنتهى كل شيء، لتنسل الروح الطاهرة النقية من رداها متحدية الجميع، سالكة طريقها الفسيح حيث خلود الآلهة.

أيام، شهور، سنون تمضي، دهر كالحة دقائقه يلف الجميع، قطرات الدمع ما توقفت، أهات الفراق ما صممت، حشرات الوداع ما انقطعت. أم متعبة صابرة لم تنحن هامتها أو يتهاون صمودها مذ عرفت درب زوجها الشهيد، وأفكاره السامية الحاملة بخلود "سومر"، بعين ترنو الى تضحية رفيق حياتها وفراغ في بيتها الصغير أحدثه غيابه الابدي، عجزت أن تعوضه غزارة دموعها الدافئة، وبأخرى تحنو على أربع حمائم صغيرات، تفتحت عيونهن على غياب أب شجاع حنون، لم يتبق منه سوى طيف هائم يظل بجناحيه على صغيراته، لترافق مسيرة طفولتهن حيرة وسؤال عن سر ذلك الغياب.

البصائر بدأت تستفسر، الأسئلة أخذت تتوارد على الام المفجوعة، بعد أن ظلت طيلة ما مضى من أيام عجاج قاسية، كاتمة حزنها والمها، مخبأة جرحها النازف أمام حمائمها، اللواتي بدان يفهمن الواقع الأليم، لم يعد الانكار واختلاق الحجج يجديان نفعاً مع الحمام المتلهفات للمسات حانيات من أب مبتسم عطوف، لتكتشف مرارة الحقيقة وهول الفاجعة وعظم المصاب، رحيل دون عودة، غياب بلا رجوع، سفر نسي الاياب، ضريبة قاسية فرضها وطن جريح على ابنائه الاوفياء، ليفضل ذلك الفارس المترجل عن صهوة جواد الحرية، دروب النضال ووحشتها على نفسه وعائلته رغم الحب والشوق، كانت أرض الرافدين أغلى، ومجد "سومر" أسمى، وسعادة أبناء شعبه هي الهدف والهاجس والغاية، كان مستقبل المسحوقين والبنائسين قبل حياته وحياة عائلته، وهم الأولى بالكفاح والتضحية، لهذا صار الغياب، من أجل ذلك كانت الشهادة وأسطورة الحزن .

ضحكات القتلة الحاقدين يعلو صوتها، الطغيان يزداد يوماً بعد يوم على الارض الصابرة، مخالِب مجرمي وأعوان الملك، تغور أكثر فأكثر في جسد الشعب الجريح الصابر، قوافل الضحايا تسير موازية لأنهار دماء الشهداء، "سومر" ملتبهة ثائرة، مدن الرافدين تغلي، مهالك الحروب في الاقاليم البعيدة تحرق يابس الوطن وأخضره. طيف الشهيد يظهر لحمائمه محتضناً اياهن بدفنه السرمدى، لا فائدة،

غدت "سومر" سجنًا كبيراً لأبنائها، كلاب الملك في كل مكان، ملاحقات، مدهامات، اغتياالات، عوائل الرافضين لحكم الطغاة تحت رحمة العيون والأبصار، لا مجال بعد الآن للعيش في غابة الذئاب، الهجرة الى بلاد أخرى هي العلاج والدواء، النظر من بعيد الى وطن يشتعل أهون من الحياة وسط أستعار اللهب. رغم قسوة القرار لكنه كان، لم يأخذ من بيتهم الدافئ شيئاً سوى بضع حاجات عتيقة للشهيد، وجرح ندي محال أن يندمل، لتأتي سنوات قاسية أحر، تجري معها دورة أفلاك الغربة وذلاًها، حياة باردة، بطيئة، رتيبة، مملة، أفكارها، عواطفها، أخلاقها، باردة برودة الموتى، هي الغربة أينما كانت وتكون، قطع للجذور وابتعاد عن المنبع، لتظل عيون الحمام ترنو باشتياق الى عشاها القديم الجميل، رغم ما أصابه من هدم وحروق.

رياح الحرية تهب، نسمة باردة من عقب الانعتاق تلامس وجوه المظلومين، ها هو أخيراً قد أتى، يوم موعود انتظرتة جماهير "سومر" على جمر آخر من مآسي الوطن، تغيير فرضته قواعد الطبيعة، على كل من يسير بعكس مسيرة التطور وإرادة الشعوب وتطلعاتها، يوم أفرزته تناقضات همجية حكم أحرق، وجنون اعمى لملكٍ مستبد لم يستأسد إلا على ابناء شعبه الصابرين، ساق ارض الرافدين الى غياهب الظلام وعتمة المستقبل، سقط تمثال الملك، ها هي النعال تنهال على رموزه القبيحة، مصحوبة ببصاق شعب أزدري حقبة مريرة سوداء من عمر الوطن، لتذهب مع صانعيها الى مزابل التاريخ.

الملك يُلقى القبض عليه مرتعداً كالجرذ في أحدى الجحور، الأم مع حمائمها تسمع الخير الذي هزّ الدنيا، فرحة حبيسة في الصدور قد تحررت، أمل يعود لأرض الشهيد، ستنبت براعم الحرية من جديد بعد أن روتها دماء الشهداء، عودة لواحة الخير باتت وشيكة، طيف الشهيد يبعث من عوالم المجد بابتسامته المفعمة بالأمل، مرافقاً أهاليهم الحرية وفجرها الواعد، مشاركاً شعبه فرحته بغبش أنعتاقه وأصيل تحرره، ها هي طغمة المجرمين قد ولت الى غير رجعة، الشعب على موعدٍ مع شمس حياته الجديدة، لقاء النهرين قد حان، ساعة الرجوع دقت أجراسها، هكذا قالت الحمام وجموع ابناء "سومر" الاوفياء المُبعثرين على خريطة العالم، سنلحق بركب الأختيار الحالمين بوطنهم الأمل ومستقبل أرضه المعطاء، الحمام عُدن صغاراً كما كُن، يتراقصن حول طيف الشهيد المتوج بأكاليل غار الجنان، أخيراً سيلتم الشمل حتى ولو مع بقعة صغيرة من ارض الوطن احتضنت ذلك الجسد الشريف، هناك سيكون الموعد واللقاء.

لكن ما هذا ؟ احتلال، ضجيج، فوضى. من هذا؟ من ذاك؟ من هؤلاء؟ أقدام غريبة متسخة تطأ ارض الرافدين، أشباه بشر، أنصاف رجال، أفواه عريضة تكشف عن أنياب قبيحة دامية، دماء، خراب، دمار، قطع رؤوس، الموت مرة اخرى، القتل هواية ولعبة ومنهج، الظلم من جديد، لحي طويلة وملابس غريبة، خواتم ضخمة كالتي في أصابع المشعوذين، تجمعات سوداء لقيطة، غربان الملك بلباس آخر، الملكية البغيضة تنهض من قبرها، الهمجية والتوحش أنبتت لها جذوراً في الارض بعد اقتلاعها أزاهير التمدن، كل يريد فتكاً بنخيل النهرين.

طيف الشهيد يظهر مرة أخرى، غاضباً مُتجهماً، عيونه حيرى، يعلو وجهه ذهول واضطراب، متسائلاً بدهشة.. ( أين "سومر"؟ هل سرقت من جديد؟ هل أحرقت أحلام شعبها؟ هل ذبحت طيورها بسيف الجلادين؟ هل اغتيل الأمل مرة أخرى؟). لتلاقيه لوعة عيون الام المخضبة بالحزن، ترافقها دمعات حمائمها المتشحات بالأم السنين، ليس عندهن الاجابة ولا عند غيرهن، لم يكن لديهن سوى سؤال واحد صعب حير الجميع.. (أي قدر هو قدرك يا "سومر"، أي قدر هو قدرك؟ أهكذا يتم قتلك في كل حين،



لتغدين مجرد طيف هائم يلامس أنفاس الوجود؟)، لتجيب أرض الخير حيرتهن باسمه رغم غور جراحها وإيلامها.. (وهل تموت من تعمدت بمياه الرافدين وجرت دماها في سواقيها؟ قد أموت مرات ومرات، لكنني سأظل دوماً أبعث من جديد، ممزقة كفني، صارخة بوجه الأيام، حالمة بفجرٍ وليدٍ وشعبٍ باسمٍ سعيد).



## شجرة السومريين

(لا تشرد أيها السومري، واصل عملك).. هكذا تلقى "أوركيم" صيحة مراقب العمل الذي يبغض حد العماء أولئك المنفيين من البلاد الأخرى، واصل بعدها متابعة عمله المُضني الذي أعتاد احتمال معاناته، بتحميل البضائع في ميناء السفن، والذي جعل من ظهره مع مرور الأيام ينحني وأنامله تفقد القدرة على الشعور، رغم ثقل تلك المهنة وما تحطه من كرامته وإنسانيته، لكنه تحمّل قساوتها بجلدٍ منذ سنوات بعيدة لم يعد يذكر عددها، حين قدم الى هذه البلاد تاركاً "سومر" طمعاً بسلام يتدفأ به، بعد أن مزقتها مَخالب الظلم، وشوهت جمالها نيران الحروب، لكنها كانت الوحيدة المتاحة له لكسب كفاف العيش ويجنبه مذلة فاقة اليد، كونها لا تتطلب تعلم الكثير من لغة أهل هذه الأرض التي أرضى العيش فيها على مَضض، بعد أن ظل طيلة ما مر من حياته فيها يتملكه حلم وردي أثير بالعودة يوماً الى وطنه الغافي بين ذراعي دجلة والفرات.

لكن حتى مع تلك الصيحة وما حوته من معنى الإهانة، لم تنطفئ ابتسامة "أوركيم"، مع شعور الفخر الذي ينتشي به صدره في هذا الوقت من كل عام، حيث تمرّ غداً نساءم اليوم الخالد المزروع في كيان جميع أبناء "سومر"، والذي لم تستطيع آلام السنين من محو صورته الزاهية المعتمرة في قلوبهم، أنه الرابع عشر من تموز، ذكرى تلك المأثرة العظيمة التي حققها شعب الفرات، حين وحدهم قائدهم الأمير "أوتوحيكال" ليطردوا فلول "الكوتيين" البرابرة من أرضهم ويطهروها من دنسهم، مُعيدين البسمة لتلك البقعة الجميلة الزاهية، التي لا تعرف سوى الحب والخير، لكن هذا العام كان لبطولة تموز طعم خاص وعبق جديد، أنها ذكراها المائة والخمسون.

فتح باب بيته الخشبي الصغير والفرحة تأبى مبارحة قلبه المأسور بحب وطنه، الواثق بختمية انتصار السلام يوماً فيه، جلس على سريره ثم مد يده الى الجانب الآخر منه مستذكراً زوجته وشريكة نضاله الراحلة، قبل برفقٍ وسادتها الناعمة، ثم وضع وردة قرنفل حمراء ندية عليها.. (أنه تموز يا "أيناسا" يعود الينا من جديد وأنت بعيدة عني). عشر سنوات مضت على فراق رفيقة دربه، لتتركه وحيداً حزيناً في هذه البلاد الباردة، المتفاخرة بتعذيب الغرباء ممن أبتلوا بظلم أوطانهم، ليضيف رحيلها الى قلبه المتخم بهموم شعبه عبر كل تلك السنين، جُرحاً جديداً أستحال وقف نزيفه، فلم يعد يحتمل المزيد من الآلام، ليقرر الانعزال عن الجميع، واهباً ما تبقى له من العمر ليعيش ذكريين، هما كل ما تبقى له تشعرانه بوجوده وإنسانيته، أولهما زوجته الحبيبة، والأخرى يوم الرابع عشر تموز.

كانت الغربة قد صقلت ببرودتها شخصه، لتحوّله الى مجرد كائن حي، نسي حرارة العواطف والمشاعر الإنسانية التي جُبل بها في وطنه "سومر"، ليُجهز على ما تبقى من أحلامه وحنين ماضيه، غياب نصفه الآخر المتمسك بالسعادة وبهجة الحياة، حتى بعد أن حرمتها أقدار الحياة وظلمها وعدم عدالتها من عنوبة الطفولة، فجعل منها طفله الجميلة المدللة، التي طالما حلم بها وهي تلهو بين ذراعيه رافضاً أن يزاخمه بحبها أحد، واتخذت هي منه بالمقابل أبناً الوحيد، الذي سيكون سندها وحاميها ما أمتد بها

العمر.. حسرة من القلب أطلقها "أوركيميا" ثم ردد بصوت حزين.. (رحلت باكراً يا "أيناسا"، باكراً جداً أيتها الغالية).

في هذه العام قرّر بجرأة لا يعرف مصدرها أو كيف تملكته، من كسر عزلته القاتلة التي حكم على نفسه بها، وأن يحتفي بهذا اليوم العظيم كما اعتاد أن يفعل دوماً مع زوجته، الى جوار جميع رفاقه وعموم المنفيين من أرض الوطن، عند شجرة الكستناء الضخمة في الحديقة الواسعة عند ضاحية المدينة، حيث يلتقي بأقرانه ممن أجبرتهم زوابع القهر من ترك أرضهم العزيزة، التي أرتوت بعرقهم وكدماء أسلافهم، وأن يتركوها مكرهين بعد أن لوّثت صورتها الجميلة فوضى الصراعات، والتهمت خيراتها غرائز التمسك بالعروش.

صادف أن تكون ذكرى ثموز في اليوم الاخير من الاسبوع، حيث تُعطل الحياة في بلاد الغربية وتتوقف الأعمال، ليتفرغ الناس للعبادة وارتياح مزارات الآلهة، وما أن بزغت أنوار الصباح حتى أرتدى "أوركيميا" جميل حلته وبالغ في تأنقه وتعطره، توجه بعدها الى جارتها العجوز الطيبة بائعة الزهور، ليبتاع منها باقة من ورد القرنفل الاحمر الذي تعشقه "أيناسا"، استغربت البائعة جمال طلته التي لم تره بها منذ أمد بعيد، إضافة الى شرائه باقة الورد الحمراء، فالיום ليس ذكرى زوجته ليزور قبرها، فمآزحته رغم معرفتها بمدى وفائه.. (أخيراً سيودع "أوركيميا" حياة العزوبية ويخطب امرأة جديدة)، دفع لها ثمن الورد ربع شيفل من الفضة، ثم أجابها مع ابتسامة عريضة.. (صدقت يا صاحبة القلب الحنون، اليوم سأخطب أروع فتاة في هذه الدنيا، فتاة حار الشعراء بوصف جمالها، تدعى "سومر").

كانت شجرة الكستناء العملاقة لم يتغير شيء من شكلها منذ أن رآها أول مرة، تفرض هيبتها على جميع ناظرها، وهي تنتصب شامخة صامتة، متحدية بإباء تقلبات الدهر وتتابع الأزمان، كأنها أم جلدة صابرة خبرت مفارقات الأيام فأبّت الموت، لتظل صامدة تحكي لتعاقب الأجيال، قصصاً تغور في عمق التاريخ، واهبةً حلو ثمارها للجميع، تاركة أغصانها تمتد بعثية في كل اتجاه، لتظل على كل عابر سبيل فقد دفاً الدار، وغريب ضيعه غدر الزمان، وتائه حائر بزمانه تقطعت به السبل، حتى غدت مع مرور الأيام ملتقىً لأبناء "سومر" ممن أبتلوا بمنفاهم، ليزدحم بهم المكان ويضيق، حتى سمى أهل البلاد هذه شجرة "شجرة السومريين".

عند الشجرة وقف "أوركيميا" حاملاً وروده الفواحة بالأريج، والناطقة من دون كلام بتعابير المحبة والسلام، أخذ يتلفت يميناً ويساراً مُستفقداً رفقة الأمس، كأنه ينتظر معشوقته الجميلة على أحرّ من الجمر، ثم جعله طول الانتظار يُعيد النظر بأغصان الشجرة وتشعباتها، حيث بدت كمتاهة لا توجد إلا في مخيلة الغرباء وحيرتهم بمستقبل أيامهم، متذكراً سنين بعيدة مضت، حين قدم مُكرهاً الى هذه البلاد مع بضعة من رفاقه المنفيين المُبتلين بحب "سومر"، والصارخين بحريتها وكرامة أهلها، المطالبين بانعاقها من ظلم أولئك الذين جعلوا من أبنائها عبيداً أذلاء لهم، آنذاك كان الرفقة قد أخذوا من شجرة الكستناء ملاذاً ومستقراً لهم أياماً عديدة، حتى تدبروا أمرهم في أرض منفاهم، عاطفة غريبة شدّت الرفاق لهذه الشجرة منذ الوهلة الأولى، كونها ذكرتهم بشموخ نخيل بلادهم وغاباته المكتظة على ضفتي الفرات، حين تتعانق السعفات الطوال مع بعضها لتظل على مراح تلك الأرض الطيبة.

مع أنتصاف الظهيرة أخذت خيوط اليأس تتسرب الى فكر "أوركيميا".. (يا ترى هل سرقت دوامة الغربية اللعينة ذاكرة الرفاق فأنتسهم ذكرى هذا اليوم؟ أم تراهم جميعاً قد اختطفتهم اشباح الموت؟). رغم حرارة

الشمس لكن ورود القرنفل ظلت يانعة، تأبى أن تستقبل هذه الذكرى إلا وهي بأبهى رونقها، تتفاخر بجمالها وديمومة حياتها العصية على الفناء. (ثُموز مبارك، كل عام وأنت بألف خير)، كان احد رفاقه القدامى قد جاء على عجل حاملاً وروداً حمراء من الجوري، بدى كحاله هو قد أنشبت فيه مخالب الدهر وأخذت تأثرها منه، ومع تبادلها التحايا وكلمات المودة والشوق واستنكار الماضي الجميل، ها هو رفيق آخر يهّل ثم ثالث ورابع.. (كل عام وأنتم بخير يا عشاق الفرات)، ماهي سوى دقائق حتى اكتظت الحديقة بأبناء "سومر"، وهم يتجمعون حول شجرة الكستناء التي استحقت أسمها من جديد "شجرة السومريين"، كان الجميع يحملون وروداً يانعة، رغم تنوعها واختلاف أشكالها، لكن جميعها كانت حمراء اللون، نابضة بالحياة مثل قلوبهم الحاملة وآمالهم التي أبت إلا أن تكون في ريعان الشباب.

بدا الزمن لـ"أوركيم" كأنه يعود أدراجه، بخلاف قواعد الطبيعة وحسابات المنطق، وأن السنين أخذت تسترجع ماضيها الجميل، جميع الرفاق هنا، رغم آلام السنين وبياض الشعر والظهور المَحنية، لكن الهامات كما عرفها وعهدا وشاهدا فيما مضى مرفوعة أئية، والكبرياء السومرية بادية بوضوح على الجباه رغم الأجساد النحيلة المنهكة، الجميع كانوا يبتسمون لأيام قادمة أجمل، متحدين بكبرياء غريب لا يلبق إلا بشعب النهرين، قساوة الأيام ومعاناة غربتهم القسرية المضنية، صور وعلامات زاهية مرسومة على صدورهم المفعمة بالأمل، وبمستقبل واعد جميل لا بد أن يحيي يوماً وطنهم الصابر الجميل.

تبادل الرفاق الورود والأحاديث الأثيرة، واستنكار متأثر ذلك اليوم الخالد، استذكروا الامير "أوتوحيكال" وبطولات جنوده، وهم يعلنون النصر في حرب تحررهم مع خسوف القمر بفأله السيء على "الكوتيين"، آخرون أخذوا يهزئون من ملك الأعداء حين جُلب مقيداً ليضع قائدهم قدمه على رأسه، والبعض كان يتفاخر بشجاعة النسوة وهن يقرأن الأناشيد والأغاني، كي يحفز الرجال على الثورة وقتال غاصبي أرضهم واسترجاع مجدهم السليب، ومنهم القى أشعاراً وخطباً كان يعدّها منذ أسابيع لهذا اليوم المجيد، بطولات ونضال وصبر جاوز كل الحدود، كانت بحق أوسمة فخر زينت ضمائر هؤلاء الأوفياء، لم يبق منها سوى حكايات وذكريات دافئة يرووها لجميع الناس، يحكون قصة شعب ظل شامخ الهامة، يرسم بعرقه ودمائه لوحة الخلود .

مرّت الساعات سريعاً دون أن يشعر بها أحد، وكأن الجميع كان متعطش لذلك اللقاء الذي خططت له ونفذته دون شعور، القلوب الوفية الصادقة المفعمة بحب وطنهم.. (هنيئاً للجميع ذكرى ثُموز، كل عام "سومر" وشعبها بألف خير)، (مجداً لك يا "سومر"، خلوداً لمآثر شعبك العظيم). ودّع الرفاق بعضهم بكلمات الأمل والامنيات الطيبة، والابتسامات لاتزال رفيقة أفواههم، على أمل اللقاء في نفس المكان العام القادم، وكأنهم اختزلوا الزمان فعادوا شباباً ملؤهم الحيوية والنشاط، رغم غدر الزمان وطعناته القاسية التي سلبت منهم تاريخهم العظيم، ووطنهم الفسيح بنسائمه المحملة بالمحبة والطيب، هكذا هم أبناء "سومر" اعتادوا غرس نبتة الحياة أينما حلّوا، واهبين غصن الأمل لأجيالهم القادمة الواعدة .

مع تفرق الرفاق وخلوّ المكان من رواده، عاد "أوركيم" الى وحدته من جديد، وفي قرارة نفسه لم يكن يرغب بالمبارحة، بعد أن صوّرت له الساعات الماضية كأنه يقف على أرض وطنه، نظر بعيون الحب الى شجرة الكستناء، ثم ردد بصوت هادئ ملؤه الشجن.. (كل عام وأنت بخير يا "أيناسا"، كل عام وأنت بخير يا حبيبة العمر، أتمنى أن يكون لقاء ثُموز القادم تحت ظلال نخيل بلادنا)، ردد ذلك وهو يضع عند جذع الشجرة وردة قرنفل حمراء، ثم سار بخطى ثابتة عائداً الى بيته، والابتسامة العريضة لازالت مرتسمة على وجهه.



## بَعِيداً عَن نَيْنُوى

تدور أحداث هذه الحكاية عام 639 ق.م، خلال الحملة العسكرية التي شنّها الملك الآشوري آشوربانيبال للقضاء على مملكة عيلام

تواصل انهمار السهام كالمطر من كلا الجانبين على الجنود المتحاربين، الذين وصلوا ركضهم العشوائي المتعرج، في كل اتجاه من ساحة القتال وهم يحنون أجسادهم، بحثاً عن دريئة أو ساتر طبيعي يقيهم النصال الفاتلة. كحال الباقين أخذ "أيلوشي" يعدو لاهثاً مُتعثراً بمن يسقط من المقاتلين، يبحث دون شعور هنا وهناك علّه يجد مخبأ ما يبقيه على قيد الحياة، بعد أن امتلأت الساحة بجثث القتلى التي غطتها الدماء والوحول فغيبت هويتها، فلم يعد يُعرف الى أي من طرفي الحرب تعود، هل كانت لجيش "عيلام" أم لجيش "آشور"، نسي في تلك اللحظات التي أستباحتها صورة الموت كل شيء، الآلهة وإرادتها الظالمة الراعية لحماقات الملوك، دعوات الكهنة المتزلفون بالنصر، خطب قادة الجيش الرنانة المحفزة على القتال، المعابد الدهماء المُتبجحة بإصدار فتاوى شن الحروب، كل تلك الرموز غدت بالنسبة إليه ويلمح البصر مجرد أو هام سرعان ما تبخرت مع اشتداد أوار المعركة، حتى الأدعية القليلة التي لقتها له والدته عنوة، مدعية أنها ستحفظ حياته وتبعد عنه الشرور، طارت جميعها بلحظات من ذاكرته، التي لم يتبق فيها سوى عبارات السباب والشتائم التي حفظها إياه كرهه المطلق للملوك ومغامراتهم المجنونة، فظل يرددها بصوت عالي سوية مع عدو ساقيه.. (اللعنة عليك يا "آشوربانيبال" وعلى جدك "سنحاريب"، اللعنة عليكما وعلى اليوم الذي أصبحتم فيه ملوكاً علينا). أنه الآن وجهاً لوجه مع شبح الموت الذي بدا مكشراً عن أنيابه، يروم افتراس كل من يقف في طريقه، كان يعتقد حتى الماضي القريب أن جلدّه وبأسه، سينجيانه عند الأوقات العصيبة، لكن تلك الثقة العمياء سرعان ما زالت أمام واقع ما يجري، فحرب ضروس طاحنة في أرض نائية غريبة تبعد عشرات الساعات المضاعفة عن بلاده، لا يمكن مقارنتها بتمارين المصارعة التي برع بأدائها في ميادين مدينته "نينوى".

لم يدر "أيلوشي" بحاله أو يشعر بجسده الخائف المنهك ونفسه اللاهث، إلا وهو يقفز الى داخل حفرة عميقة، كانت إحدى الفجوات الأرضية التي أنتجتها سيول الأمطار، لا يعرف كيف أرشدته غريزة حب البقاء إليها، بعد أن غطت الأعشاب فوهتها فأخفتها عن الجميع، ولم يشعر بمقدار عمقها إلا من شدة ارتطامه بقعرها، لكنه لم يبال لما أصابه من رضوض نتيجة سقوطه، فأنها أهون كثيراً بما لا يمكن أن يحسب، لو بقي مكشوفاً أمام السهام المتطايرة التي كانت تمزق كل من تجده أمامها. كانت الحفرة شبه ظلماء لعمقها وصغر فوهتها، بغطائها العشبي الكثيف الذي لم يسمح سوى ببعض خيوط الضوء من المرور عن خجل إليها، فلم تستطع عيناه لأول وهلة من تحديد حجمها وتوجه حافاتها، كان همّه الأول أن تخفيه أطول وقت ممكن، عما يدور من اقتتال شرس عنيف المنتصر الوحيد فيه هو الموت. ظل ملتصقاً بجانب الحفرة، متأملاً أن تبقى بعيدة عن نظر باقي الباحثين عن مخابئ لهم، فقد غدت منجيبته الوحيدة عما يجري في خارجها، حيث كانت أصوات ضرب الهراوات وصفير السهام وصليل السيوف

على أشدها، يقابلها صيحات الألم وصراخ الجرحى وتساقط الأجساد الثقيلة، ليشكل كل ذلك مشهد رعب يدعو للشعريرة.

الوقت يمر بطيئاً وعينا "أيلوشي" أخذتا تتأقلمان تدريجياً مع عمّة قاع الحفرة، وانحسار ضياء آخر النهار، لتخفت مع قدوم حلقة المساء تدريجياً حدة القتال حتى همدت تماماً، حيث يستغل طرفي الحرب هدوء الليل، لراحة الجنود وأجلاء المصابين والجرحى استعداداً ليوم جديد من نزيف الدماء. ظل يفكر مع نفسه يا ترى هل يستطيع الخروج أم أن عليه البقاء في مخدعه فترة أطول، خشية أن يراه أحد حرس الليل الأشوريين فيُعرف هروبه من القتال، فيكون مصيره القتل أمام باقي الجنود بتهمة الجبن والتخاذل. لم يدري كم مضى عليه من الوقت، لكنه تنبّه فجأة لترتجف أوصاله، عينان لامعتان تنظران إليه وسط ظلام الحفرة، أعتقد أنها لذئب أو ضبع هائم راعته مشاهد القتل والأجساد الممزقة المتناثرة في كل مكان، ليولي هارباً ويتخذ من هذه الحفرة ملجأً يصدّ عنه وحشية البشر ودمويتهم، التي بدا خجلاً أمام شراستها وانعدام رحمتها، لكن مع أمعان "أيلوشي" النظر في شريك مخبأه وتوضح هيئته تبين غير ذلك، كان رجل طويل القامة يستند الى الحافة الأخرى من الحفرة، لم يتردد من مخاطبته ظاناً أنه أحد أقرانه من الجنود الأشوريين، كي يطمئنه ويعرفه بهويته.. (تابع لأي فصيل أنت أيها المقاتل؟)، ليردّ عليه الرجل بصوت أجش وبلغة لم تكن آشورية، لكنه كان يعرف أنها لغة أهل "عيلام"، والتي تتعلم شيئاً منها خلال تعلمه في مدارس "نينوى" .. (أنت لست عيلامياً؟)، سؤال مقتضب بالآشورية يلاقيه سؤال آخر محدد بالعيلامية، كانا يكفیان ليعرف كلا الرجلين حقيقة الآخر، تبسّم الأثنان في مكانيهما من شدة المفاجأة التي لم يتوقعانها، بعد أن ظن كلاهما أن المقابل أحد مقاتلي بلده.

بسرعة تقودها غريزة الخوف وحماية النفس، أسئل كلا الرجلين خنجره منتظراً ردة فعل غريمه، بعد أن عرف أنه عدوه المفترض في الحرب ومنافسه الأزلي في الحياة، وفق إرادة الملوك وتضارب مصالح عروشهم، البعيدة كل البعد عن أمانى الشعوب الحاملة بالسلام مع أقرانهم من بني البشر. ظل الرجلان يقفان متاهبين عند جانبي الحفرة، مُترددين في بدء الهجوم أو التوقف عنه، ومع مرور اللحظات القلقة المتوجسة، أخذت حدة المفاجأة بالخفوت، بعد أن تمكنت الطبيعة البشرية الراغبة بالحياة من العودة الى رويحيهما، وثبوت راحة العقل ورصانة التصرف، حيث أيقن كل منهما ما يدور في خلد الآخر بعدم رغبته بالمواجهة، وأن غريمه مثل حاله تماماً، قد جعل منه قدره الأعمى لعبة تتقاذفها أكف الموت والحياة، فأكرهه على خوض غمار حرب عقيمة، لم يعرف لها هدفاً أو معنى سوى الدمار، لتدفعه أمنية النجاة دون أن يدري، الى هذا الملجأ الذي وهبته الطبيعة رافة لأولئك المُكرهين على خوض هذه المأساة العبيثية. أعاد الأثنان سلاحيهما الى غمديهما ثم تراجعا الى جانبي الحفرة مواصلين النظر ببعضهما.

\_ هل أنت مصاب أيها العيلامي؟ (بهدهوء وبلغة عيلامية ركيكة سأل "أيلوشي").

لم يجبه، فقط واصل التحديق فيه، وكأن الريبة والحذر لازالت تساوره اتجاه ذلك الأشوري الغريب، الذي التقاه من دون موعد أو سابق تخطيط، فعاود "أيلوشي" سؤاله ثانية..

\_ لم أنت في الحفرة تاركاً رفاقك يقاتلون؟

تراجع العيلامي قليلاً ثم جلس القرفصاء ساندأ ظهره الى حافة الحفرة، ليردّ بهدهوء لكن بنبرة تنم على الحيرة..



\_ الجميع في هذه الحرب مصابون في عقولهم، لا أرى سوى ذلك.

صمت قليلاً ثم تابع بلسان مرتجف وكلمات منقطعة، لم يكن ارتجاف الخوف لكن من حدة الغضب..

\_ هل تستطيع أن تخبرني أيها الآشوري لم تُسال كل تلك الدماء؟ ولم تُزهق كل تلك الأرواح، لأجل ماذا؟

لم يجبه "أيلوشي"، فما قاله العيلامي هو تماماً ما يحيرُه وجميع المكتوبين بنيران الحروب، سنوات وسنوات مرّت وأهل "آشور" لم يعرفوا شيئاً من حياتهم سوى لغة السلاح، وخطب الحروب والتفاخر بانتصارات عبثية لا طائل منها، ولم يحصلوا من جرائها سوى موسيقى الجنائز، وهي تصاحب يوماً أجساد القتلى العائدين الى "نينوى" من تلك المهالك، حرب في "بلاد الأراميين"، وأخرى على "أرض النيل"، ثم حملة كبرى باتجاه "عيلام"، في كل يوم حرب جديدة، حتى غدت كلمة السلام غريبة على شفاه الناس.

شعر "أيلوشي" بالعيلامي يتحرك بين أرجاء الحفرة التي لم يتبين حتى الساعة حقيقة حجمها، ولا من تفاصيل شكل رفيق مخبأه، سوى طول قامته ونبرة صوته من خلال الظلمة التي تلف المكان، تبين له أنه يجمع ما كان في أرضية الحفرة من أوراق شجر وأغصان متكسرة، ثم بسرعة وبطريقة احترافية لم يشعر بشيء منها سوى صوت احتكاك حجرتين يرافقه نفخ بعض الهواء، لتتأجج كورة لهب صغيرة، أخذ يطعمها ما جمعه من كسر الأغصان لينير ضيائها المكان. لم تكن الحفرة كبيرة، فقط بضعة أمتار، ثم أخذ يتمعن في هيئة رفيقه بعد أن أخذت ملامحه تتضح شيئاً فشيئاً، محاولاً تحديد شخصيته. بدا مثله قوي البنية، حاد القسماط ذو لحية كثة، لم يرى في قوة جسده الواضحة، أنه ابن مدينة أو تحضر بل ابن ريف، من أولئك الذين يعتاشون لفقر حالهم على ما توجد البرية به عليهم، كانت ملابسه الرثة الممزقة تُشير الى أنه من أدنى رتب الجنود، أحد أولئك الذين يجلبون عنوة للقتال، أما عقوبة لهم أو لذين لأحد الأثرياء لم يستطيع سداه.

جلس العيلامي القرفصاء خلف النار التي أوقدها دون أن يدعو شريك مخبأه إليها، الذي جلس عند الجانب الآخر من الحفرة، صدقت فراسة "أيلوشي" في عائدية شخصيته، حيث بدا خشن الطباع وليس ابن معشر أو تحضر، رغم نغمته على الحرب وصناعها، فوجه اليه سؤالاً ذي مغزى، مُحاولاً استدراج ما يدور في عقله..

\_ أتساءل كم كنا سنعمّر بلادنا ونشبع الجياح فيها، لو أننا أنفقنا عليها كل ذلك الذهب، الذي يبذره ملوكنا على الأسلحة وأدوات هدم الأسوار؟

\_ أنت من أولئك الحالمين بأوطان تزدهو بالسعادة والسلام؟ لا تظن أيها الآشوري أن بلادنا ستري الخير والاستقرار يوماً، طالما ظل هؤلاء الملوك يستمتعون بجعل جماجم الناس كؤوساً لاحتساء نبيذهم، أنهم يعتبرون الحروب مجرد لعبة مُمتعة ترفه عن نزواتهم المريضة.

ضحك "أيلوشي" بصوت عال وهو يهز رأسه لاقتناً نظر العيلامي اليه، ظاناً أنه يهزأ من كلامه أو التشبيه الذي أطلقه، ليجيبه بغم مُبتسم..

\_ يا لسخرية القدر ومهزلة المفارقات، في "أسور" حين يُقتل أنسان إنساناً آخر، فإنه يُطارَد ويحاكم ثم يُعدم، وسط تفاخر الناس بأن في بلادهم شرعت أولى قوانين الدنيا، كي تنصف المظلومين وتعطي كل ذي حق حقه، لكن من يقتل العشرات في الحرب، فإنه يغدو بطلاً في نظر الملك، الذي يقلده قلادة من الذهب كتلك التي تعلقها البغي في رقبتها لتدل عليها.

\_ قتلة الحروب بغايا من نوع آخر، وهم يرون قتلاهم ليسوا بشراً يبادون، بل أرقام يتباهون بحسابها، مجرد فئران لا أكثر.

\_ يقتلون ويقتلون ويقتلون، ثم يضحكون على العقول الساذجة، ويقولون أن مقدرات الآلهة وحكمتها البعيدة عن الإدراك هي من أمرتهم بذلك.

\_ تباً لتلك الآلهة! التي لم تعطي القوة إلا للملوك والأثرياء، وتباً لمن يمنحها القرايين! أنها أشدّ قذارة من هؤلاء الملوك، الذين صنعتهم على شاكلتها المتعطشة للانتقام من بني البشر.

\_ أولئك المتباهون بعروشهم، الناقمون على بهجة الحياة الكارهون لها، الساخرون من آلام الشعوب، والمتفخرون بإباحة الموت.

مع تبادل تلك الجمل المقتضبة التي أفرغت بعض الغييض الذي أعتمر به قلوبهما، وأفصحت عن ما يفكر به رفيقه غير الموعود، طغى على صدريهما شيء من الارتياح. أخرج العيلامي من جعبته المعلقة بكتفه قطعة خبز، قسمها الى نصفين ثم رمى بإحدهما لـ"أيلوشي"، الذي تناولها مع إيماءة شكر من رأسه، لاحظ أن خنصر يده اليمنى كان مقطوعاً، ألتهم قطعة الخبز بشراهة، حيث لم يدخل شيء الى جوفه منذ الفجر، وما كاد يُجهز عليها حتى عاود سؤال العيلامي مُشيراً الى مكان خنصره.

\_ بسبب الحرب؟

\_ بل بسبب الظلم! أجل الظلم.

\_ الظلم؟ (رد "أيلوشي" بنبرة تنم عن الاستغراب).

\_ كنت صغيراً لا أذكر كم كان عمري حينها، ربما خمس أو ست سنوات، عندما تجرأت فسرقت رغيف خبز من الحانوت، لم أكن أعرف في تلك السن ماذا تعني السرقة، كنت جائعاً جداً فلم أفكر بشيء، حيث كنت اعتقد أن الطعام المعروض في الحوانيت، مُباح لكل من خوّت معدته وتصرخ طلباً لشيء من الطعام، ليمسكوا بي ويقودوني الى بناية كبيرة كأنها أحد كهوف الشياطين، لم أكن أعرف ماهي، يجلس في طarfها رجل قبيح يتطاير من عينيه الشرر، ما أن رأني حتى أشار برأسه الى شيء منهم، ثم خاطب من جلبوني.. (أقطعوا خنصره)، لينفذ أولئك السفلة حكمهم فوراً بسكين كبيرة، كان ذلك مؤلماً جداً، صعب أن تصطبغ صورة الدم في مخيلة طفل لا يعرف من الدنيا سوى غرائزه، أليست هذه جريمة؟

\_ لماذا كنت جائعاً؟ أكانت عائلتك فقيرة لا تقوى على إطعامك؟

\_ كنا من أولئك المُشردين المُحتقرين، الذين لم يُسمح لهم سوى بسكنى البراري وضواحي المدن، كان هؤلاء يقضون أعمارهم جوعاً حتى مماتهم.

\_ وهل يظنون أن الإنسان سيقاقل دفاعاً عن وطنه، إذا تركه ذلك الوطن مُهاناً جائعاً طيلة حياته، وكأنه محكوم عليه بالموت ينتظر فقط أن ينفذ الحكم فيه؟

\_ لماذا أنا مثلك أذاً في هذه الحفرة؟ (أجابه العيلامي بهدوء).

\_ قضاتكم هم أنفسهم في بلادي، فقانونهم لا يطبق سوى على الجوعى والبائسين، أما من أمتلك الثروة والجاه وقوة القرار، فإن الآلهة تمنحه عصمة أبدية من أي عقاب حتى لو أباد جميع البشر. (ثم أعقب "أيلوشي").. من المؤكد أن تلك العقوبة قد أفهمتك ولو بشكل قاسي معنى اللصوصية، فابتعدت عنها نهائياً حتى دون أن تعرف حقيقتها؟

ضحكة طويلة أطلقها العيلامي، ثم هز رأسه هائلاً بذلك السؤال الذي بدا سخيلاً بالنسبة إليه، أعقبها بحسرة طويلة مشوبة بحرقة وألم..

\_ أني أقاتل اليوم رغم ارادتي أو رغبة مني بهذا الاقتتال الأهوج وهذه الحرب المجنونة، لقد أرادو أن يجعلوا مني مجرد كبش فداء فيها لا أكثر.

\_ لم أفهم؟ ما علاقة تلك الحادثة وما أنت فيه الآن؟

\_ لقد حفزتني تلك السرقة لأن أكررها مرات ومرات، حتى غدت مهنتي التي لا أجيد سواها، منذ ذلك اليوم ورغم طراوة عظمي، علمت أن أمثالنا عليهم أن ينتزعوا حقهم بالقوة من أولئك المُتَلذذين بمعاونة البائسين، وهكذا ويوماً بعد يوم، وعقوبة أثر أخرى أشد، لأغدو في النهاية مُخيراً، بين قطع الرأس أو أن أكون جندياً لأقتل في هذه الحرب، يا للغرابة! أول مرة في حياتي يُترك لي حرية الاختيار في شيء ما.

\_ بين الموت أو الموت!

\_ بالضبط، أما أن أقتل بسيف الملك، وأما أن أقتل بحراب أعداء "عيلام".

\_ كلاب! حقاً أنهم كلاب.

\_ وأنت أيها الأشوري، كيف جئت الى هذه الحرب؟ رغم قوة بنيك لكنك لا تبدو مُحترفاً للقتال وخوض غمار الحروب، ولا ظنك لصاً مثلي، فأنا أعرف تماماً هيئات رفاق مهنتي، لكني أرى فيك رجلاً متعلماً من أولئك الذين يعرفون كيف تقرأ الألواح، كما أنك تتكلم العيلامية جيداً رغم تلعثمك في تحدثها، ماذا فعلت وارتكبت ليؤول مصيرك حيث إباحة الموت؟

فكر "أيلوشي" طويلاً ثم أجاب بهدوء.. صدقت، لقد قضيت طفولتي وشبابي بين جدران المدارس، وحصلت على ثقافة غزيرة، وتعلمت لغات عديدة لأغدو كاتباً معروفاً في "نينوى"، لكنني مثلك غدوت في نظر تلك القوانين مُجرماً، لأنني كتبت ما فكرت فيه لأولئك المُستضعفين المظلومين في العالم، واعتقدت أن فيه الخير للناس جميعاً، كنت أكتب حُطباً وأشعاراً تتغنى بحب الحياة وتمجيد الإنسان، وتدعو لأن يكون حراً في بلاده، كيفما يعتقد ويفكر ويتمنى أن يكون، والى أي إله يتوجه بعبادته.

\_ أذاً أنت من كبار المجرمين. ما دمت لا تكتب لتمجيد الملوك، وتعظيم منزلة حاشيتهم، وبطانتهم الوسخة التي لا تفكر سوى بملاً بطونهم المُتخمة، فأنت من المؤكد مجرم، ومجرم خطير يتوجب قتله لتخليص المجتمع منه، ولا بد أنك قد كتبت شيئاً ضد هذه الحرب أيضاً؟

\_ لم أكتب شيئاً سوى أن الحروب ليس فيها من منتصر، سوى الخراب والدمار والموت، ومن الأفضل لجميع البلدان في هذا العالم، من مشرق الدنيا لمغربها، أن تعيش بسلام، وتنبذ فكرة الحروب من رؤوس ملوكها.

\_ والنتيجة؟ (عقب العيلامي وهو يهزّ رأسه).

\_ النتيجة كما ترى مثل حالك تماماً، خُيرت أما أن يُقطع رأسي، أو أن أموت في هذه الحرب اللعينة.

\_ بين الموت أو الموت أيضاً! لا فائدة من العيش في هذا العالم البغيض، لا يستطيع المجرم أن يعيش فيه بسلام، ولا الإنسان النبيل الحالم بالخير للناس، وأنت تستغرب لماذا غدوت بهذا الحال.

\_ قد تكون امتهنت اللصوصية، لكني لا أرى فيك قاتلاً.

\_ السرقة شيء والقتل شيء آخر، قد أكون لصاً أو محتالاً، لكن أن أزهد روحاً بشرية، فهذا ليس من اختصاص من تملكته الخصال الانسانية، أنه فقط من اختصاص الوحوش والضواري المفترسة، وقد أرتتي هذه الحرب أن الإنسان أخذ ينافسها في هذه الصفة.

دقائق من الصمت، شعر خلالها الأثنان أن الوقت قد حان ليتركا حفرتهما هذه، وأن الوقت اصبح مناسباً لترك مخبأهما دون أن يلاحظهما أحد مع ظلمة الليل.

\_ ماذا ستقول عني أيها العيلامي إذا بقيت على قيد الحياة، بعد أن توضع هذه الحرب أوزارها، وتعود أيام السلام لبلدنا؟

\_ سوف لن أبق حياً، أنا متيقن من ذلك، لقد جلبوني الى هنا لينفذوا أراذتهم بموتي، حتى لو نجوت من سيوف الأشوريين، سوف يطعنني أحد الجنود العيلاميين في ظهري.

\_ واذا تقابلنا وجهاً لوجه عند احتدام المعركة مجدداً؟

\_ لا تخشاني، سوف أرمي بجسدي نحو سيفك. (أجاب العيلامي بسرعة ودون أية تفكير أو تردد، ثم أعقب بلهجة اليائس).. لم أعد أطيق هذه الحياة، اللعنة عليها وعلى المتمسكين بها.

وقف العيلامي مُشيراً بيده الى "أيلوشي" كي يفعل مثله..

\_ هيا كي أعينك على الخروج.

\_ وأنت؟

\_ أنا أعرف كيف أتدبر أمري، هل نسيت أنني لص، وأن القفز والنط واجتياز الموانع العالية من تخصصي.

دون أي كلمات نظر كلا الرجلين بوجه الآخر كأنهما يودعان بعضهما بصمت، أهال العيلامي بعض التراب على النار التي أوقدها، ثم وقف أسفل حافة فوهة الحفرة شابكاً كفيه لبعضهما ليضع "أيلوشي" قدمه عليهما، ثم بمعونة ذراعيه القويتين طوّح بجسده خارج الحفرة وهو يتلفت يميناً ويساراً، ثم هزّول مبتعداً نحو معسكر الأشوريين، دون أن يدير رأسه نحو الحفرة أو الى رفيقه الذي تركه داخلها.

أيام دموية قاسية تمرّ، أرض المعركة تمتلئ بجثث القتلى من جديد، أمطار غزيرة انهمرت على الأرض المسقية بالدماء لتغرقها بالوحول والأطيان، هدنة قصيرة بين جانبي الحرب لرفع جثث القتلى.. (هيا يا جنود "أشور" نظفوا ساحة القتال من نفايات الجثث، يجب أن نفرغها تماماً، أنها تعيقنا عن قتال الأيام القادمة)، هكذا صاح أحد القادة المنتفخة كروشهم أمراً جنوده، قالها فخوراً مُبتسماً ملء فمه كأنه يدعوهم لوجبة طعام دسمة.

أجساد مُمزقة، مقطعة الرؤوس والسيقان والأذرع، وأخرى كانت تُداس بالأقدام بعد أن أصبحت جزءاً من طين الأرض، فطمست هويتها كلياً ولم يعد مُمكنأ تمييزها، سوى أنها لبشر بالأمس القريب كانت تجري الدماء في عروقهم، وتحتضن مخيلتهم الأحلام الدافئة بأيام قادمة خالية من الحروب، ليغدو اليوم مجرد أكداس من النفايات، كما يرى أولئك المُشيدة عروشهم من عظام الضحايا. توزعت هنا وهناك عربات تجرّها البغال، كدّست فيها الجثث والأشلاء المُمزقة بشكل عشوائي، كانت في حقيقتها مجرد كتلاً شوهاء من اللحم المتعفن والعظام البالية، ما كادت لترفع حتى تتمزق بين أذرع حاملها، كان المنظر مفرزاً والروائح المنبعثة منها تدعو للقيء.

أخذ "أيلوشي" مع عدد من أقرانه جنود "أشور"، يحملون الجثث ويضعونها في إحدى العربات لنقلها الى أماكن بعيدة، حيث أعدت حفر كبيرة عميقة القرار، لتلقى فيها كآية حيوانات نافقة، لتجمع تلك الحفر انسانية هؤلاء الضحايا من جديد، بعد أن فرقها نزوات الملوك وأطماعهم. جثة ثقيلة لشخص بقامة مديدة، رغم أنها كانت من دون رأس وبساق واحدة، شعر "أيلوشي" أنه يعرف صاحبها، أمعن النظر فيها، كان كفها الأيمن من دون خنصر، ليُرَدّد بحسرة مع نفسه..

\_ أنها من دون شك جثة ذلك العيلامي، كما ظن وتوقع نهايته الحتمية في هذه الحرب. يا ترى بأي سلاح قُتل؟ بسلاح الوطن الظالم أم العدو العاشم الذي جاء ليفترس أرضه؟ لتتحقق أمنيته أخيراً، كان تيقنه من الموت غريباً، حتى بدا أنه جاء برغبة منه وليس عنوة، جاء من تلقاء نفسه لِيُنهي حياته ويُريح مسيرتها من فوضى هذا العالم المتباهي بظلم التعساء، والمستمتع بسماع تراويل الجنائز.

أخذ يهيل التراب بهدوء على الجثة حتى اختفت تماماً في مسكنها الأبدي، كان آخر ما دُفن منها كفه المقطوعة الخنصر، كأن صاحبها يريد أن تبقى مرفوعة اعتراضاً على ظلم هذا العالم البائس، وقوانينه الجائرة المطبقة فقط على الطبقات المسحوقة من بني البشر، مُذكّرة إياه بذلك الطفل الجائع والرغيف المسروق الذي أنتهى بأكله الى هذا المصير المُحزن. فكر "أيلوشي" مع نفسه.. (يا ترى هل يأتي يوم ويعود فيه الى "نينوى"، ويرى السلام قد حلّ في ربوعها أخيراً، ليروي للناس هناك عن الفواجع التي شاهدها والتي يتبجح الملوك بإشغالها؟ أم أنه سيلاقي في قادم الأيام نفس مصير ذلك العيلامي الذي لم يعرف حتى اسمه، فيُدفن هو أيضاً في إحدى الحفر الخالية من أية علامة تدل عليها، ليغدو مُجرد طعاماً لديدان الأرض، التي لا تفرق بين طعم أي من تلك الجثث والى أية بلاد يعود أصحابها؟)، فكر بكل ذلك، ثم هزّ رأسه وواصل إهالة التراب لردم الحفرة.



## أغلى من الذهب

- \_ هل سمعت؟ يُقال أن حرس حامية المدينة قد أمسكوا بالأخرق "بانيتي" يوم أمس والقوه السجن.
- هكذا خاطب تاجر الزيوت ذو الكرش المنتفخ جاره تاجر الحبوب، وهما يفتحان أبواب حانوتيهما صباحاً في سوق مدينة "كيش"، ليجيبه الآخر بضحكة عالية شامتة..
- \_ حمداً للآلهة التي خلصتنا منه ومن زعيقه الذي يصم الأذان، يظن أنه بألواحه المليئة بالهراء يستطيع مساواتنا بالرعاع من الناس، والتي جعلت عبيدنا والعاملين لدينا يهددون بالتمرد علينا.
- \_ أتمنى أن تكون الأخيرة، وأن لا نرى مرة أخرى شكله الكالنج، وقلبه المسموم الممتلئ بالحقد على التجار وعموم الأثرياء في "كيش".
- \_ لم أعد أذكر كم عدد المرات التي رُج فيها بالسجن، لكنه في كل مرة يعود علينا بعدها بصوته الكريه، وقد غدا أكثر علواً وهو يروج لبضاعته الحقيمة.
- لم تمض سوى دقائق قليلة حتى دوى وسط السوق، صياح عال أجش يعرفه جميع أهل المدينة، مع عبارات حفظها الجميع عن ظهر قلب.. (أغلى من الذهب، أغلى من الذهب)، تتردد سوية مع صوت عجلات عربية خشبية عتيقة مملوءة بألواح الطين المكتوبة، وهي تتهدى نحو وسط السوق، يدفعها رجل رث الثياب نحيل الجسم، في العقد السادس من العمر، مُتعب الوجه، لا تتناسب قوة صوته مع ضعف بنيته، متورم الوجه، من الواضح أنه تعرض الى ضرب مُبرح في كل أجزاء جسده، كان يسير بعربته بضعة أمتار ثم يتوقف ليطلق عبارته التي عُرف بها منذ زمن بعيد كي يروج بها عن بضاعته، تلاحقه كلمات رواد السوق وأصحاب المتاجر والحوانيت.. (هل ما زلت حياً يا "بانيتي"؟ الم يحن الوقت كي تتعظ وتجد لك مهنة أخرى غير هذه التي لم تجني منها سوى المتاعب؟)، ليجيبهم بصيحة عالية.. (أغلى من الذهب، وأثمن الفضة، وأندر من العاج، ومن دونها يغدو تفكيركم هساً كالزجاج، هلموا إليّ لتغسل هذه الألواح شيئاً من وساخة عقولكم التي لوثتها مواعظ الكهنة وأكاذيب الأمراء والأثرياء).
- ما أن وصل "بانيتي" عند حانوتي التاجرين، حتى أوقف عربته ثم بصق على الأرض ونظر اليهما نظرة حادة ذات مغزى أفصحت عما يكنه قلبه نحوهما من احتقار.
- \_ نراك قد عدت يا وجه النحس! الم يكفيك ما يحصل لك في كل حين؟ متى يصمت صوتك القبيح الذي سيقودك حتماً نحو الهلاك؟
- \_ أنا باق رغم أنوفكم أيها المتخمون، لا تحلموا بان أدع أسيادكم ينالون مني يوماً، وسأظل دوماً شوكة في حناجركم، حتى أجعل الجوعى والباتسين ينتزعون حقهم من كروشكم التي لا تعرف سوى إخراج الهواء.

أعقب قوله بصيحة عالية.. (أعلى من الذهب، وأشد وهجاً من السراج، ومن دونها تغدو عقولكم كعقول الدجاج). ثم ضحك بصوت عال وواصل سيره، تلاحقه هتافات وعبارات الترحيب والشكر لسلامته من العاملين في حوانيت التجار، وعموم الشغيلة في الورش والمشاغل وتحاياهم، حيث كان على الدوام ملهمهم وناصحهم، وهو ينقل لهم ما حوته الواحة من حكم الاسلاف والأولين، وما دونوه فيها عن حقيقة البشر والمساواة فيما بينهم، والتي وجدوا فيها بلسماً لمعاناتهم، وأملاً يكسر قنوطهم ويخلصهم من أحوالهم البائسة المزريّة، وهم تحت سلطة أرباب الجشع والثروات.

عرف الناس في مدينة "كيش" بائع الألواح العجوز "بانيتي" منذ زمن بعيد، وهو يدفع نفس عربته القديمة تلك، التي يقول أنه ورثها مع مهنته عن أبيه بائع الألواح، واضعاً فيها الواح الطين المكتوبة ليعتاش من بيعها، وقد ظل متمسكاً بها معتبراً إياها رسالة يؤديها لعموم الناس، رغم شحة ما كانت تدره عليه هذه المهنة التي أخذت تختفي تدريجياً من شوارع المدينة، بسبب ابتعاد الناس عن القراءة وتثقيف ذواتهم، بعد أن طمس صداً التخلف الذي تروجه تعاليم المعابد عقولهم ومسارات تفكيرهم.

ركن "بانيتي" عربته في مكانه المعتاد في وسط السوق، ثم أخرج ألواحه عارضاً إياها أمام الناس، منتظراً زبائنه القلائل الذين أخذوا يهلون عليه، متشوقين لقدمه، مفتقدين غيابه، بعد أن بلغهم أنه احتجز لدى حاكم المدينة، بسبب ما يروجه من أفكار عن طريق الواحة التي يبيعهها.. (لا تشغلوا بالكم، هذه ليست المرة الأولى وحتماً لن تكون الأخيرة، فأمثالي زبائن دائمين لدى معتقلاتهم)، ثم مخاطباً زبائنه ملياً ما أوصوه به من ألواح.. (هذا هو اللوح الذي تبحث عنه منذ زمن "حقيقة نوايا الآلهة"، بصعوبة حصلت عليه، فقد أمر الكاهن الأكبر بتهديم جميع نسخه)، (أنصحك بقراءة هذا اللوح الأدبي الرائع، انه جديد وكتبه أحد الشعراء الموهوبين عنوانه "لا تطيعوا الملك"، انه النسخة الأصلية). وشيئاً فشيئاً، سؤال يعقبه رد وایضاح موجود في أحد الألواح، ثم تعقيب من أحد الزبائن، ليغدو موقف العربية وكما في كل حين، منبراً للنقاشات الحامية حول حرية الإنسان، ورفض استغلاله من أية سلطة تسلبه حقه من التفكير، ثم ليتحول المكان الى مجلس صغير بشكل حلقة تحيط "بانيتي"، يضم عدداً من الشباب المتحمسين لتغيير واقع مدينتهم، وبعض الكسبة والشغيلة من الذين يجدون في هذا المجلس ما يريح كاهلهم ويرطب جفاف آمالهم، ليصبح ما يتم تناوله من أحاديث بمثابة فتاوى لهم.

\_ أن الإنسان هو أصل الوجود وصانع الحياة والحضارة، والكذبة الكبرى ما يقال ويروج من قبل سلطة القصر والمعبد، بأن الآلهة هي خالقة كل شيء، وأن الملك هو وكيلها ويحكم باسمها ويفتص من الناس وفق رغبتها.

\_ وماذا تقول الواحك بشأن المرأة ودورها في الحياة؟

\_ في سلسلة ألواح "هو الذي رأى"، يُذكر أن الرجل قبل لقائه المرأة، كان مجرد كائناً متوحشاً بعيداً كل البعد عن صورة التحضر، وأقرب الى هيئة وطبائع الحيوانات البرية، لكنها بذكاؤها وحكمتها استطاعت أن تلبسه ثوب المدنية وتجعله يعيش المدن.

\_ إذأ يا "بانيتي" فالمرأة هي أساس المدنية، ويجب أن يخرس كل صوت يطالب بحبسها في البيت أو الانتقاص من حريتها وكرامتها، لكن لماذا الكهنة يروجون بعكس ذلك؟



\_ أنهم مجرد أفاقين، يكرسون معابدهم السوداء الكريهة لبث سمومهم بين الناس، مُستغلين سذاجة العقول ومحدودية التفكير لدى البعض، وفهمهم الضحل لحقيقة الآلهة، أن هذه الآلهة جشعة مثل أولئك التجار المتخمين الذين يمتصون دمكم ويسرقون جهدكم، وهي في سبيل قرابينها مستعدة أن تتبعكم كالكلاب، كي تلتق أعقاب احذيتكم.

وما كاد ينهي جملته حتى قدم عدد من الجنود وهم يحملون الهراوات والعصي صوب المجلس ليفضوه بالقوة، ثم اقتادوا "بانيتي" مع عربته نحو المعبد الكبير، وسط ضحكات واستهزاء التجار.. (هذا ما توقعناه، سوف يظل هذا اللسان ينطق بالهذر حتى يُقطع)، (من المؤكد أنها ستكون نهايتك يا "بانيتي"، فأما أن يُقطع رأسك أو لسانك، لقد سبق هذه المرة الى كبير الكهنة نفسه، بعد أن تجرأ بالكلام على الآلهة نفسها).

أيام تمر دون أن يسمع رواد السوق أو أصحاب حوانيته شيئاً عن "بانيتي" أو ما قد جرى له، وكل ما تردد بين الناس أنه محشور في سجن المعبد، ينتظر ما يقرره الكاهن الأكبر في أمره.

\_ حمداً للآلهة التي حققت رغبتنا وما كنا نتمناه، أخيراً قطعوا لسان هذا المتمرد، هكذا حكم الكاهن الأكبر، بعد أن ذاق الجميع ذرعاً بهرطقته وكفره وسبه لآلهتنا العظيمة، حامية ثرواتنا وأمن عوائلنا وحافضة مكانتنا وجاهنا.

\_ لتبشرك الآلهة بمزيد من العبيد والجواري، متى سمعت الخبر السعيد هذا؟ منذ أن قبض عليه الأسبوع الماضي وجميع التجار ينتظرون بفارغ الصبر هذه الفرحة التي تمتوها منذ زمن بعيد.

\_ ليلة امس، نقلت لي الخبر أحدى بغايا المعبد، بعدها أخذت أعد ساعات الليل كي تنقضي وأتي الى السوق وأفرح قلوب جميع التجار. ثم وجه حديثه الى العاملين في حانوته.. (لقد قطعوا لسان ملهمكم الأحمق أيها الصعاليك، سوف لن تستطيعوا بعد الان سماع صوته وهذره، وكلماته الغبية التي جعلتكم ترفعون عيونكم بوجوه أسيادكم).

أخذ العمال في حانوتي التاجرين يتبادلون النظر فيما بينهم بعيون حزينة، غير قادرين على البوح بما يجول في صدورهم، والألم يعتصر قلوبهم بسكوت ذلك الصوت العالي الذي كان يورق التجار ويُرهب الكهنة، ويُثلج صدور المتعبين والبائسين، ويبشرهم بانتصار صبرهم، ويمنيهم بأيام جميلة قادمة يستردون فيها كرامتهم، وتزال معها مظلوميتهم القابعة كصخور الجبال على صدورهم.

الساعات تمر ثقيلة رتيبة منذ أن سمع كل من في السوق الخبر، الوجوم ارتسم على جميع الشغيلة والعمال، أما عابري السبيل فلم يبالوا في الأمر كثيراً، فكل ما كان يشغلهم هو قضاء أمورهم الحياتية والعيش بسلام، مُبتعدين عن المشاكل والصدام مع من كان له اليد الطولى في أمر المدينة، بالمقابل كانت بسمات التشفي والفرح مرتسمة عريضة على أفواه التجار والمرابين في السوق، وبعضهم كان يوزع الحلوى وحبات البلح على المارة، ابتهاجاً بهذا الخبر السعيد، أخيراً زال من كان يزج هدوء أحلامهم وراحة هضم أمعائهم.

صوت عال يعرفه الجميع فاجأ كل من في السوق عند أنتصاف الظهيرة واكتساح وهج الشمس المُحرقة الأرض.. (أغلى من الذهب، أغلى من الذهب)، (أملئوا عقولكم خير من تحشوا بطونكم، جوع البطون

يدوم يوماً لكن خواء العقول يبقى عمراً). صُعق الجميع وهم يرون "بانيتي" يخترق كعادته السوق برأس مرفوعة، وهو يدفع عربته الثقيلة المحملة بالألواح، كان يُغطي فمه بخرقه سميكة دامية، تؤكد ما قيل عنه وتناقضه أحاديث الصباح، بأن لسانه قد قُطع.

وما أن وصل عند حانوتي التاجرين حتى أزاح الخرقه عن فمه وبصق على الارض ما كان يحويه من دماء، ثم نظر اليهما نظرة الاحتقار والتحدي التي أعتاد رميها بها ثم أطلق صرخة عالية.. (العمار له لسان، والغراب له لسان، لكن عقل الإنسان بألف لسان)، ثم واصل سيّره نحو مثابته المعتادة.

ظل الجميع مشدوهين، كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كيف يتمكن "بانيتي" من إطلاق صيحاته، ويتحدث بشكل طبيعي من دون لسان؟ هل هي حكمة من حكم الآلهة؟ أم أنه يمتلك طاقات خارقة تفوق ما لأمثاله من البشر ليتمكن من فعل ذلك؟

سادت الفرحة جميع أصحاب "بانيتي" ومريديه من البائسين والبسطاء، بعضهم أخذ يهتف باسمه، والبعض تركوا ما كانوا يقومون به رغم تهديد ووعيد أرباب عملهم بالطرد، ليلحقوه ويستفهموا منه كيف يحدث ذلك معه، أما التجار فقد أحرصتهم المفاجأة وعقدت سنتهم، فلم يستطيعوا النفوه بأي كلمة، فأخذوا يضربون أكفهم ببعضها وهم يهزون رؤوسهم، غير مُصدّقين لما يروه من هذه المعجزة التي لم يشاهدوا مثلها من قبل، رجل يتحدث من دون لسان ويصرخ بغم مغلق يبصق دماً.

\_ أنه شيطان من الشياطين! من المؤكد أنه كذلك.

\_ هل أنت متأكد أنهم قطعوا لسانه؟

\_ أما ترى الخرقه الدامية التي تغطي فمه؟ أن ما أراه يجعلني أعتقد أن هذا الصعلوك أما أن يكون مشعوذ خبيث أو ساحر لعين، وما هذه سوى إحدى الأعيه، وإلا كيف يمكن تفسير ذلك.

وما كاد يصل "بانيتي" لمثابته، حتى تجمع الناس حوله يتفقون غيبته، والحال الذي غدا عليه وما جرى له، كان واضحاً أن لسانه مقطوع، لكنه كان يتكلم رغم ذلك أفضل من أي أنسان آخر. أخذ يفرش ألواحه على الارض يعينه في ذلك بعض من رواد مجلسه، وهو يروج لها.. (كما وعدتكم، لقد جلبت اليوم العديد من الألواح الجديدة، "أكاذيب الكهنة"، نسخة جديدة غير منقوصة بثلاثة ألواح، "لصوص أم ملوك لصوص"، "التجارة سرقة شرعتها الآلهة"، سلسلة هامة من خمسة ألواح، تبين للجميع حقيقة التجار وخبث نواياهم، "ملوك الصحراء وشعوب المدن").

\_ لقد قلقنا عليك يا "بانيتي"، أخبرنا كيف تستطيع الكلام وأنت من دون لسان؟

لم يجب سؤال أحد، فقط رد على زبائنه ورواد مجلسه ببضع كلمات، وكأنه لا يريد أبداء شيئاً من عجزه، وحزنه لخسارته عضواً من جسده.. (لا تخشوا من فقدان شيء طالما عقولكم لاتزال تعمل). ثم واصل الصياح بعناوين الواحه.. ("ملوككم لصوصكم"، "أقتل ثم أقتل كي تغدو ملكاً").

سرعان ما عاد التجمع الى ما كان عليه في سابق عهده، بترويج الافكار وطرح مختلف النقاشات التي كانت تشغل بال أهل المدينة واحوالهم، الجميع يصغي مُستمعاً بما يحدثهم به "بانيتي"، وسط حيرة

وتعجب الجميع، وكيف لهذا الرجل المقطوع اللسان أن يطلق الكلمات، دون أن ينتقص ذلك من رشاقة عباراته وفصاحة حديثه.

ولم تمضي سوى ساعتين حتى حدثت جلبة عالية ملئت السوق، جنود بيزات خاصة وسيوف ماضية يترაკضون صوب مجلس البائسين، عرفهم الجميع أنهم جنود القصر، أخذوا يوسعون "بانيتي" ضرباً وركلاً في كل جزء من أجزاء جسده المتورم أصلاً من ما لاقاه خلال الايام الماضية، ثم ساقوه مُكبلاً معهم.

\_ عسى الآلهة أن لا ترحمك أيها الجرو المزعج، حتماً هذه ستكون نهايتك، هل رأيت أنهم جنود الملك، لقد سيق الى القصر؟ ماذا عساه أن يفعل هناك، وكيف سيواجه ملكنا المُعظم؟ وهل يستطيع البقاء على كبريائه الكاذب هذا؟

\_ صدقت هذه المرة من المؤكد أنها ستكون نهاية هذا التفاه الكريه، أن حدث هذا فعلاً، سأوزع جرار النبيذ على جميع تجار السوق، وأسقي نقيع السفرجل جميع زبائنه.

مع تتابع الأيام ومرورها الثقيل على المدينة القابعة تحت سقف التخلف والظلم، أخذ الجميع يتحدث عن "بانيتي"، وعن تفاصيل وملابسات مواجهته أمام الملك، كل يقول شيئاً بصدد ذلك ليناقضه قول آخر.. (لقد بدا كالجبل حين رأى الملك، ولم يرتجف حين خاطبه)، (كل ما كان يقوله لنا عن أجرام الحكام بحق شعوبهم، أفرغها دفعة واحدة في وجه الملك دون خوف). لتناقض تلك الأقوال أحاديث أخرى، روج لها التجار والكهنة بمعونة أقزامهم، الذين اعتادوا نشر سموم الزيف، الذي يبتدعه أسيادهم بحق من يرفضون حني هاماتهم لهم.. (لقد غدا "بانيتي" كالجرذ بمجرد دخوله قاعة العرش ورؤيته ملكنا المعظم)، (لقد بان زيف وجبن هذا الدعي الأفاق، لقد ركع أمام الملك وأخذ يلحق قدمه طالباً السماح والمغفرة لما أقرّفته). ليكمل تلك الأفويل شماتة التجار، وأمنياتهم بأن تختفي عن أنظارهم صورة هذا الخصم الذي لم يروا من هو أكثر عناداً منه، ليحسم فجأة هذا الجدل وتبادل تناقضات الأخبار حركة عدد من جنود القصر، يرافقه صوت طبل عال أسكت الجميع، أعتاد سماعه أهل المدينة حين تصدر أوامر أو قرارات ملكية هامة، أعقبها صياح أحد الجنود أمراً الناس بالتجمع، لسماع ما يريدون قوله..

(سكان "كيش"، سكان "كيش".. لقد تجرأ المذنب "بانيتي" بالتطاول على ملكنا المُعظم، والعائلة الملكية المباركة داخل حرمة القصر، وكذلك تجاوز بشكل سافر قبيح على آلهتنا المقدسة، لذلك أمر ملكنا العظيم وحامي بلادنا ومُطعم أهلها، بأن تُفقأ عيني هذا المذنب الجاحد جراء فعلته النكراء، ليزوق عذاب الظلمة بقية حياته، ويكون عبرة لجميع من يَنكر جميل صنائع الملك وعطاياه، وقد تم تنفيذ الأمر، كما أمر ملكنا المُعظم حبيب آلهتنا المُبجلة، جميع الناس بالابتعاد عن ما كان يروجه ذلك المذنب الأفاق، من أفكار هدامة تخدم أعداء مملكتنا الخالدة، وستكون العقاب وخيمة لكل من يخالف هذا الأمر).

ضحكات عالية كتلك التي تصدر عن البغايا ساعة مجونهن أطلقها التجاران.. (نفذ وعذك يا صاحبي، عليك أن توزع جرار النبيذ على الجميع، لنحتسي اليوم حتى الثمالة أنخاب هذه الفرحة، ونشتم مع سكرنا هذا الأبيكم الأعمى)، (لنرى كيف سيستدل طريقه هذا المجنون، وكيف سيقراً ألواح السخيفة وما حوته من هذر، ألم أقل لك أن علاج هذا الأحمق عند ملكنا العظيم فقط، أنه وحده الكفيل بتنظيف بلادنا من هذه القاذورات).

مرة أخرى يسود الجدل في السوق وبين رواده.. (كيف سيغدو الحال مع "بانيتي" بعد فقدانه البصر؟)، (هل يقضي بقية أيام حياته مختبئاً عن الناس منفذاً أمر الملك، وهو الذي قضى أيام حياته بينهم؟)، (كيف سيتدبر أمر عربته والترويج لألواحها إذا أراد تحدي إرادة القصر والعودة الى سابق عهده؟)، (إذا أستطاع أن يتكلم من دون لسان بمعجزة، فماذا هو صانع من دون بصر أيضاً؟).

حركة غير طبيعية تجوب السوق، مهمات أخذت تعلوا شيئاً فشيئاً بين رواده والمارة فيه، ليعلو من بينهم صياح "بانيتي" المعهود، يرافقه صوت قرعة عجلات عربته الثقيلة المحملة بالألواح.. (أعلى من الذهب، أعلى من الذهب). كان يدفع عربته بمفرده دون معونة أو إرشاد من أحد، كأى أنسان مُبصر يرى طريقه في أوج الظهيرة، كان رأسه مربوط بعصابة سوداء تخفي عينيه، تخبر من يراها أنها ذاهبتان، دون ذلك لا يشعر من يلتقيه أنه فاقد لبصره، فهو يقود عربته دون توقف وبشكل مُستقيم تماماً، دون أن ينحني بدربه أو يميل نحو درب آخر، متجنباً جميع الحفر والعثرات وأحجار الطريق، موجهاً إياها خيراً ألف مرّة من المُبصرين، كان يسير والعشرات من محبيه ومبغضيه على حدٍ سواء، يسيرون خلفه منبهرين من ما يرون، حتى بدا كأنه يقود مسيرة عفوية من الناس، جمعت تناقضات التفكير وتبايناته في المدينة، دون أن تستوعب عقولهم ما يرونه، فاذا كانوا قد اقتنعوا بقدرته على النطق من دون لسان، فكيف بأبصاره من غير عيون؟

واصل "بانيتي" مسيرته الواثقة نحو مثابته الأثيرة دافعاً عربته، غير مبالي بالناس والاحاديث التي تقال حوله، والأسئلة التي يسألونها إياه بشأن بصره، توقف قليلاً بشكل تلقائي عند حائوتي التاجرين، ليلتفت نحوهما وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، كشفت عن ما تبقى من لسانه المقطوع، مُطلقاً صيحة عالية.. (ألم أقل لكم أنها أعلى من الذهب، العيون ترى ما أمامها، لكن العقول تدرك البصائر، أطمعواها الفكر كي تعرفوا خاتمة المصائر). تركهما مذهولين ينظران بوجهي بعضهما وهما يرددان.. (غير معقول، شيء لا يمكن أن يصدق! من المؤكد أن هذا الصعلوك أحد عفاريت العالم الأسفل).

وكالمعتاد ما أن وصل مثابته حتى توقف عندها ليتهاقدها كما أعتاد أن يفعل دوماً وكأنه يراها جيداً، ثم أخذ يُخرج ألواحها من العربية، ليضعها على الأرض بشكل خطوط متوازية منتظمة، وسط استغراب وحيرة كل من يراه عن كيفية تمكنه من ذلك رغم فقدانه عينيه. وما أن أتم ذلك حتى أخذ يصيح بعناوينها، داعياً زبائنه ورواد مجلسه ومن رافق مسيرة دخوله السوق لقراءتها.. (لوح جديد، لوح جديد حصلت عليه اليوم "من ينتصر العقل أم السوط؟")، (أقرأوا هذا اللوح البليغ "الملوك تاريخ مع النساء والدماء")، (مجموعة قصائد جميلة بعنوان، "نهاية الملوك بداية الشعوب"). أخذ الجميع يقلبون الألواح فرحين وهم يرون "بانيتي" وقد ازداد حيوية وحماسة، وبدا أكثر قوة وعناداً من ذي قبل في الترويج لأفكاره رغم كل ما أصابه.

ومن بين من تجمعوا، طفل صغير كان مع أبيه المهووس بالقراءة، يفله في تقليب الألواح وينظر الى ما كتب فيها، دون أن يعرف ما حوته مضامينها أو كيف تقرأ، ترك رفقة والده ليحدّق في وجه "بانيتي" وقد شدته عصابته السوداء التي تخفي عينيه المفقوتين، وجذر لسانه المقطوع الذي يبين كلما صاح أو تكلم، ليخاطبه بجرأة وثقة غريبة أمام الجميع.. (كيف تصرخ أيها العجوز بهذا الصوت المرتفع من دون لسان، وتقرأ هذه الألواح وهذه الخرقه البالية تغطي عينيك؟). أبتسم "بانيتي" ثم ناداه الى جانبه.. (هل حقاً تريد أن تعرف كيف؟ أقترّب مني لأخبرك سر ذلك)، ثم أخذ يهمس بأذنه الصغيرة كلمات خافتة، لم يستطع أحد من المحيطين بهم سماعها، كانت عينا الطفل الذكيتان تتسعان، وابتسامته الجميلة تزداد إشراقاً مع

تتابع سيل الكلمات في أذنه، وما أن أتم سماعه حتى قفز بخفة الفهد فوق العربية العتيقة، كأن قوة خفية أخذت تُسيره وتقود تحركاته، ثم أخذ يصرخ بعلو صوته الرقيق الصافي.. (أعلى من الذهب، أعلى من الذهب، لقد فهمت، لقد فهمت، أنها حقاً أعلى من الذهب).



## أنهار الخمر

لم يشعر بنفسه إلا وهو داخل صومعة المعبد، محاطاً بجدرانها الدهماء الصماء الخالية من أية نافذة، مما جعله يعتقد لأول وهلة أنه قد حُشر في مدفنٍ للأموات لا خروج منه. أخذ يتلفت برأسه المتمائلة من تأثير الخمر في أرجاء الصومعة، متسائلاً مع نفسه عن هذا المكان الكئيب الذي لم يدخله قط طيلة حياته، بصمته المطبق الذي يوحي بغياهب العالم الأسفل، وسكونه الموحش الذي يضاهي كهوف الخفافيش، مقارناً إياه بالحنات الجميلة ومراقصها المزينة الملونة، بضجيجها الذي يخلق الحياة، وأنوارها البرّاقة التي تحيل الظلمة الموحشة الى صباحات مُبهجة، مع ما تحمله أنغام موسيقاها الصداحة وتمايل راقصات الهيفاوات من مرح وبهجة تزيل جبال الهم من الأفئدة المتعبة، والتي كانت ملاذه الوحيد كلما أراد الهروب من سجن البيت ومفارقة زوجته التي كان يرى فيها سجانه الأبدي الذي أبتلاه القدر به، حتى بات من شدة كرهه لها يُكئبها بأشنع الألقاب، ليعتبر مغادرته اليومية للبيت نعمته الثانية التي حصل عليها في حياته بعد إدمانه الخمر، شاعراً حينها أنه قد أطلق سراحه من زنزانه معتمة لا تضم سوى العفاريث، خاصة حين تتحرك في جيوبه بضع شيقلات من الفضة يسرقها من زوجته خلالها نومها... (يا للمصيبة! أين أنا؟ وأي ورطة أقحمت نفسي فيها؟ والى أين ساقنتني قدماي؟ ما هذا المكان الكريه الذي يعتصر النفوس قبل الأرواح؟).

كان "ماردودو" كما اعتاد في كل يوم بعد استيقاظه من النوم عند الظهر، ينال من زوجته ضربة موجعة على رأسه بمغرفة الحساء الخشبية الكبيرة، أمرة إياه بعد أن تناوله فطوره المتواضع وإعطائه نصف شيقل من الفضة ثمن جرة الخمر التي يملأ بها جوفه، أن يغادر البيت ولا يأتيه حتى المساء، كان خسارة النصف شيقل من مصروف البيت المحدود يومياً، أهون عليها كثيراً من مقابلة وجه طوال النهار، بأحاديثه السمجة ورائحة الخمر النفاثة التي تفوح من جسده، حتى غدت غاية سعادتها هي كذلك أن لا تراه أو تسمع صوته، بعد أن مات أترانه وفقد لسانه المترهل بفعل الخمر، التميّيز بين عبارات المدح والذم، ومع مرور أيام حياتها ترسخت قناعتها بأن "ماردودو" الذي لم يبرع في أي شيء طيلة حياته، سوى ارتياد الحانات ومرافقة صانعي وبائعي الخمر، كان أتعس خيارات حياتها، حين رضيت به زوجاً على علاته قبل أكثر من عشرين عاماً، رغبة منها ببناء عائلة تكمل معها بقية عمرها، بعد أن وصلت خريف العمر وهي من دون زواج، ولم تكن عندها لتنتظر أو ترتجي منه بحاله هذه، أن يعيلها عن طريق مهنة يحترفها أو صنعة يمتنها، لتقوم نمط حياته ويصرف من ما يسترزقه منها على أسرته، لتتقع مُرغمة بموردها المالي الوحيد المتأتي من أيجار البيتين الذين ورثتهما عن أبيها، واللذان لولاها لأصبحت مع أبنيتها الوحيدة تستجديان الطعام عند قارعة الطريق.

في ذلك اليوم وبعد أن تلقى ضربته المعتادة على رأسه بمغرفة الحساء، أعطته زوجته نصف الشيقل المعتاد.. (أسمع أيها الأبله، هذا النصف شيقل ليس لخمرك الكريه، وإنما كي تشتري دجاجتين... لقد دعوت أبنتك وزوجها على الغداء يوم غد، ولن أدعك تقابلهما بهيئتك المقرفة هذه... أحتفظ بكرامتك ولو لمرة واحدة في حياتك، ليس من اجل شيء بل من اجل أبنتك الوحيدة). وما أن توارى "ماردودو" خلف

باب البيت الخارجي متوجهاً الى سوق المدينة حتى بصق بشدة عليه.. (اللعنة عليك يا بومة النحس وعلى زوج أبنتك الذي لا يختلف كثيراً عن ثيران الحقول التي لا تعرف في حياتها سوى جر المحاريت!). رغم تلك الحياة الرتيبة المملة ذات الطابع المهين، لم يكن ليشغل ذهنه بمُجرياتِها بعد أن زهد من كل تفاصيلها، تاركاً إدمان الخمر يسافر به بعيداً عن عالم البشر، ناسياً جنونهم وأطماعهم وحمقاتهم، حتى أبنته كان يراوده الشك كثيراً بأنها من صُلبه، فلم يعد يعرف من سكره الدائم كيف أنجبتْها زوجته منه، ولا بد أن رجلاً آخر قد راودها يوماً ما بعد أن يُست تماماً من فاعلية رجولته.

كانت دوامة التفكير قد سرقتْه طوال الطريق نحو السوق مُتحيراً بأمرٍ لم يعتده منذ أمدٍ بعيد، كيف يمكن أن يحدث ذلك ويمضي يوماً بطوله من دون رشفة خمر يدغدغ طعمها لسانه، وتفتح رائحتها الزكية منخريه، وثنقي رأسه من ما علق بها من تلك المنغصات اليومية.. (تبا! هل تستحق الدجاجتين نصف شيفل كامل من الفضة؟ ألا يمكن شراء فروجين صغيرين بربع شيفل، وتوفير الربع الآخر لشراء ولو نصف جرة من الخمر؟ ربما خمر التمر الأبيض أرخص من باقي الأنواع، ويمكن الحصول عليه بنصف السعر؟)، لكنه يتراجع بتفكيره نحو جادة الصواب، فكلّما تزوجته الحادة الصارمة وهي توجه تحذيرها له، ونصائحها واضحة حازمة لا تقبل النقاش أو التهاون، وهي لازالت ترن في أذنه، منذرة إياه بأشدّ العواقب إذا لم يلتزم بما تقول.. (أختر دجاجتين سميتين، لا يعزّنك الريش، تحسس خلفيتيهما جيداً للتأكد من ذلك، إذا جلبت دجاجتين نضب بيضهما، أو فروجين لا يمتلكان سوى العظام، ستأتيك ضربتين على رأسك بدل الواحدة).

كان كلما حاول التمرد بتفكيره عن تلك الاوامر التعسفية التي وجهتها زوجته، والعواقب الوخيمة التي تنتظره بخلاف ذلك، يأخذ بتحسس رأسه براحته متخيلاً الضربتين الموجعتين بمغرفة الحساء التي وعد بهما إذا لم ينفذ الأمر، مُستصعباً ذلك بعد أن غدا رأسه متورماً مع جريان نهر الأيام وتوالي الضربات دون حساب. ماذا هو فاعل؟ أخذ مفعول الخمر بالزوال، وبدأ يصحو من جديد ليشعر بألام ضربات زوجته، وأخذت عيناه تتفتحان مرة أخرى على تلك الحقيقة المفجعة الدامية التي قضى حياته كلها لنسيانها، ولم تستطع سوى جرار الخمر من أن تُغشيها عنه، ليرى مرة أخرى تلك المشاهد الكريهة التي حلت بمدينة الجميلة، من جوع وتخلف وبطالة وجهل، وتمايز كرية يدعو للقيء بين أهلها، منذ أن تولت أمرها ثلة من المجرمين والسراق، لتحيلها الى خراب ودمار، بعد أن كانت جنة للناظرين وقبلة للمسافرين، والحالمين براحة لا حدود لها بين ثنايا الجمال.

كان الصياح عالياً لكن لم يكن بالإمكان تبيان ما يُقال خلاله، بسبب بُعد المسافة عنه وتأرجح عقله الذي بدأ يهلوس أثر تسرب تأثير الخمر عنه، وبعد أن أخذ الجفاف منه مأخذاً مع اشتداد الحر القانظ، الذي جعل لسانه يغدو كلسان الكلب السلوقي.. (يا للكارثة ماذا أفعل، أن لساني يتوق لجرعة خمر واحدة). ومع اقترابه من مصدر الصياح أخذ يُميّز مفرداته ومصدره بوضوح، لم يكن سوى رجلاً نحيلاً قبيحاً أصفر البشرة يرتدي ملابس غريبة، يشبه سحلية البيوت البرصاء، يضرب على طبله صغيرة ليدعو الناس الى ما يريد قوله.. (هلمّوا، هلمّوا... هل تريدون الراحة الأبدية؟ هل تريدون أن تبقى بطونكم ممتلئة ما امتدت أعماركم، وأن تنسوا العطش ما طالت سنين حياتكم؟ هلمّوا أذاً بالدخول وارثفوا قدر ما تستطيعون من أنهار الخمر، نعم أنهار الخمر، انها هدية "أنليل" العظيم لمحبيه المخلصين، حلو مذاقها كسكر الأعناب، فواحة رائحتها كأوراد الربيع، رائعة نشوتها كأحلام العشاق، تجعل الأفواه غضة رطبة، وتطير بالأرواح نحو مرج العصافير). لم يستوعب عقل "ماردودو" من كل ما سمعه وما كانت تنطقه



تلك السحلية البشرية سوى (الخمير وأنهارها)، فلم تجد نفسه العطشى ودون شعور منها أو أدنى ارادة من عقله المترنح، إلا لتجعله يدخل مع زحمة الناس المتدافعين الى ذلك المكان الغريب المجهول بدعوته الكريمة المعسولة، ولم يكن ليعرف حينها، هل كان هؤلاء قد جاءوا مع تيارات عطشهم من أجل الدخول اليه رغبة منهم بذلك، أو طمعاً بتلك الأنهار المغرية المتموجة في خيال الطامعين بها، وهرباً من قيظ الحر اللاهب كحاله هو، أملاً ببضعة كؤوس تنقذ أتران رأسه وتعيد اليه دوامة سكره بعد خسارة جرة خميره اليومية.

ما أن أستقر بمجلسه على إحدى الأرائك وسط صومعة المعبد المواجهة لمحرابه، حتى ظل يتلفت ذات اليمين وذات اليسار، مُبْحَلِقاً في المكان وهيئته، ناقلاً نظره بين الجالسين، الجميع كانوا مُتصَلِّبين كدمى الصلصال، لا تصدر عنهم أية إيماءة تُشعر من يرنو اليهم بأنهم على قيد الحياة، حتى أصوات أنفاسهم لا تكاد تسمع، وحركات صدورهم ما كادت تُرى، وكانت رؤوسهم متدلّية الى الأسفل كاشفة عن طول رقابهم، تماماً كحال الخراف حين يتم تهيئتها للذبح في المسالخ.. (غريب انهم يمدون رقابهم دون أن يفتحوا أفواههم! كيف سيرتشفون الخمر اذا؟). هي المرة الأولى في حياته التي يدخل فيها معبداً من المعابد، بعد أن كان يسمع عن تلك الأبنية الموحشة فقط، فمنذ صغره كان يرى الأطفال بصحبة أهلهم يدخلونها مرتدين جميل حللهم أيام نهاية الأسبوع أو عند الأعياد، إلا هو فقد كانت هوايته المفضلة أن يرافق والده الى حوانيت بيع الخمور، حيث يستمع هناك الى الحوارات الجميلة بين ندمائها وزبائنها، وهم يتندرون على المعابد واصفين إياها بمدارس البلهاء، ومرتابيها بأغبياء المدينة ومعتوهاها، مصدقين بكل خنوع ما يتم ترديده داخلها، ليحصلوا بعد إتمام غسل أدمغتهم على شهادة تثبت سذاجة طاعتهم، فيغدون تماماً كالجراء المبقعة التي تظل تهز أذيلها كي تُرمى فضلات الطعام لها. من هذه الأفكار الثائرة على قناعة الجهل، تلقى "ماردودو" علمه بحقيقة تلك الأبنية الدهماء، ليُجيب عندما يسأله أحدهم عن سر تعلقه بتلك التي تذهب بالعقول وتهذّ من صحة الجسد، مستذكراً محنته الأبدية مع زوجته.. (أنها تُنسبك هموم البيت والدنيا، والأوغاد من الناس، وأولئك الذين يبيغون سلبك العقل والارادة، وتجعل من العانس ابنة الأربعة عشر ربيعاً، ومن الزوجة القبيحة جميلة عصرها).

أخذ عدد من الكهنة الذين يشبهون تلك السحلية البرصاء الواقعة عند باب المعبد، يهيمون في حركة دوّوبة وسط المحراب، حيث بدوا وكأنهم يعدّون لشيء ما، فظن "ماردودو" أنهم يهيئون دنان الخمر لتوزيعها على الحاضرين، أبتسم لذلك المشهد الذي اعاده سنيناً بعيدة الى الوراء، حيث كان يقف الى جوار حمام السوق مجموعة من المُخنثين يؤدون حركات غريبة كهذه، وهم يرتدون ثياب مميزة كاشفين عن اجزاء حساسة من اجسادهم، محاولين اغواء المارة ومن رغب بمرادة الشواذ. دفعه عطشه الشديد وهو بانتظار ما وعد به أسوة بجميع الموجودين، الى سؤال الرجل الجالس الى جواره.. (ماذا هم فاعلون؟ ومتى يبدئون بإسقائنا الخمر؟)، أستغرب الرجل سؤاله، ثم أجاب بعد أن عرف حقيقته من رائحته النفائثة.. (انتظر قليلاً، سيأتي الكاهن الأكبر وهو من سيقوم بذلك).

ولم تمض سوى دقائق حتى نفذ من أحد الأبواب الجانبية الى محراب المعبد رجل أصلع بدين، مُفرط في سمنته وهو يرتدي ثوب أبيض طويل يكشف عن كتفة الأيسر، تزيّن بأساور وقلائد من الذهب، بولغ في تنزيدها بأنواع الأحجار الكريمة، كان الرجل يسير بخطواتٍ بطيئة كخطوات السلحفاة، وخلفه يسير عدد من الكهنة المساعدين، وهم يمثل هيئته وملابسه، يشكون أيديهم الى بطونهم ورؤوسهم مطأطأة الى

الأرض، حتى وقف خلف منصة فخمة من الخشب المطعم بالصدف والعاج تتوسط المحراب، بينما أصطف باقي الكهنة خلفه.

حاول "ماردودو" سؤال الرجل مرة أخرى عن هوية صاحب هذا الموكب، لكنه اسكته بإشارة حاسمة من أصبعه، ثم أجابه بعد ان عرف ما كان يريد السؤال عنه.. (أسكت ولا تتكلم ثانية، لقد دخل الكاهن الأكبر). تمنع طويلاً بهيئة الكاهن وحليه اللماعة وسمنته المفرطة، فتذكر مباشرة الدجاجتين السمينتين اللتين أوصته زوجته بهما، وأن لا يندع بالريش الذي يكسوهما، عندها لم يتمالك نفسه من إطلاق ضحكة مخنوقة، بالكاد تمكن من كتمانها وسط السكون المطبق الذي يخيم على المكان، حيث تساءل مع نفسه مواصلاً خنق ضحكته:.. (يا ترى هل يمكن أن يتأكد من حقيقة ما تخفيه تلك السمنة بتحسس خلفيتها؟).

تلقت الكاهن الأكبر بقسمات وجه الجامدة المتجهمة الخالية من الحياة، وفمه العريض الكاره لصورة الابتسامة، مُجِلاً بنظره بين جموع الجالسين، وكأنه ضبع منقح شره يرمي ببصره الذي يتطاير منه الشرر الى قطيع من الحملان الخائفة، قبل أن يهّم باقتراسها، مد ذراعيه الى جانبيه، ثم أغمض عينيه وردد بصوت جهوري عال يصل الى كافة أرجاء المعبد.. (سيد السماء ومالك الأرض والبشر، "أنليل" العظيم، جود على هؤلاء المساكين ببركتك، وأسقيهم خمرك السماوية التي تنسيهم عطشهم). عندئذ أبتسم "ماردودو" ابتسامة عريضة ماسحاً شفثيه بلسانه.. (أخيراً سيأتينا ما كنا ننتظره)، مرة أخرى وغير عابئ بالصمت، التفت الى الرجل الذي ضاق ذرعاً به وبرائحته، سائلاً إياه ببلاهة متناهية.. (من "أنليل" هذا؟ هل هو ساقى المعبد؟)، عند ذلك جحظت عينا الرجل وتجهّم وجهه، وأجابه بسرعة وبصوت مكتوم مخافة قتل السكون.. (ألا تعرف من هو "أنليل" أيها الأحمق؟ أنه إلهنا العظيم أيها الزنديق النتن، فقط أريد أن أعرف من أين أتيت؟). بالطبع لم يجبه "ماردودو"، فلا يهمه أن يعرف من هو "أنليل" أو غيره، فهو هنا لسبب آخر تماماً بعيد عن هذه الخزعبلات التي لا تقوى على تحريك ذبابة.

تابع الكاهن الأكبر تحريك ذراعيه وكفيه هنا وهناك، بهذا الاتجاه وذلك ثم بمختلف الاتجاهات، كأنه يرسم خريطة وهمية لا تفهمها سوى الشياطين، وقد تبدو لمن يراها في مكان آخر كحركات المهرجين، الذين يستعرضون فكاهات ألعابهم في ساحات المدينة عند الأعياد والاحتفالات السنوية، من أجل رغيغ خبز أو حفنة شعير، ثم رتل بصوت خافت لا يسمعه سواه أدعية غير مفهومة الكلمات، تشبه تلك العبارات التي يرددها السحرة والمشعوذون، لمن يلجأ اليهم من الجهلة وصغار العقول، بعدها خاطب المتعبدين الذين أخذوا بعد الذي سمعوه وشاهدوه من تلك الطقوس والحركات المسرحية، يحنون رؤوسهم نحو الأسفل أكثر فأكثر، والبعض أخذ يقلد دون وعي ما يفعله الكاهن الأكبر، مُحركاً ذراعيه في كل اتجاه، كأنه يحاول لمس شيئاً ما لا يوجد إلا في مخيلته، وآخرون أجهشوا بالبكاء وهم يرددون بصوت مخنوق مبوح تملأه العبرات.. (غفرانك "أنليل"، غفرانك أيها العظيم المبجل)، إلا "ماردودو" الذي ظل يتلفت، ناظراً الى ما يدور حوله من مهزلة تشابه مسارح القردة كاتماً ضحكته التي أخذ يطلقها دون وجل، كلما علا النحيب الى جواره كي تضيع قهقهتها بين تلك الانفعالات الساذجة.

بعد وقت محسوب بدقة، أختتم الكاهن الأكبر تعبده بموعظةٍ ردد كلماتها بصوت عال، وبصيغة أمر لا يقبل المساومة أو الجدل.. (هبوا أنفسكم وخيراتكم وكل ما تملكون لـ"أنليل" العظيم، فمن اليوم لستم بحاجة لها بعد أن وهبكم إلهنا المقدس بركته التي لا تقدر بثمن، وغدوتم تنتفسون من رنتيه وتطمعون من معدته، أمنحوا قرايبيكم لإلهنا الخالد دون حساب، وأجعلوا أبنائكم يزهدوا من متاع الدنيا الفانية، ويتركوا

أعمالهم وما يمتنون، ليقضوا بقية أعمارهم في خدمة المعبد، إرضاءً لـ"أنليل" الجبار، وأجعلوا بناتكم ينبذن الزواج ويهبين عفافهن دون حياء أو تردد لكهنة بيت الإله، فقد غدون اليوم بنات "أنليل"، شرفكم وما تملكون ملكاً لـ"أنليل" العظيم، فهو من يجود عليكم بأنهار خمره وعطيا رزقه وطمأنينة نفسه)، ثم أطلق فجأة وبشكل انفعالي صرخة مدوية أرتجت لها جدران المعبد.. (أجيبوني، بماذا سينفعكم ما تملكون ورضا "أنليل" بعيد عنكم؟)، عندها صاح الجميع مباشرة باستثناء "ماردودو" وبصوت واحد، مرددين عبارة منتقاة يبدو أنها قد أعدت لهم سلفاً.. (رحماك "أنليل" العظيم! خذ كل ما لدينا وأمنحنا رضاك يا صاحب القوة والسلطان)، ثم واصل الكاهن الأكبر موعظته.. (أيها الصالحون، تجردوا من نفايات الدنيا وسيروا بدرب "أنليل"، فالخير هو، والمال هو، والشرف هو، وهو وحده من سيجعلكم تستحون عند العالم الأسفل في أنهار الخمر التي تنسيكم ظمأكم).

أخذ يفيق من سكرته ويشعر بالضجر مما يقال بعد طول انتظاره، دون أن يحصل على رشفة خمر واحدة يبيل بها ريقه، وتعيد له سكرته التي فارقت رأسه.. (أيها المخادع الأفاق! تتكلم هكذا وكأن الناس يعيشون حياة الرغد والخير، وجيوبهم مليئة بشيقات الفضة والذهب، أن نصف سكان المدينة لا يجدون ما يملؤون به بطونهم الخاوية، والنصف الآخر بلا عمل يؤديه كي يعيلوا عوائلهم). كان "ماردودو" كلما أضمر الغيظ في قلبه، كانت كلمات الكاهن الأكبر تعلق أكثر فأكثر، حتى غدت كأنها طبل كبير يضرب بجانب رأسه.. (أنهار الخمر وما أدراك ما أنهار الخمر، تلك التي تسبح بين موجاتها حسناوات لا مثيل لجمالهن، مُرسلات من عوالم الآلهة كي تقضوا أوطارك ما سئتم منهن، وحتى النسوة العاشقات لـ"أنليل" سيمنحن شباباً يافعين ليتمتعن ببذراتهم، لا شيء محال أمام إلهنا العظيم، سيروا في طريقه وستجدون كل ما تتمنونه هناك عند ذهابكم الى العالم الأسفل). لم يعد يحتمل أكثر من ذلك خاصة بعد صحوه رأسه، وتسرب نسائم الوعي اليه، ليردد دون مخافة من سماع صوته.. (وهل سينتظر الناس طيلة أعمارهم حتى يذهبوا الى العالم الأسفل كي ينالوا كل ذلك، وخيرات مدينتهم في حياتهم تذهب الى كروشكم المتخمة؟ من أين أتيت بكل هذه الأكاذيب والبدع أيها الدجال الماكر؟).

ترك الكاهن الأكبر منصته وسط المحراب ليسير وسط مقاعد المُتعبدين، حاملاً بيده اليمنى قنينة مصنوعة من الفضة مملوءة بماء الورد، أخذ يرش منها عليهم، ماداً يسراه المزّين خنصرها بخاتم ذهبي كبير أمام رؤوس المتعبدين كي يقبلوها، وهو يردد بصوته الجهوري.. (بارككم "أنليل"، بارككم إلهنا العظيم). وخلفه سار أتباعه من الكهنة، وقد فتح كلٌ منهم كيساً كبيراً من القماش السميك، ماداً فوهته نحو الناس كي يلقوا فيه عطياهم، أخذت شيقات الذهب والفضة والحلي الثمينة تُرمى في الأكياس دون حساب، وخلال دقائق معدودات كادت أن تمتلئ حتى لم يعد بمستطاع حاملها من رفعها، فأخذوا يسحلونها سحلاً.. (يا أبناء البغايا من أين أيتم بكل ذلك؟ أحقاً انكم تعيشون في نفس مدينتنا الصابرة البائسة؟ وأنا أشعر بالزهو بنصف شيفل من فضة!).

أيقظت "ماردودو" من شروده وبما كان يفكر، رشة من ماء الورد بللت وجهه، ليلتفت فيرى الكاهن الأكبر قد غدا الى جواره، فما كان من الرجل الجالس بعد أن رمى في الكيس حفنة كبيرة من الحلي الذهبية، أن تلقف يده بسرعة وأنهال عليها تقبيلاً، وبالكاد حررها الكاهن منه لينقلها بمواجهة رأس "ماردودو"، منتظراً أن يمنحه قبلة الصفع والغفران، لكنه ظل ينظر اليه ببلاهة متناهية، خزره الكاهن بنظرة ذات معنى، وكأنه يقول.. (قبّل اليد وأمنح عطيتك، وإلا ستنتال عقاب إلهنا العظيم)، ليقابلها "ماردودو" بمثلها، ثم مد له لسانه الذي غدا ناصع البياض من شدة العطش، كما لو أنه يجيبه.. (لو غدوت قرداً تقفز وتصرخ أمامي لن أقبلها، ونجوم السماء أقرب إليك من النصف شيفل، وقد تركتني

بعطشي هذا). لم ينتظره الكاهن طويلاً فالأغبياء وفرة، ولن يترجى من هذا المخمور شيء، فواصل مسيرته بين باقي صفوف المتعبدين، وما كاد يجتاز مكان جلوسه حتى تنشق "ماردودو" مباشرة رائحة كريهة تخرج من خلف الكاهن الأكبر، أيقن أنه قد أخرج الريح ورائه... (أيها اللعين! ألا تستطيع الانتظار قليلاً كي تفرغ ما في جوفك بعيداً عن الناس؟ تسلب من هؤلاء المعتوهين ما يملكون وتمنحهم هواء أمعانك النتن، اللعنة عليك وعلى كل غبي يصدق ما تقول وتفعل!).

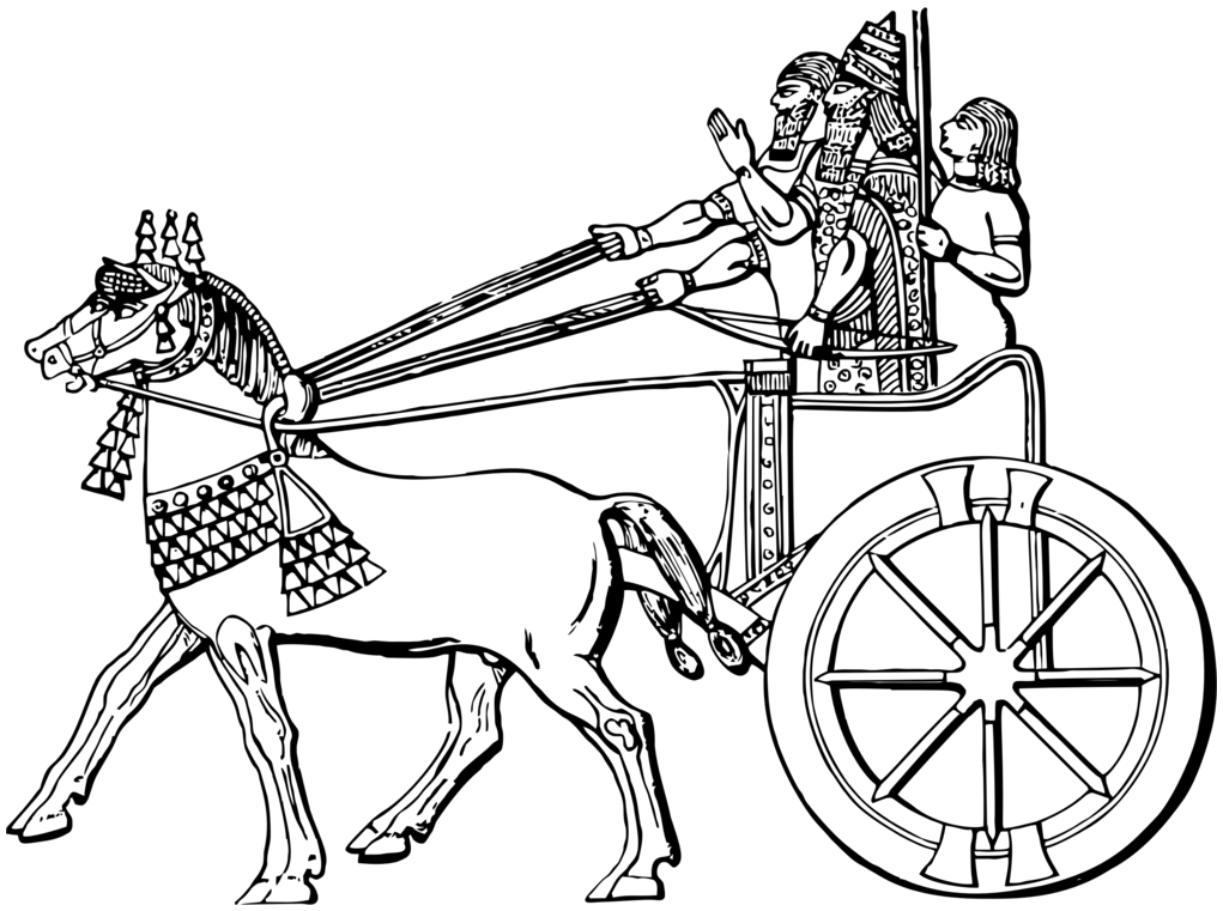
بعد خروج الكاهن الأكبر بصحبة أتباعه من باب المعبد، أخذ المتعبدون يتنفسون الصعداء وهم يخرجون تباغاً خلفه، وقد امتلأت قلوبهم ورؤوسهم بنشوة زائفة، مُحدثين بعضهم بعضاً فرحين.. (من المؤكد أن "أنليل" العظيم قد أحبنا اليوم)، (أنا مُتيقن أن "أنليل" قد رضى علينا). سأل "ماردودو" الرجل بهدوء وهزاً دون أن يلتفت إليه.. (ومتى سيوزعون علينا الخمر، لقد خرج الجميع؟)، ليرد عليه بغضب.. (ألم تذوقها بعد؟ لقد أرتوى الجميع منها واعتمرت نشوتها صدورهم، أي أنسان أنت يا هذا؟) قال ذلك ثم تركه وغادر المعبد وهو يردد.. (أخيراً تذوقتها! ما أذ طعمها، أنها حقاً الذ من الشهد).

كان "ماردودو" آخر من غادر المعبد وهو يتمتم مع نفسه بعد أن أضاع كل ذلك الوقت دون أن يحصل على شيء.. (اللعنة عليكم وعلى انهاركم الأسنة التي لا تروي ظمأ بعوضة! لقد أطرتم ما تبقى لي من سكرة يوم أمس)، ثم سار بخطى مترنحة وجسد متمائل نحو السوق، كي ينجز مهمته التي أرسلته زوجته من أجلها، توقف عند أحد باعة الدجاج ناظراً لما احتوته أبقاصه، ثم انتقى دجاجتين وأخذ يتفحص ريشهما ويتحسس خلفتيهما حسب الأوامر الصارمة التي زود بها، وماكد يهّم بالسؤال عن ثمنهما، حتى توارد الي سمعه صياح رجل يروّج لبضاعته.. (احتسوا خمر التفاح المطيب برائحة السفرجل، والذي لم تتذوق شفاهكم مثيله من قبل، لقد خمرت خصيماً لأصحاب الأمزجة الطيبة والأرواح المرحّة الكارهة للنكد، كأس واحدة منها ستجعلكم تسافرون بالروح حيث المتعة والنشوة، اليوم فقط تناولوها بثمن خاص، جرتين بدلاً من جرة واحدة بنصف شيقل فقط). بلع بصعوبة ريقه المتيبس مُمرراً لسانه على شفتيه مُنثهباً، ثم راح يتمطق بفمه الذي كشف عن ابتسامة خبيثة أخذت بالأتساع شيئاً فشيئاً حتى سرقت كل وجهه، بعدها لم يعد يقوى على التفكير، وكل ما قام به أن مد يده الي رأسه مُتحمساً مكان الضربة اليومية المعتادة بمغرفة الحساء.

# مُلْحَق الحِكايات مُعْجَم الأَسْماءِ والبُلدانِ والمُدُنِ

وَرَدتْ بَيْنَ سَطُورِ الحِكاياتِ العَديدِ مِنَ الأَسْماءِ والكَلِماتِ  
الرافِدينيةِ القَدِيمةِ، والتي قَدْ تَبَدُّو غَرِيبَةً أو غَيرَ مَعْرُوفَةٍ  
لِعُمومِ القَراءِ، لِذَلِكَ تَمَّ إِعدادُ هَذا المُعْجَمِ الصَّغِيرِ لِتَوضيحِ  
كُلِّ تِلْكَ الكَلِماتِ.

المؤلف



**أور ...** أحد أكبر وأقدم الحواضر السومرية في بلاد ما بين النهرين، وتعرف بقاياها باسم "تلول المكير". كانت مقراً لإله القمر "ننار" أو "نانا"، لذلك سميت المدينة في الأدبيات السومرية بـ"مدينة القمر". تقع على بعد بضعة كيلومترات عن مدينة الناصرية في جنوب العراق، وعلى بعد مائة ميل شمالي مدينة البصرة. بدأ الاستيطان فيها منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد، لكنها ازدهرت خلال الألف الثالث قبل الميلاد خلال عصر دويلات المدن السومرية 2370\_3000 ق.م. تعاقب على حكمها العديد من السلالات السومرية، لتصل قمة ازدهارها خلال فترة حكم سلالة "أور الثالثة" 2113\_2006 ق.م، والتي كانت خاتمة السيطرة السياسية للسومريين على بلاد ما بين النهرين وقمة ازدهارهم الحضاري. كشفت التنقيبات التي أجريت فيها خلال العشرينات من القرن العشرين عن الكثير من معالمها الأثرية، مثل المقبرة الملكية والزقورة، ومباني المنطقة المقدسة من قصور ومعابد، إضافة إلى عدد من أحيائها السكنية. استمرت المدينة في الاستيطان حتى فترة متأخرة من تاريخ وادي الرافدين.

**أكد ...** عاصمة الإمبراطورية الأكادية 2230\_2371 ق.م، التي أسسها الملك "سرجون الأكدي" والتي تُعدّ أول إمبراطورية في التاريخ، سُميت كذلك "أكادة". لم يُحدد موقعها حتى الآن، لكن يُعتقد أنها تقع في المنطقة المحصورة بين بلدة المحمودية ومدينة الحلة، وهناك رأي آخر يقضي بأنها تقع في الطبقات السفلى من مدينة بابل التاريخية.

**آشوربانيبال ...** آخر ملك قوي في الإمبراطورية الآشورية الحديثة، وهو الرابع في السلالة السرجونية الآشورية 612\_721 ق.م. ورث الحكم عن أبيه الملك "أسرحدون"، وحكم للفترة 626\_668 ق.م. كانت فترة حكمه مليئة بالحروب، كان من نتيجتها أن امتدت الإمبراطورية الآشورية إلى مناطق بعيدة جداً ضمت سواحل الخليج العربي، بلاد الشام، وادي النيل، آسيا الصغرى، الهضبة الإيرانية، وحتى الأجزاء السفلى من بلاد اليونان. عُرف عن هذا الملك إضافة إلى قوته وجبروته وشدة بأسه، ثقافته العالية وتفاخره بإجادته العديد من اللغات، ومعرفته بثقافات الشعوب القديمة الأخرى، كما أنه أسس في قصره الكبير في العاصمة "نينوى"، مكتبة ضخمة احتوت على أكثر من ثلاثين الف لوح مسماري، ضمت مختلف العلوم والمعارف، إضافة إلى المعاجم اللغوية والكتابات الأدبية والدينية والنصوص والقراءات الفلكية، وقد تمت سرقة هذه المكتبة بالكامل من قبل البريطانيين في أواسط القرن التاسع عشر، ونقلها إلى المتحف البريطاني.

**أرض النيل ...** الأرض العريقة التي عُرفت بتسميتها الشهيرة "وادي النيل"، حيث شيّد شعبها هناك ثاني أقدم حضارة في التاريخ منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد حيث تأثرت في بداية نشأتها بشكل كبير بالحضارة السومرية. كانت مسرحاً لأروع المجزات الحضارية في العالم القديم، من عمارة وفنون وطب وأدب وعلوم. أطلق على ملوكها اسم "فرعون" أي "البيت الكبير"، كما سُميت الكتابة التي دون بها شعبها "الهيروغليفية"، وتعني في اللغة المصرية القديمة "الخط المقدس". تولى حكمها عبر تاريخها الطويل، إحدى وثلاثون سلالة، توزعت على تسعة عصور امتدت للفترة من 3000\_332 ق.م. تعتبر الفترة المسماة "عصر الأهرام" من المملكة القديمة 2270\_2780 ق.م قمة ازدهار هذه البلاد، في النواحي المعمارية والفنية والعلمية. وعند منتصف الألف الثاني قبل الميلاد بلغت بلاد وادي النيل أوج قوتها، فغدت إمبراطورية كبيرة ضمت أجزاء واسعة من بلاد الشام إليها. تعرضت إلى الاحتلال عدة مرات، من بينها احتلال أقوام "الهكسوس" 1573\_1788 ق.م، والاحتلال الآشوري الذي دام للفترة

670\_655 ق.م، خلال حكم الملكين "أسرحدون" 681\_668 ق.م، و"أشوربانيبال" 668\_626 ق.م، ليعقبه كل من الاحتلال الفارسي والاعريقي والروماني. من أهم آثارها... أهرامات الجيزة الثلاث "خوفو"، "خفرع"، "منكورع"، تماثيل "أبو سمبل"، معبد "أبو سمبل"، مدافن "وادي الملوك"، مدفن الفرعون "توت عنخ أمون". أسماها الباحثون "حضارة القبور"، كون معظم آثارها وأنفسها وجدت في قبور ومدافن فراعنتها.

**أرض مارتو ...** تسمية سومرية تعني جهة الغرب، ويراد منها أرض الشام، يقابلها في الأكديّة "أمورو"، ومنها القبائل الجزرية "الأمورية" التي سيطرت على بلاد ما بين النهرين في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، لتؤسس إحدى قبائلها سلالة بابل الأولى بملكها السادس الشهير "حمورابي" 1792\_1750 ق.م. اطلق العراقيون القدماء هذه التسمية مجازاً على بلاد الغربية.

**أدبا ...** حكيم مدينة "أريدو" السومرية، يعني اسمه في السومرية "العالم" أو "العارف" أو "الفاهم"، وهو أول الحكماء السبعة الذين ذكرتهم الأدبيات السومرية في الفترة التي سبقت حادثة الطوفان الشهيرة. تقول الأسطورة أنه مثل أمام الآلهة في موطنها السماوي ليحصل منها على سر الخلود، لكنه فشل في مسعاه.

**آبي سين ...** الملك السومري الخامس والأخير في سلالة أور الثالثة 2113\_2006 ق.م.. حكم بحدود ثلاث وعشرين سنة. واجهت بلاد سومر خلال سنوات حكمه الأخيرة أزمة اقتصادية كبيرة، ونقص كبير في الغلة الزراعية. أنهى حكمه عام 2006 ق.م بعد احتلال مدينة "أور" من قبل العيلاميين، حيث أخذ أسيراً إلى "سوسة" عاصمة عيلام، وتم قتله هناك.

**أنليل ...** إله الهواء لدى سكان بلاد ما بين النهرين، يعني الاسم بالسومرية "سيد الهواء"، يعتبر أقوى الآلهة السومرية ومقره مدينة "نيبور" أو "نفر" التي توجد آثارها في محافظة الديوانية.

**أوروك ...** إحدى أهم وأعرق الحواضر السومرية، تُسمى كذلك "أونوك"، وتعرف أطلالها اليوم ب"الوركاء". تقع على بعد 30 كم شرق مدينة السماوة العراقية، بدأ الاستيطان فيها بحدود 4000 ق.م. ورغم أنها لم تكن أقدم المستوطنات السومرية في جنوب بلاد ما بين النهرين، إلا أنها تعتبر أول مدينة تطورت إلى مستوى الحياة المدنية في التاريخ، بعد أن حدثت فيها ما يُعرف ب"ثورة الاستيطان المدني"، وذلك بعد أن ظهر فيها العديد من الابتكارات والمجزات الحضارية، مثل.. الأختام الأسطوانية، دولا ب الفخار، العجلة، ثم أكتمت فيها العناصر الأساسية لمقومات الحضارة، حين ابتكرت داخل معابدها أقدم وسيلة للكتابة في التاريخ، وذلك بحدود 3500 ق.م والتي عُرفت ب"الكتابة المسمارية". كانت المدينة مركزاً لعبادة اثنين من أهم آلهة بلاد ما بين النهرين، هما "أنو" إله السماء، و"أينانا/عشتار" إلهة الحب والحرب، كما أن المدينة اشتهرت أيضاً بملكها "كلگامش" صاحب الملحمة الخالدة التي عُرفت باسمه. أستمر الاستيطان في المدينة حتى القرن الثاني قبل الميلاد.

**الأكديون ...** أحد الأقوام الجزرية (السامية) التي انتقلت في فترة مبكرة من التاريخ، من الجزيرة العربية إلى سهل بلاد ما بين النهرين الجنوبي، حيث جاؤوا "السومريين" واقتبسوا منهم أصول الحضارة والمدنية، ليشكلوا كيانهم الخاص في القسم الشمالي من تلك المنطقة. تكلموا اللغة الأكديّة التي



تعدّ إحدى اللغات الجزرية (السامية)، أخذت قوتهم بالتعاظم تدريجياً ليأسسوا في زمن الملك "سرجون" 2371\_2316 ق.م أول امبراطورية في التاريخ، عاصمتها "أكد" أو "أكادة" والتي منها عرفوا باسمهم هذا، حيث سموا بلادهم "مات شوميرم" أي بلاد الأكديين. بعد أفول السلطان السياسي للشعب السومري في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، أصبح الأكديون بتنوعاتهم العرقية من "بابليين" و"آشوريين" العنصر السائد والمتحكم في بلاد ما بين النهرين. أشهر مدنهم "كيش"، "أكد"، "بابل"، "بورسبا" "أشنونا".

**أوتوحيغال ...** أمير مدينة "الوركاء"، وحّد المدن السومرية ثم قاد أبنائها بجيش كبير لمحاربة "الكويتيين" الغزاة الذين أسقطوا الامبراطورية الأكديّة واحتلوا بلاد ما بين النهرين عام 2230 ق.م، حيث تمكن من القضاء عليهم وتحرير أرض سومر وأكد من سيطرتهم عام 2120 ق.م، في أول حرب تحررية عرفها التاريخ.. وقد ترك هذا البطل نصاً تاريخياً هاماً بالسومرية يحكي فيه تفاصيل مآثره هذا الانتصار، حيث يذكر أنه حدث في يوم الرابع عشر من شهر تموز، وقد واكب ذلك اليوم حدوث خسوف للقمر مما أنبأ بفأل سيء على "الكويتيين" وملكهم "تريگان"، الذي جيء به مُكبلاً بعد النصر الى "أوتوحيغال" الذي وضع قدمه على رأسه. وقد سمّى هذا البطل نفسه بعد انتصاره الكبير بـ"ملك سومر وأكد"، بدلالة رمزية بليغة على توحيد شعبي جنوب بلاد ما بين النهرين من "سومريين" و"أكديين" في بلاد واحدة بعيدة عن التميّز.

**أريدو ...** مدينة سومرية شهيرة، تسمى بقاياها الآن "تلّول أبو شهرين"، تقع الى الجنوب الغربي من مدينة "أور" الأثرية بمسافة حوالي خمسة عشر كيلومتراً، كان لها ساحل كبير يطل على هور واسع يشرف على البحر (الخليج العربي). كان لهذه المدينة مكانة رمزية مُميّزة وقدسية كبيرة، باعتبارها موطن ومقر عبادة الإله السومري "أينكي" الذي يُعرف بـ"أيا" لدى الأكديين، وهو إله الأرض والمياه العذبة. تُعدّ هذه المدينة الأقدم في بلاد سومر استناداً الى قوائم الملوك السومريين، حيث ذكر أنها أولى المدن السومرية الخمس التي سبقت حادثة الطوفان الشهيرة، وقد أثبتت التنقيبات التي أجرتها مؤسسة الآثار العراقية في المدينة بين عامي 1946 و 1949، صحة ما ذهبت اليه قوائم أولئك الملوك، بأن المدينة كانت تمثل أول استيطان للشعب السومري في جنوب بلاد ما بين النهرين، حيث يرجع تاريخ الاستيطان فيها الى مطلع الألف الخامس قبل الميلاد. ورغم أن المدينة فقدت أهميتها السياسية في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، لكنها ظلت تحتفظ بمكانتها الدينية الهامة، مما جعلها تظل مأهولة بالسكان حتى عام 600 ق.م .

**أنكيو ...** الشخصية البطولية الثانية في "ملحمة كلكامش" الخالدة. يُمثل الانسان المتوحش القادم من البرية، والذي صقلت وشدّبت شخصيته وغيّرت مجرى حياته الحياة المدنية الحديثة. غدا صديقاً وخلاً للبطل "كلكامش" ورفيق أسفاره ومغامراته. غضبت عليه الآلهة لتجاسره عليها فقررت موته، ليهيم بعدها صديقه "كلكامش" الحزين لرحيل صاحبه بين بقاع الأرض بحثاً عن سر الخلود.

**بابل ...** حاضرة بلاد ما بين النهرين الخالدة. تقع الى الجنوب من مدينة بغداد بمسافة 90 كم. تعود بداياتها الى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، حيث كانت آنذاك مجرد قرية صغيرة تابعة لمملكة "كيش" الأكديّة ما لبثت أن توسعت بعد ذلك، لترد أول اشارة إليها كمدينة كبيرة في زمن الامبراطورية الأكديّة 2370\_2230 ق.م. كسبت شهرتها في مطلع الف الثاني قبل الميلاد، عندما تولت الحكم فيها سلالة بابل

الأولى، وخاصة في زمن ملكها السادس "حمورابي" 1750\_1792 ق.م صاحب الشريعة القانونية الشهيرة، لتغدو مركز حضارة بلاد ما بين النهرين لأكثر من خمسة عشر قرناً. كما كسبت المدينة شهرة عظيمة في زمن السلالة البابلية الحديثة "الكلدية" 627\_539 ق.م، وخاصة في زمن ملكها الثاني الشهير "نبوخذنصر"، الذي أعاد اعمارها وتجديدها ليجعل منها أكبر وأعظم مدن العالم القديم قاطبة، حيث بلغ محيطها أكثر من ثمانية عشر كيلومتراً. سقطت المدينة عام 539 ق.م على يد "الفرس الاخمينيين" في زمن الملك "كورش"، ثم اتخذها "الاسكندر المقدوني" 323\_355 ق.م عاصمة لامبراطوريته الواسعة. كشفت التنقيبات الأثرية التي أجريت في المدينة مع مطلع القرن العشرين عن الكثير من معالمها وشوارعها المستقيمة الواسعة وخططها، كان من أبرزها، أسوارها المزدوجة العظيمة والقصرين الجنوبي والشمالي، ومعبد "نماخ" و"نابو شخاري"، وشارع الموكب، والمسرح الاغريقي الذي شيّد خلال "الفترة السلوقية"، وبواباتها التي سُمّيت كل منها باسم أحد الآلهة البابلية، وكان أشهرها بوابة "عشتار"، التي تم سرقة كسوتها الخزفية الملونة من قبل المنقبين الألمان ونقلها الى متحف "بيرغامون" في العاصمة الألمانية برلين.

**بلاد ما بين النهرين ...** ترجمة حرفية للكلمة الاغريقية "ميسوبوتاميا". كان أول استخدام لها في الكتابات اليونانية والرومانية في حدود القرن الثالث قبل الميلاد. تباينت الآراء في تحديد المنطقة التي تعنيها هذه التسمية، لكنها اتفقت في النهاية على أنها الارض التي تقع في جنوب غرب آسيا، وتمتد مساحتها مع مجري نهر دجلة والفرات، والتي تمثلها اليوم حدود دولة العراق الحديث.

**بلاد آشور ...** القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين، تمتد من مناطق شمال مدينة سامراء وحتى المنطقة الجبلية من اقليم كردستان العراق. سكنها العديد من الأقوام والشعوب منذ فترة مبكرة من التاريخ، حيث ظهرت القرى الزراعية هناك قبل غيرها من مناطق الشرق الأدنى القديم. خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، كانت خاضعة لسكان الجنوب من سومريين وأكديين، لكن عند الألف الثاني قبل الميلاد بدأت تأخذ استقلالها تدريجياً، عندما غدا سكانها الآشوريون قوة لها شأنها في البلاد، فسُمّيت المنطقة باسمهم نسبة الى إلههم القومي "آشور". وعند مطلع الألف الأول قبل الميلاد تعاضمت قوة شعبها فشيّدوا امبراطوريتهم الواسعة التي أخضعت معظم بلاد الشرق الأدنى القديم لنفوذها. كان لها أربعة عواصم كبيرة هي "آشور"، "نينوى"، "كالخو" / "النمرود"، "دورشروكين" / "خورسباد"، ومن أشهر ملوكها "آشور ناصربال"، "تجلات بلاسر"، (شلمنصر)، "أددنيراري"، "سرجون"، "آشوربانيبال".

**بلاد الآراميين ...** هي بلاد الشام، الأرض التي أسس فيها الآراميون دولة قوية في مطلع الأول قبل الميلاد، أستمرت بالتعاظم لتكون إحدى القوى المؤثرة في الشرق الأدنى القديم، حتى قضى الآشوريون على استقلالها، وجعلوها خاضعة لهم.

**بغاء المعابد ...** كانت مؤسسة المعبد تدير ظاهرة البغاء في المجتمع العراقي القديم بدعم من السلطات الحاكمة، ومنها أخذت شرعيتها وقانونيتها، حيث أضفيت عليها نوع من القدسية بعد أن تم أحاطتها باطار ديني، تمثل مردوداتها إحدى الموارد الاقتصادية المهمة لهذه المؤسسة.

**تالا...** أسم سومري معناه "النخلة الصغيرة"، وهذه التسمية لازالت متداولة حتى الوقت الحاضر عند فلاحي العراق بنفس الدلالة والمعنى، وعكسها باللهجة الدارجة العراقية أطلقت تسمية "عيطة"، التي تعني "النخلة العالية الشامخة".

**ثُموز ...** إله الخصب والنماء في المعتقدات الدينية السومرية، يُقرأ في اللغة السومرية بصيغة "دوموزي" التي تعني "الأبن البار". أتخذ منه رمزاً لتعاقب الفصول وتبدل تناقضات الحياة من موت وحياة، فرح وحزن، قحط ورخاء. عُرف بحبه وزواجه من إلهة الحب والحرب "أينانا" / "عشتار" التي كانت سبب مأساته في النهاية، حيث بيّنت المعتقدات السومرية، أن هذا الإله يُختطف من قبل عفاريت الظلام بتحريض من "أينانا" في فصل الخريف، ليُسجن في العالم الأسفل (عالم الموت)، حيث يُصيب الارض على أثرها القحط والجذب، وترتسم على وجوه البشر الاحزان والآلام، لتفتديه عند ذلك أخته الإلهة "كشتن أنا" التي يعني أسمها "خمرة السماء"، وتكون بديلاً عنه لتبقى في ذلك العالم المخيف مدة نصف عام، يخرج خلالها "ثُموز" في فصل الربيع لبقية النصف الثاني من العام، مُعيداً بذلك للحياة رونقها وخضرتها من جديد.

**الثور النطاح ...** لقب مستخدم كثيراً في الادبيات السومرية، يتفاخر به الملوك والأبطال لدلالته على القوة والبأس والخصوبة، وهو أحد القاب الملك "كلكامش"، الباحث عن الخلود وبطل الملحمة الخالدة.

**ثورة مدينة لكش ...** أول ثورة جماهيرية في تاريخ شعوب العالم، اندلعت في مدينة "لكش" السومرية عام 2400 ق.م نتيجة الظلم والقهر الذي مورس ضد الفلاحين والشغيلة وعموم البائسين في المدينة، أدى أنتصارها الى أسقاط النظام السياسي الحاكم والقدوم بأخر يمثل الشعب، قادها المصلح الاجتماعي الثائر "أوروأمنغينا"، الذي أصدر أول اصلاح اجتماعي في التاريخ، يعتبر البداية الأولى للتشريع القانوني في العالم، أعاد بموجبه الحقوق الاجتماعية والانسانية للطبقات الفقيرة من المجتمع، وقد وردت في أحد فقرات ذلك الاصلاح لأول مرة في التاريخ كلمة "الحرية"، التي تقرأ بالسومرية بصيغة "أماركي"، وتعني حرفياً (العودة الى الأم)، في مدلول فلسفي بليغ مفاده (أن البشر تولدهم أمهاتهم أحراراً). وقد كان من نتائج هذه الثورة ليس فقط استرداد الحقوق السلبية للطبقات المسحوقة في مجتمع هذه المدينة، وانما بشرت بنهاية مرحلة هامة في تاريخ هذه البلاد، حيث دقت المسمار الأول في نعش النظام الاقطاعي السائد في بلاد ما بين النهرين خلال فترة عصر دويلات المدن السومرية 3000\_2371 ق.م المتمثل بسلطة المعبد الدينية، وقيام النظام المدني الملكي الاستبدادي على أنقاضه.

**خمبابا ...** المارد المخيف الذي أوكلت اليه الآلهة حراسة غابة الأرز (أرض لبنان الحالية). تمكن البطلان "كلكامش" و"أنكيو" في ملحمتهم الخالدة من قتله وتخليص العالم من شروره، بعد أن ساندتهم في ذلك إله الشمس "شمش"، في معنى رمزي فلسفي بليغ بقضاء الإنسان المُتَحضر على الشر والظلام، ونشر ضياء الحقيقة بين أصقاع العالم.

**دلمون ...** يُعتقد أنها جزيرة البحرين الحالية ويقراً أسمها أيضاً بصيغة "تلمون". كانت مركزاً اقتصادياً مهماً خلال الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد بعد أن تأثرت كثيراً بحضارة بلاد ما بين النهرين. وردت في الأساطير السومرية على أنها أرض خير لا تعرف الشر، لذلك اتخذتها الآلهة موطناً لها.

**ذوي الرؤوس السود ...** تسمية أطلقت في النصوص الأدبية خلال الألف الثالث قبل الميلاد على الشعب السومري، وفي الألف الثاني قبل الميلاد أصبحت التسمية تشمل جميع سكان بلاد ما بين النهرين بمختلف أعراقهم.

**الزقورة ...** أحد المعالم المعمارية التي اشتهرت بها وتميّزت بلاد ما بين النهرين، والتي لا تكاد مدينة في تلك البلاد تخلو منها. أسماها مأخوذ من جذر الفعل الأكدي "زقر" أو "زقارو" بمعنى "علا"، "أرتفع"، "سما". وهي معابد عالية تشيّد على عدة مصاطب "طبقات" اصطناعية متدرجة السعة. ظهرت الزقورات لأول مرة في مطلع الألف الرابع ق.م في مدن "أريدو" و"أوروك"، وكانت حينها مجرد معابد صغيرة مُشيّدة على مصطبة واحدة فقط، ثم أخذت تتوسع وتُشيّد بثلاث طبقات خلال الألف الثالث قبل الميلاد، كما هو الحال مع زقورة مدينة "أور"، بعدها شيّدت بخمس طبقات خلال الألف الثاني قبل الميلاد، وتعتبر زقورة مدينة "دوركوريكالزو" / "عقرقوف" في غرب بغداد أوضح مثال على ذلك، لتصل في الأدوار الآشورية والبابلية الحديثة في النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد، الى سبعة طبقات، والتي تمثلها في ذلك خير تمثيل زقورة بابل الشهيرة. تباينت الفرضيات والآراء في سبب تشييد هذه المعابد بهذا الأسلوب، أحدها هو لغرض حماية المعابد من أخطار الفيضانات العاتية التي كانت تجتاح القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين، وهناك رأي آخر يغلب عليه الجانب العقائدي الديني، وهو أن الزقورات هي بمثابة السلالم التي تستخدمها الآلهة في نزولها الى الأرض وعودها الى السماء، لذلك فقد سميت في السومرية "أيتمانكي" أي "معبد طرفاه الأرض والسماء".

**زيوسدرا ...** الحكيم السومري الذي أنقذ نسل الكائنات الحية من الفناء بعد أن بنى سفينة كبيرة أنقذتهم من كارثة الطوفان، كما ورد في الأسطورة السومرية الشهيرة. يقابله "أتراخاسيس" في أسطورة الطوفان البابلية، و"أوتونابشتم" في نص الأسطورة الواردة في ملحمة "كلكامش"، و"نوح" في كتب الديانات السماوية المقدسة.

**الساعة المضاعفة ...** الوحدة الأساسية لحساب الزمن في بلاد ما بين النهرين القديمة، سُميت بالسومرية "دانا" أو "دنا" وبالأكدية "بيرو"، وهي تعادل 120 دقيقة، لذلك أطلق عليها الباحثون هذا الاسم. وفق ذلك فقد قسّم العراقيون القدماء يومهم الى اثنتي عشرة ساعة وليس الى أربع وعشرين، كما هو معمول لدينا في الزمن الحديث، ثم جُعل من هذه المدة وحدة لقياس المسافات، بعد احتساب المسافة التي يستطيع أن يقطعها الإنسان خلالها، والتي تم تحديدها بحوالي 10,8 كم.

**سنحاريب ...** أحد أشهر الملوك الآشوريين في العصر الآشوري الحديث، تولى الحكم للفترة 704\_681 ق.م. وكان الملك الثاني في السلالة السرجونية 721\_612 ق.م، حيث ورث الحكم عن أبيه "سرجون الآشوري"، خلال فترة حكمه جعل من مدينة "نينوى" العاصمة الأولى للآشوريين، وقام بتوسيعها وإعادة أعمارها وتحصينها بأسوار منيعة ضخمة. شهدت فترة حكمه العديد من الحروب، جعلت من الامبراطورية تمتد الى مناطق بعيدة. عرف بمشاريعه العمرانية وبالأخص الإروائية منها. انتهت حياته مقتولاً أثر محاولة انقلابية للاستيلاء على الحكم قادها أحد أبنائه.

**سبار ...** مدينة سومرية شهيرة وهامة في تاريخ بلاد ما بين النهرين، وما يؤيد قدمها وعراقتها ما أوردته جداول الملوك السومرية بأنها المدينة الرابعة من المدن الخمس التي حكمت قبل حادثة الطوفان

الشهيرة، تعرف بقاياها اليوم باسم "تلول أبو حبة"، وتقع بالقرب من ناحية اليوسفية على بعد 45 كم الى الجنوب الغربي من مدينة بغداد، إلهها الحامي هو إله الشمس "أوتو" بالسومرية و"شمش" بالأكدية. تعرضت المدينة خلال تاريخها الطويل الى جملة من الاحداث الهامة، منها احتلالها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد من قبل الدولة العيلامية، في زمن ملكها "شتروك ناخونته"، الذي قام بسرقة معظم أثارها ورموزها، ونقلها الى عاصمته "سوسة"، ومن بين أهم تلك المسروقات مسلة قوانين الملك الشهير "حمورابي" 1750\_1792 ق.م. كشفت التنقيبات التي أجريت في المدينة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين عن أجزاء واسعة منها، وكذلك على الكثير من أثارها الهامة، من بينها مكتبة المدينة التي احتوت على أكثر من الف لوح مسماري.

**سرجون ...** الملك الأكدي القوي، الذي عُرف بـ"سرجون الأكدي". حكم للفترة من 2371\_2326 ق.م، تمكن من ضم جميع المدن السومرية تحت سيطرته، مُنهيًا حقبة زمنية كاملة من تاريخ بلاد ما بين النهرين عُرفت باسم "عصر دويلات المدن السومرية" 3000\_2371 ق.م. شنّ حروباً على جميع البلاد المجاورة مُخضعاً إياها لسلطته مؤسساً بذلك أول امبراطورية في التاريخ، أستمرت في سيطرتها للفترة 2230\_2371 ق.م، امتدت من البحر المتوسط وحتى الخليج العربي، لقب هذا الملك نفسه على أثارها "ملك الجهات الاربعة". تشير كتاباته أنه كان لقيطاً مجهول الأب، وضعته والدته التي كانت إحدى كاهنات المعبد في سلة من الخوص والقتة في النهر للتخلص من فضيحة ولادته، لكن إحدى خادمت قصر الملك "أورزابا" ملك مدينة "كيش" أنقذته وتولت تربيته داخل ذلك القصر، حيث نشأ هناك وكبر ثم أصبح قائداً في الجيش، في حادثة مشابهة كثيراً لقصة النبي "موسى".

**سمو ...** أسم محبب لدى سكان بلاد ما بين النهرين، ويعني "حمامة" في اللغة الأكدية، ومنها أسم الملكة الآشورية الشهيرة "سمورامات"، أو كما تُعرف بـ"سميراميس"، والذي يعني أسمها "حبيبة الحمام".

**سومر ...** تسمية أكدية للمنطقة الجنوبية من السهل الرسوبي لبلاد ما بين النهرين، والتي تمتد من مدينة الديوانية وحتى رأس الخليج العربي، حيث وردت تلك التسمية بصيغة "مات شوميرم" أي "بلاد السومريين"، أما في السومرية فقد سميت "كي أين كي"، وقد اختلف الباحثون في تفسير معنى هذا الاسم، فهي قد تعني "أرض سيد القصب"، لمحاذاتها منطقة الأهوار الغزيرة بأحراش القصب والبردي، أو "الأرض المحروقة"، لارتفاع درجة الحرارة فيها خصوصاً في فصل الصيف، أو "أرض الإله أنكي" سيد الأرض والمياه السفلى وراعي مدينة "أريدو"، المدينة الأولى التي شيدها السومريون عند استيطانهم في هذه الأرض. كانت هذه المنطقة أرض حارة قاحلة تملؤها الوحوش وتجوب فيها العواصف الترابية، وتجتاحها الفيضانات المُدمّرة بشكل دائم، قبل أن يستوطنها لأول مرة الشعب السومري في مطلع الألف الخامس قبل الميلاد، مهاجراً إليها من المناطق الشمالية والشرقية من بلاد ما بين النهرين، ليروض بيئتها القاسية ويؤسس فيها أول حضارة مدنية في تاريخ العالم.

**السومريون ...** الشعب العظيم الخالد، واضع اللبنة الأولى في صرح الحضارة الانسانية ومشيّد مدنيّتها الأولى. أستوطن القسم الجنوبي من بلاد ما بين النهرين في مطلع الألف الخامس قبل الميلاد، ليؤسس هناك أقدم وأعرق حضارة عرفها التاريخ. عرفوا باسمهم هذا نسبة الى الأرض التي استوطنوها "مات شوميرم" أي "بلاد السومريين"، مع أنها تسمية أكدية وليست سومرية، أما الشعب السومري فقد سمّي

بلاد "كي أين كي"، اختلفت الآراء والنظريات في أصلهم أو المنطقة الذي قدموا منها، نتيجة عدم التمكن من ارجاع لغتهم الى أية عائلة لغوية معروفة، لكن البحوث الأثرية والتاريخية والدراسات المسماوية واللغوية الحديثة، أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك خطأ ما ذهب اليه الباحثون فيما مضى، مؤكدة عراقة وأصالة هذا الشعب، وحقيقة ولادته وانبعائه من الأقسام الشمالية والشرقية لأرض النهرين الخالدين دجلة والفرات منذ عصور ما قبل التاريخ السحيقة. أشهر مدنهم هي "أريدو"، "أوروك"، "أور"، "لکش"، "نيبور".

**الشيقل ...** وحدة قياس تستخدم لحساب وزن المعادن والمواد الثمينة، استخدمت منذ فترة مبكرة في بلاد ما بين النهرين، يسمى في الأكديّة "شيفلو"، ومنها أخذت كلمة "ثقل" العربية، أما في السومرية فقد سمي "كين" أو "كيننا"، ويعادل 8,4 غم تقريباً.

**عشتار ...** الاسم الأكدي لإلهة الحب والحرب في معتقدات بلاد ما بين النهرين القديمة، تقابلها في السومرية "أينانا" وكنهه "سيدة السماء". انتقلت عبادتها الى العديد من بلدان العالم القديم، ففي اليونان سميت "أفروديت" كما سماها الرومان "فينوس"، وهي أبنة إله السماء "آنو"، ومقرها في مدينة "أوروك"، اتخذت من كوكب الزهرة موطناً ورمزاً لها لضيائه وجماله. عُرفت في المعتقدات السومرية بحبها وزواجها من إله الخصب والنماء "دوموزي/ثُموز"، وكان من شأن هذا الزواج جلب الخير والازدهار الى الأرض.

**العالم الأسفل ...** هو عالم الموت، ويُسمى في السومرية "كي سُد" أي "الأرض البعيدة"، وفي الأكديّة "أرصة لاتاري" أي "أرض اللاعودة". هو عالم مخيف حسب معتقدات بلاد ما بين النهرين، يُحشر فيه الموتى من البشر والآلهة على حدٍ سواء، يكون طعامهم فيه الطين والتراب فقط. تحرس هذا العالم الشياطين وتحكمه إلهة قاسية تدعى "أريشكيكال" يساعدها زوجها الإله "نرگال". يقع هذا العالم في الطبقة السابعة والأخيرة من الأرض، وتمتد المياه الجوفية العميقة فوق سقفه، وتحيطه سبعة أسوار بالإضافة الى نهر كبير يحيط سوره الخارجي يسمى نهر "خُبر". ومن يدخل هذا العالم لا يسمح له بالخروج منه مطلقاً حتى وأن كان إلهاً، إلا إذا قدّم بديلاً عنه ليحل محله هناك.

**الغيلاميون ...** أحد الأقوام التي سكنت الهضبة الايرانية. أسسوا في منتصف الألف الثالث ق.م دولة قوية في المناطق المحاذية لأرض سومر عاصمتها "سوسة" أو "سوسيانة"، التي تقع بقاياها اليوم في منطقة "الشوش" التي سميت باسمها. كانوا على مدى تاريخهم في حالة صراع مع مدن بلاد ما بين النهرين، حتى قضى عليهم الملك الآشوري "آشوربانيبال" عام 639 ق.م وأزال دولتهم من الوجود.

**عيد الحصاد ...** أحد الأعياد الرئيسية لدى سكان بلاد ما بين النهرين من سومريين وأكديين خلال الألف الثالث قبل الميلاد. كان مواعده في مطلع شهر آذار من كل عام، أي ما يقارب شهر قبل عيد رأس السنة، الذي يكون في بداية شهر نيسان، ويقابله عيد البذار الذي يكون في أواخر شهر أيلول.

**الكوتيون ...** قبائل همجية بربرية كانت تعيش في منطقة جبال "زاكروس". تمكنت من أسقاط الامبراطورية الأكديّة عام 2230 ق.م، ثم سيطرت على بلاد ما بين النهرين لأكثر من مئة عام، عاثت فيها خراباً وفساداً، ثمثل فترة سيطرتهم من الفترات المظلمة في التاريخ. أسماهم السومريون تحقيراً

"أفاعي الجبال" كرهاً لهم، ولتخلفهم فكراً وحضارياً عن شعب النهرين، حتى قضى عليهم أبناء "سومر" عام 2120 ق.م بقيادة الأمير السومري "أوتو حيكال"، في أول حرب تحريرية عرفها التاريخ.

**كلكامش ...** الملك الباحث عن الخلود، وبطل ملحمة بلاد ما بين النهرين الخالدة المسماة باسمه. هو الملك الخامس في سلالة الوركاء الأولى، حكم بحدود 2600 ق.م. ورد في ملحمة الشهيرة أنه قام بأعمال بطولية عديدة، ثم هام بين بقاع العالم كمدماً وحزناً على موت صديقه وخله ورفيق مغامراته "أنكيديو" باحثاً عن سر الخلود، لكنه فشل في مسعاه، لكنه بدلاً عن ذلك سعى لتخليد اسمه وديمومة ذكره بين الناس من خلال قيامه بأعمال عظيمة.

**كيش ...** أحد أهم مدن بلاد ما بين النهرين في الفترة المعروفة باسم عصر دويلات المدن السومرية 3000\_2371 ق.م، وقد أصبحت الحاضرة الأولى والأقوى للأكديين خلال تلك الفترة، سميت بالأكدية "كيشتو" أو "كيشاتو"، تُسمى اطلالها اليوم "تلول الأحيمر"، وتقع إلى الشرق من مدينة بابل بمسافة 12 كم، وإلى الجنوب من العاصمة بغداد بمسافة 80 كم. استناداً لما أوردته جداول الملوك السومرية، فإن مدينة "كيش" كانت المدينة التي أنزلت فيها الآلهة ملوكية بلاد ما بين النهرين بعد حادثة الطوفان الشهيرة.

**لكش ...** عاصمة واحدة من أهم وأعرق دويلات عصر فجر السلالات السومرية 3000\_2370 ق.م. كانت مركزاً سياسياً واقتصادياً ودينياً وثقافياً مهماً وكبيراً، حيث بلغ عدد سكانها حوالي مائة ألف نسمة، يتوزعون على ثلاث مدن رئيسية هي "لكش/العاصمة" وتعرف بقاياها بـ"تلول الهبة"، "كُرسو" وتُسمى اطلالها "تلول تلو"، "نينيا" والتي يُعرف موقعها اليوم "تلول سركل"، وتتبع كلٌّ من هذه المدن عدداً كبيراً من القرى الصغيرة والمتوسطة، ليغطي حجم هذه الدولة مساحة كبيرة من الأرض تقدر بحوالي ثلاثة آلاف كيلو متر مربع. وكانت هذه المدن تمتد بخط واحد بالقرب من نهر "الغراف" على بُعد عشرة أميال من مدينة "الشطرة" التابعة لمحافظة "ذي قار". تأسست في هذه الدولة سلالة حاكمة قوية في عصر فجر السلالات الثاني 2800\_2550 ق.م، أسسها الأمير "أورنانشة" استمرت بالقوة والتعاضد حتى آخر حاكم قوي فيها هو الأمير "أنتيمينا". كان الإله الحامي لهذه الدولة هو "ننكرسو" الذي شيدت له أضخم معابدها، إضافة إلى معابد الآلهة الكبار الأخرى مثل "أنو" و"أنكي" و"أينانا". كانت مؤسسة المعبد في هذه الدولة تمثل سلطة قوية مستقلة تضاهي السلطة السياسية الحاكمة، حيث امتلكت لحسابها الكثير من الأراضي الزراعية بلغت أكثر من رُبع مساحة الدولة. كانت الزراعة المصدر الرئيسي للاقتصاد إضافة إلى التجارة مع البلدان البعيدة مثل "دلمون" و"مگان" و"ميلوخا" وبمختلف البضائع. وكان لهذه الدولة جيش قوي ومنظم تفاخر به أمرائها، قدر تعداده بعشرة آلاف محارب بين قائد وجندي. وقد اعتبر قادة هذا الجيش من الطبقات العليا في المجتمع لهم حقوق وامتيازات خاصة، أما بقية الرتب الصغيرة والجنود فكانوا من بسطاء الشعب. في عام 2400 ق.م وصل إلى الحكم المصلح الحكيم "أوروانمكينا" بعد أن قاد أول ثورة شعبية في التاريخ، نتيجة الظلم والقهر الذي مارسه سلطتنا المعبد والقصر اتجاه الطبقات الفقيرة والمعدمة في الدولة، أصدر بعدها إصلاحاته الاجتماعية الشهيرة التي كانت بمثابة البدايات الأولى للتشريع القانوني في تاريخ حضارات العالم. قضى على هذه الدولة الملك "لوكالزاكيزي" ملك مدينة "أوما" عام 2392 ق.م، مع بداية ظهور الفكر التوسعي الإمبراطوري في بلاد ما بين النهرين. كشفت التنقيبات التي أجريت في مدن هذه الدولة عن العديد من الآثار الهامة

والنادرة، وكذلك عن كميات كبيرة من الألواح المسماة التي أعطت صورة واضحة عن طبيعة الحياة في بلاد سومر خلال الألف الثالث قبل الميلاد.

**المنّا ...** الاسم السومري لإحدى وحدات قياس الوزن، يقابله في الأكديّة "منّو"، وتعادل تقريباً نصف كيلوغرام (505غم).

**نرگال ...** الإله القاسي الشديد زوج الإلهة "أريشكيغال" إلهة العالم الأسفل أو عالم الموت، كان يساعدها في قبض أرواح البشر، لذلك كان سكان وادي الرافدين يخافوه ويمقتوه على مدى تاريخهم. أصبحت له مكانة كبيرة في التاريخ الآشوري الحديث خلال الألف الأول قبل الميلاد.

**نبيور ...** مدينة سومرية عريقة تعرف بقاياها حالياً باسم "نفر"، ازدهرت خلال الألف قبل الميلاد بعد أن غدت المدينة الدينية الأولى لشعب سومر، كونها مقر أقوى الآلهة في المعتقدات السومرية ألا وهو إله الهواء "أنليل" وزوجته "ننليل". تقع على مسافة سبعة كيلومترات الى الشمال الشرقي من مدينة "عفك" في محافظة الديوانية، و175 كم جنوب بغداد. كشفت التنقيبات التي أجريت في المدينة حقائق كبيرة عن تاريخ بلاد ما بين النهرين. رغم فقدان المدينة لأهميتها السياسية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، لكنها ظلت تحتفظ بمكانتها الدينية الهامة، مما جعل الاستيطان يستمر فيها حتى العصور العربية الإسلامية.

**نينوى ...** آخر عواصم الامبراطورية الآشورية الحديثة وأكبرها، كما شهدت سقوطها على يد تحالف الكلدانيين والميديين عام 612 ق.م. ازدهرت في زمن الملك "سنحاريب" الذي تولى الحكم للفترة 704\_681 ق.م، حيث شيّد فيها القصور الفخمة، وأعاد تحصينها وترميم معابدها وجعلها العاصمة الأولى للآشوريين. تقع المدينة الى الجانب الشرقي (الأيسر) لنهر دجلة، وكانت ذات مخطط مستطيل غير منتظم الأضلاع يمتد من الشمال الى الجنوب، يقسمها نهر "الحوصر" الى قسمين. اعتبرت واحدة من أكبر مدن العالم القديم، حيث كان يحيطها سور ضخّم يبلغ طوله اثنا عشر كيلومتراً، يحوي خمسة عشرة بوابة ضخمة، سمّي العديد منها بأسماء الآلهة الآشورية، مثل بوابة "أدد" وبوابة "شمش" وبوابة "نرگال"، وبوابة "آشور". شيّدت أهم المباني والقصور الملكية في هذه المدينة على تلين أثريين كبيرين، هما "تل قوينجق" شمالاً و"تل النبي يونس" جنوباً. كشفت التنقيبات الأثرية أن الاستيطان في هذين التلين بدأ في فترة مبكرة من تاريخ بلاد ما بين النهرين، حيث أن طبقاتهما السفلى تعود الى فترة العصر الحجري الحديث في الألف السابع قبل الميلاد.

**هو الذي رأى ...** تعبير يُقصد به "ملحمة كلگامش" الخالدة، إذ يُمثل العبارة الأولى الواردة في هذه الملحمة، وهو أسلوب تعارف على إتباعه كتاب بلاد ما بين النهرين القديمة، حيث يتم عنونة الواحهم المكتوبة بالعبارة الأولى التي ترد في النص المكتوب.





## المؤلف

### حامد خيرى الحيدر

\* منقب وباحث أثاري.

\* ولد في مدينة بغداد عام 1965 ودرس في مدارسها.

\* بكالوريوس في علم الآثار من كلية الآداب .. جامعة بغداد.

\* عمل في مطلع التسعينات من القرن العشرين منقباً للآثار في الهيئة العامة للآثار والتراث العراقية، حيث قضى معظم خدمته في الأعمال الحقلية، وفي العديد من مناطق العراق، مُتَنَقِّلاً بين الكشوفات والمُسوحات الأثرية والتنقيب الأثاري.

\* شارك في العديد من الدورات الفنية التخصصية في مجالات تنظيم وإدارة المتاحف، التصوير الفوتوغرافي، الهندسة المساحية، الصيانة الأثرية، معالجة المخطوطات، التنقيب والمسح الأثاري.

\* شارك في مؤتمرات الآثار التي نظمتها الهيئة العامة للآثار والتراث العراقية على هامش مهرجانات بابل الدولية.

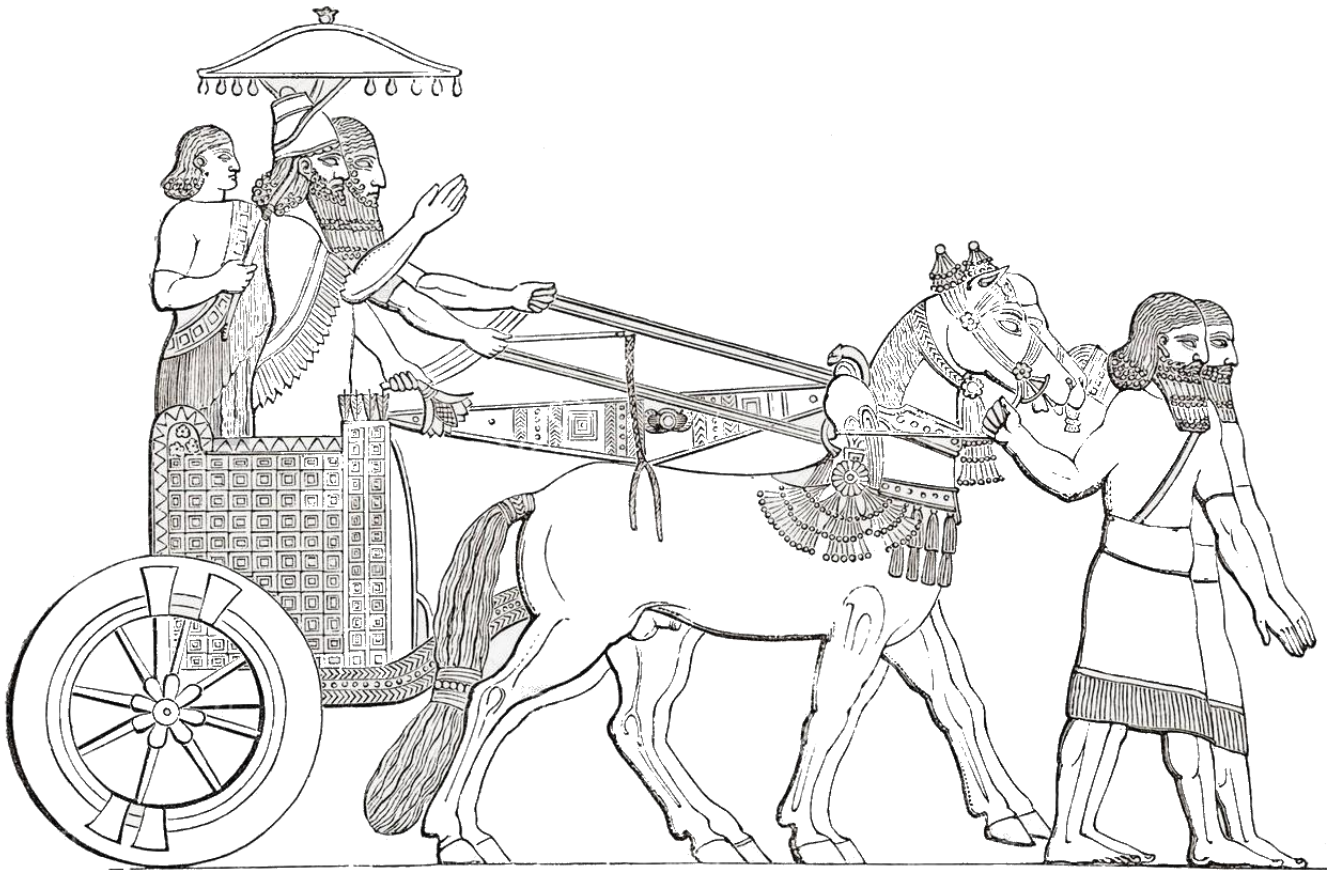
\* شارك في العديد من الندوات الحوارية واللقاءات النقاشية التي نظمتها الهيئة العامة للآثار والتراث مع علماء الآثار الأجانب الزائرين للعراق.

\* حصل عام 1998 على درجة باحث علمي.

\* غادر العراق في أواخر عام 1998 الى مملكة السويد، حيث يقيم فيها اليوم.

\* له العديد من البحوث التاريخية والدراسات الأثرية منشورة في مجلة "سومر" الأثرية التي تصدرها الهيئة العامة للآثار والتراث، بالإضافة الى مجلات ودوريات علمية وثقافية أخرى، كما له أيضاً العديد من الكتابات الأدبية.





## الفهرس

11	هذه الحكايات ... بلاد ما بين النهرين أزلية الوجود
13	وداعاً مدينة القمر
19	نحو قصر الامير
23	أرض السنابل
27	الدولاب
33	موعد عند الضفة
35	أحلام لأفراخ القطا
37	القيثارة العتيقة
41	أحداق وسكين
43	ملحمة حب سومرية
49	نقوش من وحي الظلام
51	السوار
55	ضحكة لامينا
59	عين الآلهة
65	عند أسوار بابل
71	نبوءة الماضي
79	شجون الحمام
83	شجرة السومريين

87	..... بعيداً عن نينوى
95	..... أغلى من الذهب
103	..... أنهار الخمر
109	..... ملحق الحكايات / معجم الأسماء والبلدان والمدن
121	..... صاحب الحكايات

ميزر للنشر والتوزيع  
maizar förlag



عضو المجلس في الرمان كتابات





بلاد ما بين النهرين، أرض فسيحة امتدت حتى حدود الزمن وأفق الحضارة، اختزلت بين مفارقات انبثاقها وتناقضات تاريخها الموغل في القدم، أسطورة الأنسان وملحمة النضال المُعفرة بعَبق الأصالة وعبير الصمود، لترسم عَبر ذلك الحَيِّز الممتد لآلاف السنين بين عُسر ولادتها وحاضر أيامها، خطأً بيانياً مُتعرجاً احتير بتناقضاته وصُعوبة تفسيره، من صُعود نحو قمة الرفاه والازدهار، الى هبوط مُنحدر يَهوي الى قاع الخراب والدمار. لكن الغريب في كلتي هاتين الحالتين المتضادتين، هو وصول أبن هذه البلاد الى نتيجة واحدة وغاية متماثلة، تتلخص بفكرة مُبهمة كان هو نفسه قد نبذها عن عقيدة وجوده وناموس ثقافته، رغم استحقاقه المُطلق لها، ربما خوفاً منها أو كرهاً لها، لكنها الصقت به مع تتابع الدهور وتعاقب الأزمان، رغم إرادته وما قدّرتة حتميات الوجود ومذهبيات بديهية التطور، ألا وهي جدلية الخلود، في حالة لم تعرفها أدبيات المجتمعات الأخرى في قديم هذا العالم وحديثه، لا لشيء إلا لكونه قد أمسك قبل غيره من سائر البشر بطرف خيط الحياة الواهي، ففهم امتداده الواصل بين النشوء والفاء.

میزر للنشر والتوزيع  
maizar förlag



میزر للنشر في الرمان كتاب

